رواية
مملكة الجواري
محمد الغربي عمران
نوفل

محمد الغربي عمران

مملكة الجواري

رواية

إهداء :

إلى الأستاذ دكتور عبد العزيز المقالح.. إنسانا ومبدعا. هامة وطنية سامقة. من مثل للمبدعين وطنا في زمن عزت فيه الأوطان.. ومنحنا رعاية نعتز بها ونثمنها دوما .. بكل إجلال أقدم إليك أستاذنا هذا العمل الروائي المتواضع تقديرا وتبجيلا لمقامكم السامي.. سائرون على نهجك .. لعزة الإنسان وقيم الحرية والعدالة .. في زمن برز ت فيه دعوات التطرف بالتكفير والقتل والتدمير .

أســـماء

٤٧٠هـ

-١-

ظهر القزم "اليامي" في سوق الوراقين من جديد باحثاً عمن هدم حانوت المعلم وسرق محتوياته.. توارى بعضهم وبقى من يتبرأ.. موجهين أصابع الاتهام إلى من تواروا. لأيام لم يستدل على الفاعل.. قرر بعدها مغادرة صنعاء. طالباً مرافقته.. رفضت طلبه مفضلاً البقاء في صنعاء لإعادة بناء الحانوت ومواصلة حياتي كناسخ في سوق الوراقين. لكنه أرسل من يقتادني من عسكره: الأمر ليس بيدي بل هي رغبة مولاي الملك أحمد ابن علي محمد الصليحي "المكرم". صممت على رفضي مرافقته إلى ذي جبلة.. مردداً: من أين للملك أن يعرفني! لكنه أمر عسكره بمراقبتي ليرحل بي في صباح يوم غائم باتجاه اليمن الأسفل.

لم أتصور أن أسافر مخفوراً.. حولي قطيع من البغال تحمل أواني نقيع العنب المعتق من سراديب القلعة.. وأخرى تنوء بحمل صناديق كتب جمعها اليامي من سوق الوراقين وبعض دور صنعاء.. بهدف إنشاء مكتبة بذي جبلة لكتب المذهب.. وإتلاف ما يخالف. مجموعة من العسكر والخدم يحجلون حولنا في تفانٍ. قطعوا المرحلة الأولى.. واثناءها يستعرض أحد حراسي مهاراته في معرفة البلدان.. وما كان يشغلني الفكاك والهروب بعيدا.

.....

بعد خروجي من السجن مع بداية ٢٠١٠.. عاطلاً عن العمل بعد فصلي من عملي .. أصحو باكراً بحثا عن عمل.. أجول بداية من شارع جامعة صنعاء حيث باعة الكتب المستعملة.. ثم الدائري الغربي.. لأنتهي قبيل الظهيرة في ميدان التحرير مستعرضاً عناوين صحف الأكشاك.. ماراً على باعة كتب الأرصفة.. ثم على مقعد مقهى مبنى وزارة الثقافة.. وقبل عودتي لسكني أعرج على سوق القات ابتاع قليلا من أغصانه لأعود منهكا لمضغه. أخرج نسختي من مخطوطة جوذر من تحت فراشي.. أواصل قراءة أوراقها.. من حيث انتهيت إليه قبل سجني.. أقرأ بداية بعام ٤٧٠ هـ.

عند النوم أتوسدها.. مسترجعا حكاية هذه المخطوطة وأثرها على حياتي.. متأملا حالتي وقد أضحيت عاطلاً.. لكن سعادتي وبين يدي نسخة مصورة أواصل قراءتها دون قلق.

قبائل بلاد الروس وسنحان اصطفت تنشد تراحيب المطر بمقدم اليامي الذي يبدو للرائي من الخلف كصبي في مقتبل العمر لقِصره.. ومن يرى وجهه يدهش لكبر سنه.. صاعدين به قلعتهم "العسال" المتربعة على قمة حيد وعلان.. احتشد الناس حولي يتأملون رجلاً بلا وجه. يحرسه العسكر. أزفر ليتطاير شعر وجهي محركا خصلاته فأراهم يتأملوني كما لو كنت كائناً غريباً.

سار بنا اليامي من قلعة إلى أخرى حتى حصن "هران" المطل على مدينة ذمار.. تجمع الوجهاء بهداياهم من غلال الذرة والحنطة وخيول أصيلة. وهناك إعياء يوم من السفر المتواصل.. استطعت مغافلة العسكر بعذر ذهابي لبيت الخلا.. واستطعت التسلل خارج الدار والتواري في أزقة المدينة. أشرقت الشمس وانتصف النهار فظننت بأني في مأمن ولم أعرف بأن كومة الشعر جعلت الناس تدلهم إليَّ: أحكموا وثاقه ولا تتركوه للحظة حتى نصل ذي جبلة. لم يوجه القزم كلامه إليَّ في البداية.. ملامحه غاضبة تثير الضحك وقد بدا أنفه بارزاً وتحولت عيناه إلى دائرتين ضيقتين. التفت إليَّ مقطباً الجبين: لو عرفتَ ما ينتظرك لسعيتَ إلى ذي جبلة زحفا.. ستكون ضمن حاشية الملك.. بعد أن أختارك لتكون كاتبه وكاتم أسراره .. لمَ لا تتصرف بما يليق بمقامك؟ لماذا تريد أن تصل مكبل اليدين؟

وهكذا ودعنا ذمار.. ليخرج السكان رافعين أسنة رماحهم في صفوف ينشدون بأدعية لمولانا المكرم ولزوجته سيدة.

ولم يأتِ المساء حتى ارتقينا جبالاً عالية لنبيت في قلعة "صيد".. عند الصباح تراءت لي وديان متشعبة وجبال متكئة على بعضها.. كان ذلك العسكري يستعرض لي معرفته بتلك البلاد البعيدة ووديانها العميقة المتداخلة غربا.. أفق ممتلئ بركام الجبال البعيدة.. يعرفنا بأسمائها وقبائلها. ولم أكن أهتم لما يهذر به.. حتى أشار إلى نقطة بعيدة مؤكدا أنها ذي جبلة.. هناك حيث بدت لي بقعة خضراء غامضة.. خفق قلبي وأنا أمعن النظر فيها.. نسيت إهانتي بتلك القيود.. بدا وجه شوذب واضحاً في داخلي .. وأخذت نفسيتي تهدأ.

سلكنا صباحاً جديد منحدرات وجروف سحيقة.. بعد ليلة استقبل فيها اليامي هبات ونذور تلك القبائل من صبايا وحنطة ومواشٍ. زاد عدد الدواب المحملة بجرار العسل والسمن.. ما إن نقترب حتى تخبو لدي رغبة الهرب.. وقد انشغل تفكيري بشوذب. انتصف النهار ونحن وسط وديان حبيش والسحول ليطل علينا حصن "خدد" من عليائه حتى الثجة.. وإلى الشرق حصن حب.. ولم نتوقف وقد دنت الشمس نحو المغيب.. واصلنا المسير تحت سماء زينها وميض نجوم صامتة.. ترافقنا أشباح أشجار تتنفس عتمة أرواحنا المجهدة. دخلنا أخدود سائلة عريضة قال لي ذلك العسكري بأننا نسير في وادي ذي جبلة. تقترب حوافه ثم تتسع.. يصاحبنا أزيز حشراته الضاجة. تتداخل حمحمات الخيول ووقع حوافرها وسط مياه السائلة.

ارتفع صوت أحدهم: الحمدلله وصلنا مقر مولاي الملك المكرم "ذي جبلة" تبعته عدة أصوات بالتهليل والتكبير فرحاً بالوصول.. خفق قلبي جذلا: أخيرا أنت في ديار شوذب.

أناخوا وسط ساحة غير مستوية.. عتمة ضاربة أطنابها.. حولنا جدران سوداء عالية تسلقت أسافلها أعشاب كثيفة. توزعت أبراج الحراسة.. تحلق حولنا عدد من النساء.. بينهن رجل هرم يتعكز بساقه الخشبية.. حاولت مداراة وجهي عنه.. أشار اليامي على عسكره: صِلوه إلى حيث سيسكن ثم فكوا وثاقه. ثم خاطب ذا الساق: هذا في استلامك. سار بي العسكر يتبعون ذا الساق. انعطف بنا يحمل سراجه وسط ظلام بارد. يتقدم ببطء عرجته .. فتح باب دار ملاصق لقصر.. أدخلني ملتفتاً إليَّ في صمت.. أشحت بوجهي بعيداً. أغلق الباب دوني منصرفا.

.....

مع الأيام تعرفت على أحد باعة الكتب الذي يتخذ من رصيف حديقة التحرير مسرحا لعرض كتبه.. سألته أن أعينه في عمله.. حكيت له شاكيا حالتي.. ناظرا إلى وجهي مظهرا علامات التعاطف.. راسما تلك التجاعيد الدالة على المواساة.. لم يكن ثرثاراً. فقط يسألني حين أصمت بعض الأسئلة.. لأجيب عليه شارحا أسباب فصلي من عملي في دار المخطوطات التابع لوزارة الثقافة. وسجني لعدة أشهر.

مع مرور الوقت أصبح ينتظر قدومي مقدما لي كأس شاي.. يستمع إلي.. بينما أتأمل دمامة وجهه المليء بالخدوش القديمة ورأسه الكبير.. يوم عرفته على اسمي عرفني باسمه "أبو رأس" وهو أول إنسان أجد اسمه

وقفت في حيرة محاولاً اكتشاف المكان..عانقني إرهاق السفر فأطفأت السراج وتمددت على دكة تلتصق بحواف الجدران.. سريعا ما احتواني جراب نوم لذيذ. شعور وجودي قرب شوذب بدأ يشغل تفكيري. أشعلت السراج.. خطوت لأكتشف المكان.. الحجرة التي نمت بها تعج بأثاث وثير.. ونافذة وحيدة تطل على فضاء تزينه النجوم.. عدة أبواب جانبية يفضي أحدها إلى بيت خلاء.. وآخر إلى عدة غرف خالية.. فسحة واسعة في طرفها سلم حجري صاعد.. دفعني الفضول لصعوده.. باب أعلى السلم مغلق.. عدت أدراجي.. أدور في مكاني دون هدف.. أسير في دوائر متلاحقة. أطفأت السراج مقتربا من النافذة الوحيدة.. أمسكت قضبان حديدها المتداخل.. أتأمل عتمة نجوم تومض بسخاء.. مر وقت حتى ظهر وهج غلالة تتفرد ببهاء ساحر يتوج قمم جبل بعدان.. نجيمات نسيها الليل.. سلسلة سفوح تنتهي بتلال دون ملامح.. مرت لحظات حتى أظهر الضوء أودية غائرة.. لا شيء خارج نافذتي غير فضاء وأخدود لوادٍ عميق.. منحدرات تعلوها تلال معشبة. بعد لحظات ارتفع صخب عصافير.. ليطغى على أزيز روحي.. اتسع أفق الضوء.. رأيت دروباً دقيقة تهبط أودية وأخرى تصعد جبالاً بعيدة.

-٢-

مع شروق الشمس فُتح باب ليلة البارحة.. أطل وجه ذي الساق.. التقت عينانا.. وجهه الأشعث.. وشفتاه المستهلكتان.. تأكد لي بأنه الذي قيدني ذات يوم إلى جذع شجرة القلعة. بلا مبالاة جلس على دكة خارج الباب يشفط يراع غليونه الطويل.. خطوت باتجاه الباب.. مد ساقه الخشبية معترضا.. بينما أصابعه تداعب جمر تمباكه .. رفعت صوتي أعرفه بنفسي:

- أنا من التقاك يوما في قلعة صنعاء.

قاطعني رافعا صوته .

- أعرفك .. ومن ينسى وجهك المخبوء خلف الشعر؟

- لكني اليوم ...

- لا تثرثر.

- أريد الخروج.

- حتى يأتي الفسح .

- فسح؟

- يبدو أنك لا تعلم بما يدور؟

- ما يدور؟

- عليك بالهدوء.. فالكل مشغول بصعود مولانا المكرم إلى حصن التعكر.

تعجبت لكلامه.. وأنا أحدث نفسي: ماعلاقة صعود مولانا بخروجي إلى الشمس؟ ثم عاودت حديثي إليه:

- ولمَ يصعد؟

- هذه مشيئته.. لا يجوز لأحد طرح هكذا سؤال!

بعد مجادلة.. أقفل الباب متأففا.. مخلفًا حيرة تجالسني .. لم يكن لي غير النافذة المطلة على أفق الجبال العالية.. قضيت وقتي أفكر في ما أنا فيه.. أناجي شوذب.. أعاتبها .. أبحث عن قوى تخرجني لأتعرف على نهار ذي جبلة.. أسير في حجرتي ذهاباً وإياباً باحثا عن تفسير.. أرفع صوتي. وهكذا كنت طوال النهار علَّ أحداً يسمعني .. فُتح الباب مع آخر اليوم . ظننت الأمر نتيجة لصراخي. ليطل ذو الساق مبتسماً: موعد قصعة العشاء قد حل. ولم يستقر كما كان صباحاً.. أقفل الباب ورحل.

صباح اليوم التالي فتح الباب. ليكرر منعي من الخروج مقتعداً دكته يداعب غليونه .. تركته وعدت مستلقياً على فراشي.. أرى مقدمة غليونه معلقاً.. يطل بوجهه مغمغما بكلام غير مفهوم كمن يبحث عن شيء.. ثم يعاود مستويا في جلسته.. فقط دخان أزرق يتراقص من طرف يراعه.. وهكذا يعاود دلق وجهه ناظرا إلى الداخل.. ليعيد رأسه من جديد إلى الخلف..

يردد همهمات كمن يهامس جليساً له.. لم يدم طويلا حتى أقفل الباب من جديد.

وهكذا توالت الصباحات.. لأعاود محاولة الخروج.. سألته أن يسمح أن أتنفس الصباح .. وألا يغلق الباب عليَّ.. نهرني .. آمراً بالعودة إلى جوف حجرتي. كنت في حيرة من أمري.. متذكراً كلمات اليامي"ستكون كاتب رسائل الملك" وأن حياتي في ذي جبلة ستكون ضمن الحاشية.. ولم أتصور أن يُغلق عليَّ بابٌ كأي حبيس.

بلغ حنقي ألا أحتك بذي الساق أو أعيره أي اهتمام لأيام وأيام .. يفتح الباب كعادته يضع قصعة الطعام.. أرقب الباب دون حركة.. وهكذا مارست لا مبالاتي بينما كان الغيظ يسكنني لعدم وجود أي ردة فعل منه.

حتى ذلك الصباح حين خطى باتجاهي يتعكز.. أسترق النظر فحسب.. ساحبا ساقه.. ثم جلس على أطراف فراشي ينفث دخانه.. لم أتحرك متصنعا عدم الاهتمام.. أخذ ينقر ساقه بأحد أظافره قلقاً.. خرج صوته هادئا على غير عادته:

- عرفت البارحة حكاياتك.

- أنا كاتب الملك.

- نعم!

- هذا أنت تعرف.. ومع ذلك تعاملني بقسوة.. وتمنعني الخروج.

ابتسم وهو يشفط يراعه.. مربتاً بحنو على كتفي.

- سأصدقك القول.. الأمر ليس لي .. هذا أمر سيدتي سيدة!

- سيدة ؟ لكني كاتب الملك.

- هي في مقام الملك بعد صعوده التعكر.

تأملت ملامحه المتغضنة صامتاً.. وجه يحفه شعر خالطه البياض.. شفتان هرمتان.. ملابس جلدية حاسرة عن كتفيه وصدره.. فضلت الصمت

بينما استمر يتحدث إليَّ ملاطفا.. لم أرد عليه ليرفع صوته بنزق: أأصابك البكم؟

بعث نزقه فيَّ الضحك.. أشحت بوجهي بعيدا كاتماً ضحكتي.. نهض هاماً بتركي.. انفجرت مقهقهاً لقلة حيلته.. وكأننا أصدقاء نعاتب بعضنا بأسلوبنا الخاص.. التفت: أتسخر مني؟

- أستغفر الله.. فقط أضحك على خيبتي.

عاد يجلس بالقرب مني.. مغمض العينين ينفث دخانه.. يمسك معصمي معاوداً النظر إلي.. وبصوت خفيض:

- ألستَ متزوجا؟

باغتني بذلك السؤال.. أدركت بأنه مثلي بحاجة إلى نديم. لحظتها سرحت إلى سنوات خلت.. طال صمتي. سألته.

- وأنت.. أمتزوج؟

ابتسم في حنو غير متوقع.. أزال ماكان قد تركته ذكرى شجرة قلعة صنعاء. بل وتناسيت بأنه سجاني. بدا لي كما لو كنت أعرفه منذ سنوات بعيدة. أحدث نفسي: لمَ لا أشاركه رغبته في المنادمة؟ قد تزداد الثقة بيننا ويساعدني على الهروب.. أو أن يدلني على طريق شوذب. نفخت شعر وجهي.. رفعت ناظري إلى وجهه يحدوني الأمل بتعاونه. بينما كان يواصل شفط يراع جمره.. ابتسم هامسا : لم تجب .. أين أولادك؟

كان أسلوبه -وهو يدفعني بأسئلته للحديث- مضحك.. وقد انتقل إلى سؤال آخر عن أولاد مفترضين.. ماض في طريق من يعرف كل شيء.

- أولادي لا يزالون في ظهري.

ابتسم .. وهو يرقبني بنظرات حانية.

- أيعقل أنك لم تتزوج بعد.. فلمَ كل هذا الشقاء؟

"لمن كل هذا الشقاء؟" لا يعرف بأني كثيراً ما سألت نفسي السؤال نفسه.. ولم أجد لشقائي جواباً. كثيرا ما فكرت في ذلك.. بالفعل لماذا أشقى؟ سكنني صمت وحيرة. كررها: هيا قل لي ..أم أني أتحدث إلى أبكم؟

- لكني لا أملك الجواب.

نهض متأملا ملامحي وهو يتنفس رائحة تنباكه.. كان وجهه بملامح معوجة.. خمنت بأنه يقصد شيئاً آخر غير شقاء العقل.. هو إذاً لا يعرف ما بعقلي من شقاء في بحثي عن يقين .. عن مجموعة من الأوهام تحتل عقولنا. لا يعرف كم يشقيني العدم. للحظات سرح عقلي بعيدا.. نسيت ذا الساق.. ولم أعد أرى ما حولي.. ارتفع صوته متذمرا ليعيدني إلى واقعي.. رأيته ناهضا حاملا يراع دخانه.

- خاطرك.. صورتك أهوج .. وأنا لا يعجبني ذلك!.

تركني وسار يتعكز مقفلاً الباب عليَّ.. خفت أن أصاب بالجنون.. أرى نفسي تائها في البراري. ظللت في مكاني.. بينما صوته يخترق مسامعي: ساذج من ينادم أهوجاً. في خلوتي أفكر بشوذب على الدوام.. وأمل لقياها يتفاعل فيَّ.. قلت رغبتي بالهروب.. أحلم بها.

صباح اليوم التالي فتح الباب ولم يعاود الدخول.. يضع قصعة الطعام .. يجلس على دكته الخارجية.. ينشغل بجمر يراعه لبعض الوقت ثم يغلق الباب ويمضي لأيام أنتظر تكرار دخوله.. لكنه لم يكررها.. بادرت بسحب

.....

يناسب مظهره.. ويبدو انه معروف من الجميع. في البدء ظننت تلك البسطة ملكه.. لكنه أسر لي بأنه مجرد جندي مكلف ببيع تلك الكتب.. وأن تلك البسطة وكل بسطات الكتب يملكها أناس نافذون.. مبشرا بأنه أخبر من يعمل لديه بحاجتي للعمل.. ومن أني صاحب خبره في الكتب.. ثم أشار بابتسامة باهتة أن أذهب إلى مبنى التوجيه المعنوي للقوات المسلحة الذي ترى أدواره العلوية في الطرف القبلي لميدان التحرير. وقال بأنه يود معرفتي.

سمعت عنه الكثير.. فهو أحد كبار ضباط البلاد.. ومن المقربين لرئيس البلاد.. توجهت من لحظتي كما أشار.. حتى بوابات الحراسة.. سألتهم.. ليرفع أحدهم سماعة الهاتف.. ثم يشير علي أحدهم أن أتبعه.. ساحة واسعة.. عدة مبان من عدة طوابق بنيت حديثا.. مبان أخرى من زمن الملكية.. أفراد كثر يخرجون من تحت الأرض.. قال لي إنهم عمال المطبعة.. صفوف عربيات في نظام.. مدرعة تحت قلعة عند طرف السور الشرقي.

خطواتي على استحياء باتجاه الباب.. متظاهرا بالخروج.. اعترضني بساقه.

- الم أحذرك.

- لا أريد الذهاب بعيدا.

- سيأتي يوم تخرج كما تشاء.

- متى هذا اليوم؟

- لا تملك إلا الانتظار.

وقفت أسترق الن

ظر إلى أطراف الغابة .. جانب من ساحة خالية إلا من مبانٍ متداخلة في صمت.. كنت في حيرة من أمري.. سألته.

- أمتأكد بأنها أمرت بحبسي؟

- من قال ذلك؟

- أنت!

- بل أنت في مقام شرف مولانا المكرم أعزه الله.

- مللت من ذلك الشرف؟

- هيا عد إلى مهجعك ولا أريد سماع لغوك.

- لو كنت مكاني .

قاطعني.

- لو كنت مكانك لحمدت الله.. وصمت.

عاد له نزقه.. وقفت أتأمل الخارج من خلف الباب.. أفكر في وسيلة.

- أتمنى أن تسمح لي بالخروج .. فقط لأجلس جوارك.

صمت قليلا.. ثم همهم بصوت ناعم.

- سأسمح لك.. على أن تخبرني لماذا لا تجز شعر وجهك؟

منذ تلك اللحظة يفتح الباب لأسارع بالجلوس إلى جواره .. لا يفارق فمه مبسم يراعه.. يشفط دخانه.. أحدثه بحذر حتى لا أثير حفيظته وأفقد الجلوس جواره. عيناي تتجول حيث تحلق تلك الأجنحة.. نتف سموات زرقاء وجدران الجبال العالية. رياح تداعب أعالي أشجار غابة قريبة.. أشاركه دخان يراعه.. أشعر بنشوة حين أتنفسها.. وما إن يغلق بابه حتى أقضي وقتي بالرقص مع بقايا النشوة وحيدا.. لأيام أضحيت أنتظر صباح دخانه بشوق لالتقاط مشرب يراعه في نوبات متتابعة.

-٣-

حدثني عن تفويض مولانا المكرم لزوجته الحرة سيدة لإدارة المملكة قبيل صعوده صباح ذلك اليوم حصن التعكر. وعن حضور وجهاء البلاد محملين بهداياهم الثمينة.. ومرافقتهم موكبه صعودا إلى الحصن.. قال: امتلأت الدور الملحقة بالوافدين ونُصِبت الخيام.. ونُحِرت مواشٍ كثيرة لاستضافتهم.. حتى أن كلاب القرى المجاورة شبعت من بقايا العظام.. وحامت الضباع ليلا. يبدأ الحديث ليستمر دون توقف. لا ينتظر مني أي كلمة.. أسمعه ومشرب الدخان يذهب جيئة وذهابا حتى تذبل جمره.

.....

أصعدني الجندي سلما مضاء تلمع رخاماته تحت أقدامنا.. جنود يقفون أمام أبواب ممر طويل.. عبرنا صالة فُرشت بموكيت وثير.. حجرة أحتلتها عدة مكاتب وأجهزة الحاسوب وموظفون تتحرك عيونهم في صمت.. انصرف مرافقي بعد إيصالي إلى موظف هرم يبدو مدير مكتب الرجل الأول.. سألني عن اسمي ليدخلني مكتبا واسعا به من الطاولات الفاخرة والمقاعد الفخمة وتلك السجاجيد ذات الوبر الناعم والزاهي.. دواليب احتوت على منحوتات تذكارية وأوسمة.. وشهادات.. الرجل الأول منهمك خلف مكتب من الخشب المعشق يقلب أوراق ملفات.. يبدو جسمه دون رقبة وقد انحسر الشعر عن رأسه.. شاشة تلفاز عريضة على قناة الجزيرة لا يكترث لها.. صور ببراويز مذهبة على الجدران ضمت قائد البلاد وأخرى لرجل التوجيه المعنوي بقامته القصيرة المكتنزة في عدة مناسبات إحداها يصافح القائد. كل شيء يوحي بالفخامة والهدوء.. رفع وجهه بعد سماع صوت الموظف يلوك اسمي.. نظر إلي نظرة فاحصة.. ثم أشار على الموظف بإيماءة من وجهه لم أفهم معناها.. بدوره أشار علي اللحاق به.

فكرت باستغلال لحظات النشوة.. أسأله عما يدور خلف تلك الجدران العالية.. أن أدحرج أسئلتي حتى أصل إلى شوذب. بدأت بسؤال حول حياة القصر.. نظر في عيني صامتا.. ثم ابتسم وسألني: ولماذا تسأل عن حياة القصر؟ أكمل سؤاله مركزا ناظريه في عيني وصمت ينتظر ردي.. ليحيلني أفكر لبرهة. مفضلاً الهروب وسُأله حول ماضيه.. سريعا ما ارتسمت بسمة صافية مشيحا ناظريه بعيدا كمن يستدعي إلهاما.. ليجيب بصوت مرح: أنا من همدان.. كان أبي يملك الأرض ويفلحها وأنا وأخوتي نساعده.. لم نكن نعي بأن موت أمي سينهي استقرارنا.. فما أن تزوج أبي بغيرها حتى تغيرت طباعه.. ليتحول إلى شخص مزواج.. طلق زوجته الجديدة بعد أشهر ليتزوج بأخرى.. وهكذا استمر ينتقل من زوجة إلى أخرى ما دفعه إلى بيع ما يملك.. قال وهو على فراش الموت لقد عشت كما أوصانا النبي أن نعيش "حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرت عيني الصلاة"

تفرق إخوتي.. وألحقني أبي صغيرا بخدمة مولانا الملك علي محمد الصليحي بعد الجهر بدعوته. وهكذا ابتعدت عن أخوتي.. وسارت بي الأقدار بعيدا.

خرج مولانا علي محمد الصليحي من جبال حراز.. شاهرا سيفه لينتشر سلطانه أينما توجه بجنوده.. تنصُره ملائكة الفجر.. تقاتل في صفوفنا.. ولذلك كان لا يبدأ قتال أعدائه إلا عند الفجر.. وكثيراً ما هاجمهم ليلا مستغلا الليالي المقمرة.. نكتسح البلاد نخرب الدور ننهب ونثير الرعب.. ينتقل مولانا بجنده من الغرب إلى الشرق ومن عدن إلى تهامة.. بقيت معه حتى قتله الأحباش في تهامة وهو في طريقه إلى مكة ثم مصر. التفت إلي صامتا وقد تجهم وجهه كطفل يهم بالبكاء.. ثم أردف: حاربت بعد استشهاد مولاي الملك علي الصليحي مع ابنه المكرم.. فلا توجد بلاد في جزيرة اليمن إلا وحاربنا أهلها حتى أخضعناهم.. إلى ذلك اليوم الذي فقدت فيه ساقي.. وكان ذلك في غارة مولاي المكرم لصد زحف النجاحي بعد وصوله جبال صيد والشعر وحصن قيضان وسلبة.

يومها دار القتال من حصن إلى آخر.. ليؤتى برأس سعيد الأحول ويُلقى بين قدمي مولاي. في أحد تلك المواجهات كان فخذي قد اخترقها سهم وكسر عظمها.. وسال دمي .. كدت وغيري أن ننفق تحت سيقان الخيول. يومها كان مولاي المكرم قد جعل جماعة من جنده يسحبون من طُعن أو كُسر وسط المعارك. لنُسحب خارج ميدان القتال. بعد ذلك قُطعت ساقي بحد نصل بتار.. وغُمست في زيت يغلي.. أُغمي عليَّ لوقت ليس بالقصير حتى ظنوا أني فارقت الحياة.. لكن مَنّ الله عليَّ بحياة جديدة وهبتُها لسيدي المكرم. الذي لولا فضله لكنت من الأموات.. وهو أول من سن سحب الجرحى من أرض القتال.. بعد أن كان يُترك الجرحى لمصيرهم.

وكعادته حين يهم بالانصراف يلتفت إليَّ متأملا عيني ثم يبتسم.

- هل أعجبتك حكايتي؟ هززت رأسي مظهرا غبطة زائفة.. متمنيا أن يجنح بأحاديثه الطويلة إلى حياة القصر.. وبدلا من ذلك سألني ذلك الصباح: وأنت هلّا حدثتني عن نفسك؟ لم أكن أتوقع منه ذلك السؤال بعد أن أتقنت دور المستمع.. وعرفت كيف أنمي نشوته بالحديث عن نفسه. كنت قلقا من تبادل مواقعنا وأنا أحكي عن نفسي.. أن أفقد وده.. أو يمنعني من مجالسته.

- لا يوجد لدي ما يستحق الحكي. كم أضاءت تلك الكلمات وجهه وهو يربت على كتفي مبتسماً. كمن يتفضل علي:

- ولو.. احكي.

أستعرض حكايات قديمة محاولا اختيار ما يمكن أن تثير إعجابه.. بدأت بحكايتي مع معلمي صغيرا.. أدهشني إصغاؤه.. هازا رأسه بين فينة وأخرى.. في حقيقة الأمر أشعرني بالارتياح وهو ينصت. ولذلك لم أترك

.....

تبعت ذلك الهرم.. ملامح وجهه توحي بالطيبة.. مقتصدا في صوته.. وقف خلف مكتبه فاردا خارطة كبيرة مشيرا بإصبعه: عليك أن تختار رصيفا مناسبا قريباً من حركة المارة. لم أكن أفرق بين الأرصفة ومباني الخارطة. فضلت متابعة إصبعه.. تابع: وان أحببت أن أقترح عليك فهناك الكثير من الأرصفة المقترحة لأكثر من شارع في مديريات العاصمة.. يمكننا تحديد رصيفك. طبعا عملك هو بيع الكتب.

شيئاً مما عشته في صباي إلا وحكيته. تماهت تلك الفواصل بيننا.. ولم أعد أشعر بأنه سجاني. سألته ذات يوم عن اليامي.. سألني مستفسرا: أتقصد ذلك القزم الذكي؟ هززت رأسي بالإيجاب. ليواصل: له لسان ساحر ولذلك هو شاعر بلاط مولاتي الحرة وأبرز مستشاريها.. رجل يؤتمن عليه.. يسكن في دار ملحقه بالقصر من الناحية الأخرى .. مستعد دوما لما تأمره. استغليت استجابته وشكوت له خيبة ظني من اليامي الذي وعدني بأنه سيكون إلى جواري.. وأني سأكون ضمن حاشية الملك.. ولم أتوقع أن يقتادني إلى سجن.

وصباحاً بعد صباح أخذ يقترب بأحاديثه من حياة القصر.. قال: عليك أن تعرف بأن اليامي لا يملك من الأمر شيئاً. وأن مولاتي سيدة هي من تمنع التواصل واللقاءات ولا يتم شيء هنا إلا بمعرفتها.. حتى الخروج والدخول لأي كائن من أي باب من أبواب القصر أو المباني الملحقة مثل هذا الذي تسكنه إلا بمعرفة مسبقة منها.

مضت أيام حتى ذات صباح حين فُتِح باب السلم العلوي.. لم يندهش ذو الساق حين هبطت منه مجموعة من الجواري بثياب مبهرجة ووجوه باسمة.. ومع تأجج دهشتي وقفت إحدى الجواري تخاطبني.

- سيدتي الحرة تمن عليك بهذه الكسوة.. وتأمرك بالمثول في حضرتها.

خفق قلبي رهبة.. وأنا أزفر فرحا ليتحرك شعر وجهي .. يبتسم ذو الساق: ألم أقل لك دوام الحال من المحال. تمتمتُ: أخيرا فُرِجت. في الوقت الذي لم أكن أتوقع أن يهبط أحد من ذلك الباب العالي.. لبست على عجل.. صعدت خلفهن متبختراً بثوبي الجديد. إحداهن توصيني: أنصت في حضرة سيدتي.. حتى لو طرحت عليك سؤالاً.. لا تجب.. ولا تتحدث إلا إذا قالت " أسمعك" عندها تحدث بكلمات قليلة. كانت وهن يعبرن بي ممرات متداخلة وسلالم صاعدة تردد عين نصائحها.. بينما حواسي تبحث فيما حولي عن وجه شوذب.. رائحة تشابه رائحتها. همسات لا ترى هنا وهناك كأنها همسها.. عبرن بي مساحات ضوء ضيقة. حجرات فسيحة

فرشت ببسط ملونة.. وأخرى معتمة.. حتى قاعة لم ترَ عيني مثيل اتساعها.. تطل نوافذها على وديان وسهول بعيدة.

صف من الجواري.. وجوه متشابهة.. فجأة رأيت وجهها.. اضطربت أنفاسي وأنا أتأمل وجها بيضاويا أبيض .. تماسكت.. كادت ساقاي تخذلانني.

ارتفع صوت جعل الصمت سيد الجميع: أنتم في حضرة الحرة الملكة سيدة ولي عهد المسلمين. للحظات من السكون والترقب لفت نظري حركة على مقعد يواجهنا ظهره.. ثم ارتفع كف أبيض من عليه.. فقط كف ومسند خلفي. وصوت غلماني ارتفع: مرحبا بك.. اطلعت على ما تخطه يداك.. من اللحظة أنت كاتبنا.. ستحظى برعايتنا وعليك إنجاز ما يصلك من رسائل ومخطوطات. صمتتْ لهنيهات.. ثم عاد صوتها: وما دمت في خدمتنا عليك أن تنسى ماضيك.. حتى اسمك.. وتنسى من تكون.. وتلك العلاقات التي تنشأ مع سنوات العمر.. حتى المشاعر والعواطف.. من الآن أنت صفحة اللحظة. وإن لم تستطع فاحتفظ بماضيك لنفسك.. لكنك أمام الغير أنت لست كائن الأمس. في الأيام الماضية ثرثرت كثيرا.. عمن تكون وعما كنتَ تصنعه منذ طفولتك.. وعمن أحببت.

تحدثتَ بسخاء.. وذلك معيب في من يكون في شرف خدمتنا. فلا تعود إلى مثل ذلك حتى لا ينالك العقاب! كثيرا ما سيتردد عليك سؤال من أنت؟ وعليك أن ترد بثقة: خادم مولاتي الحرة. وإن كان ولابد أن تثرثر فعليك بتمرين خيالك على صنع ما تريد حكيه عن نفسك.. على ألا يكون فيه حرف واحد عن نفسك.

صمت الصوت بينما انشغلت بمغالبة حيرتي.. أحاول استيعاب ما سمعته.. أنقل ناظري في حذر بين مسندها ووجه شوذب ذي الملامح

.....

وقفت على رصيف في شارع الشهيد علي عبد المغني.. المسئول عن تزويدي بالكتب ومحاسبتي هو القائم على بسطة رصيف وزارة الثقافة.. عرفت لاحقا بأنه الآخر جندي تابع للتوجيه المعنوي.. وأن كثيراً من بسطات الكتب المستخدمة منها التحرير وعلي عبد المغني وشارع الجامعة يعمل بها جنود.. وكذلك بقية أرصفة صنعاء. والمسؤول عن الجميع مدير مكتب الرجل الأول بالتوجيه المعنوي.

الحيادية.. محاولا إخفاء ارتباكي.. أن أسيطر على ارتعاش أطرافي. ارتفع ذلك الكف مرة أخرى.. وصوت من بين الجواري "انتهت المقابلة!" التفتُ لتلتقي عيناي بعيني شوذب كاد قلبي يسقط. حاولت الظفر بنظرة أخرى.. لكنها تشاغلت بما حولها.. بينما اتجهن بي خارج القاعة.. أحسست بأجنحة من السعادة بعد أن تيقنت بأني قرب شوذب. هبطن باضطراب مشاعري.. أغلقن الباب لأجالس غبطتي.. تلاحقني نظرات شوذب.. وقفت أمام نافذتي أسترجع تلك اللحظات.. وجهها.. عيناها.. هي نفسها وإن نظرت إليَّ بلا مبالاة.. واليوم لا تفصلني عنها سوى جدران.. فذلك هو وجهها الذي رأيته.

صدى صوت الحرة سيدة يتكرر "عليك أن تنسى ماضيك.. اسمك.. وتنسى من تكون" أسئلة تشقيني: كيف يلغي الإنسان نفسه؟ وألا أكون أنا! ماذا يعني أن يكون اسمي صعفان؟

جافاني النوم.. قضيت ليلي جوار النافذة متأملا بحر الظلمة.. أنتظر وهج الفجر. وقفت مرتبكا بعد أن فُتح الباب السفلي.. ينظر إليَّ ذو الساق مبتسماً.. أنظر إليه بحنق.. أريد صفعه.. أن أصرخ في وجهه.. أن أقول لقد خدعتني حين مثلت لي صديقاً أسكنه قلبي. كنت أود سؤاله: لماذا وشيت بي؟ لكنني عجزت عن المجابهة.. مفضلا عدم مجالسته. قهقه وهو يحجل راقصاً على ساق واحدة.. ثم وقف كمن عرف ما يدور بخلدي مشيرا إلي "هيا جالسني.. لا تكن ساذجا.. ما حكيته لي بالأمس كان عن شخص اسمه جوذر.. اليوم من يجالسني شخص جديد!"

-٤-

لم يتغير شيء.. ذو الساق يفتح بابه السفلي في مواعيده.. مواصلاً منعي من الخروج.. في أول يوم صرخت مهدداً:

- لقد تغير الوضع.. سأشكوك إلى الملكة.

لكنه رد بصوت خانع:

- لا أتصرف دون إرادتها.

عرفت لحظتها أنني سجين.. وأن القزم خدعني حين وضع السلاسل في يدي.. لكن ذلك يهون في سبيل شوذب.

أستقبل الليل.. أشعل السراج.. أجالس نفسي وقد تلبسني إحساس بأني شخص لا أعرفه. أستحضر وجه شوذب.. أخاف أن أفقده.. في لحظة أردت أن أنقش وجهها على الجدران.. أن أصنع ما صنعته في قلعة صنعاء أيام الملك الصليحي علي.. قفزت صارخا كأني أمسك بتلابيب شوذب. سارعت بإخراج أقلامي ومدادي .. قضيت شطراً من الليل أرتبها على أرفف خزائن الجدران .. ولم تعد قنينة أو ريشة إلا وأخذت مكانها على الرفوف.

اخترت غرفة خالية من الأثاث.. غرفة تخص شوذب.. لا أحد يعنيه ما أصنع.. يحكمون إغلاق الأبواب علي .. بدوري أحكم إغلاق تلك الجدران.. في غرفة شوذب أخذت أنقش حدود وجه مدور.. فماً صغيراً.. أنفاً صغيراً.. عينين تنظران إليَّ.. شعراً أسود.. هو ذاك وجهها يوم أن كناعائدين من الحانوت إلى دارهم..حينها كانت تسير أمامي متقافزة.. لم تكن ترقص فقط بدت بعد اكتمالها تهرول وهي تدور بثوبها السابح.. تلتفت لتلتقي عيناها بعيني.. تبتسم وتكرر دورانها بينما أنتظر نظراتها كلما أكملت التفاتتها.. هكذا بدت بألوانها الزاهية.. تتحرك راسمة دوائر لا تنتهي.. تنظر إلي باسمة. تلك جدائلها ترفرف ووجنتاها تلمعان تحت عمود الشمس وفمها الصغير يرسم بسمته الخاصة به.. لم تكن فاردة ذراعيها لكني نقشتهما مفرودين كعصفور دوري خافق الجناحين.. هي كما كانت في ذلك الشارع.

في صباح يوم لاحق فُتح الباب العلوي للمرة الثانية.. لتهبط ثلاث جوارٍ.. سلمنني مخلاة مليئة بالرسائل وأدوات نسخ وعدة رقوق .. قُلن لي بأن سيدتهن الحرة تريد سرعة نسخ تلك الرسائل بخط حسن.. مع الأيام تمكنت من معرفة ما يراد مني.. يهبطن كل صباح ليحملن ما أنجزته في اليوم السابق ويضعن الجديد.. ليُغلقن الباب العلوي بعد صعودهن.. كما يُفتح الباب الأسفل ويغلق في مواعيده.

أسترق النظر إلى ملامحهن.. أفتش عن ملامح شوذب في وجوههن لأرى أن كل الوجوه تشبهها.. أترصد أصواتهن.. خطوهن.. روائحهن لحظة مناولتي مخلاة اللفائف: سيدتي تأمرك ..... وسيدتي تريد.... وسيدتي تقول...

فاجأني ذو الساق بدخوله الدار لأول مرة بعد وشايته بي .. لم أقاوم حين رأيت دموعه.. وخوف يتملكني أن يكتشف تلك الغرفة التي يسكنها نقش شوذب . كمن يسير نائما وجدتني أسير جواره ممسكاً بذراعه.. ومنذ ذلك اليوم أسارع لمجالسته في شوق.. أمد يدي لألتقط يراع تنباكه صامتا.. أشاركه نشوة دخانه.. لم يعلق على عودتي لمجالسته.. أو أنه كان يتواطأ مع رغبتي لمشاركته دخانه.

مدركا مقدار الحسرة التي تسكنني.. ولأيام يتركني أشاركه جلسة الصباح دون الحديث إلي أو السؤال عن أحوالي.. فقط يمد يراعه في صمت.. حتى وجدت نفسي من أتحدث إليه دون مقدمات.. وهكذا لأيام أتحدث بنشوة حول أشياء لا تخصني.. ودوما أسمع دوي أرواحنا تتهاوى في أعماق سحيقة.

مضت صباحات بين الجلوس إلى دخان ذي الساق واستلام مخلاة بريد وتسليم آخر.. أقضي شطراً من ليلي في غرفة شوذب أنقش حولها فراشات.. أسراب عصافير تحط على أغصان الورد.. سماء تزينها سحب مسافرة.. لم تكن من أرض تقف عليها فقد بدت كما لو أنها تطير في دوائر متلاحقة.

إلى ذلك الصباح لاحظت لفافة مختلفة بين لفائف مخلاة البريد.. لونها

.....

عرفت لاحقا أن تلك السوق تتقاسمها أكثر من شبكة تنشط في بيع الكتب المدرسية.. وما تلك الكتب المستخدمة إلا واجهة مخادعة ليس إلا. ومن تلك الشبكات ما يتبع أحد قيادات وزارة التربية والتعليم.. منتشرة منافذ بيعها داخل العاصمة وفي مدن أخرى.. إضافة إلى منافذ لبعض متنفذي إدارة البلديات لكنها قليلة.. وكل له مخازنه الخاصة من الكتب المدرسية.. يتنافسون على توفيرها وإنزالها في كل أشهر العام الدراسي غير منقوصة.

وملمسها لا يشبه بقية اللفائف.. ما إن انصرفن حتى فردتها.. لأقرأ" به نستعين وإليه نلجأ رب العرش العظيم.. ونصلي ونسلم على البهي رسوله الأعظم.. وعلى مولانا علي كرم الله وجهه.. وعلى القمرين النيرين الحسن والحسين والزهراء البتول والأئمة الأطهار ومن والاهم إلى يوم الدين!"

فقط كلمات قليلة لم تعن لي شيئاً.. ديباجة نبدأ بها الرسائل لم تشغل إلا حيزاً قليلاً من لفافة طويلة.. قلبتها بين يدي متسائلا هل وقعت بين الرسائل بالخطأ؟ أعدت قراءتها.. عاينت رسم حروفها. كانت شبيها بأسلوب رسم الرسائل التي تصل لنسخها. وضعتها جانبا منشغلا بما علي إنجازه.

وحين عدت إليها وجدتها خالية.. صفحة بيضاء.. قلبت ظاهرها وباطنها دون فائدة.. لا توجد حتى بقايا أحرف أو حتى نقط. تملكني العجب. وبحذر وخوف وضعت تلك اللفافة في مخلاة الرسائل المنجزة لأتخلص من غموضها. لكنها عاودت الظهور بعد أيام "هي مجازفة أن أكتب إليك.. قد تكون حياتي أو حياتك ثمنا إن اكتشف أحد ذلك. أرجو أن تتفهم قواعد العيش هنا حتى تحافظ على رأسك فوق كتفيك.. وأدعو الله أن يبصرك.. إذا قرأت هذا.. دعها جانبا حتى تتبخر حروفها واكتب الرد عليها قبيل إرسالها. لا ترد علي في غيرها.. سأكتب إليك كلما سنح الوقت.. وأنتظر ردك على نفس اللفافة.. على أن تضعها بحذر بين الرسائل المنجزة" أكملت قراءتها وشعرت بتبلد تفكيري. وضجيج نبض قلبي.. ألهج: هي شوذب.. لقد رق قلبها؟ أخيرا لا أحتاج إلى من يدلني على طريقها. حملت اللفافة.. دخلتُ غرفتها وفردتها أمام نقشها.. أخذت أناجيها وعيناي تدمعان: سأحتمل إلغاء نفسي كما تأمر مولاتي الحرة.. سأحتمل تغيير اسمي. سأحتمل الحبس.. وسأقبل بكل ما يراد مني.. فقط أن يظل الأمل بلقياك.. وأن أملي ناظري من وجهك الحبيب.. هذا أنا لا أطارد سرابا.. وهذه أنت حقيقتي أخيرا.

وكما سبق تبخرت حروفها وأمست خالية من أي كلمة.. أيقنت بأن ما أعيشه خارج المألوف.. كانت عيناي تستعيد كلمات اللفافة "لا تكتب الرد على صفحة أخرى.. بل اكتب الرد عليها لتضعها بين الرسائل المنجزة. أنتظر ردك" تلك العبارات جعلتني أعيد فحص تلك اللفافة عدة مرات علّي

أكتشف سرها.. ولكن دون جدوى.. قد يكون هو السحر وإن كنت لا أؤمن به.. لكنها حقيقة بين يدي.

لم أنم ليلتها أمسيت أدور حول نفسي وقد تغازر القلق حولي.. أجلس في غرفتها.. أنقش عدة أزاهير تحت قدميها.. أنظر إلى سقف الغرفة.. أفكر بزخرفته بما يليق بغرفة تسكنها شوذب. هكذا قضيت ليلي في تفكير ما يجب صنعه ببقية جدران تلك الغرفة حتى تسلل وهج الفجر من نافذتي.

ماذا لو كانت تلك اللفافة فخ؟ أقلبها بين يدي.. أنظر من نافذتي بعيدا.. أبحث عما يدلني في صمت تلك الجبال. لو لم تكن هي.. فمن تكون؟ ظللت أقلب مخاوفي حتى بزغت الشمس.. لحظتها قررت المجازفة بعد أن اقترب وقت هبوط الجواري.. فردت تلك اللفافة وأمسكت بيراع قلبي مرتجفا وكتبت: "أنا على يقين من أنك شوذب.. هل أنت هي؟ وقد ذكرت خوفك من أن تُكشفي.. وبدوري لا يهمني أن أُكشف وألاقي عقاباً قاساً إن كنت أنت من أتوق للقياها.. أستحلفك بكل مقدس أن تخبريني.. وإن كنت على يقين من أنك أنت. ثم ما سر اختفاء حروف هذه اللفافة؟ تريني أجازف لأنك يقيني".

بالكاد أنجزت تلك الكلمات وودعتها قلقا بين الرسائل المنجزة .. لتصعد المخلاة ويصعد قلبي المضطرب خلفها.. يطول مقام الخوف طيلة ذلك اليوم.. حتى هبطن صبيحة اليوم التالي.. ما إن صعدن حتى سارعت بأصابع راجفة وأنفاس لاهثة أبحث عن مبتغاي.. خفق قلبي بشدة وأنا أسحبها.. فردتها وأنفاسي تسابق عينيَّ:

"يا لعفوه وكرمه.. ربي رب العالمين.. إلهي أستغفرك دوما عدد خلقك.. وأسبح بكل ذرات ليلك ونهارك.. وأصلي على سيد الخلق وعلى آله أجمعين. قرأت ردك بسعادة بالغة.. ويبدو بأنك كما استشرفك قلبي.. فشكرا لله الذي وضعك في طريقي.. أحمده حمد الأولياء والصالحين. أثارت كلمات جوابك مشاعري.. فأنا لست من ذكرت.. ولم أسمع يوما بذلك الاسم.. أنا جارية لم ألتقيك يوما قط.. كل ما في الأمر أنني رأيتك في

حضرة مولاتي ليخفق قلبي لحظتها لمرآك.. تلا ذلك سحر حرفك الذي تخطه في رسائل سيدتي .. ولا أخفيك سرا أني كنت قد قرأت لك كتاباً في العشق أهديته لليامي قبل أن تأتي ذي جبلة. قد يكون من الجنون أن يعشق الفرد كائناً لم يجالسه أو يلتقي به.. وأحب أن تعرف بأني حين وقفتَ في حضرة سيدتي أحسستُ بأني أعرفك منذ زمن بل وأعشق وجها غامضاً أتخيله جميلا وإن حجبته خصلات شعَرِك.

أذكرك علينا بالحذر.. ما نقوم به مجازفة ثمنها أرواحنا.. ولن يأتي الضرر إلا منا وليس من غيرنا.. سأخبرك في مرات قادمة عن الكثير مما في نفسي.. فأنا مغرمة بك بعينيك اللتين تشرقان من خلف خصال شعر وجهك.. لقد زاد ذلك الشعر الذي يخفي وجهك من انشغالي.. سأنتظر ردك على نفس الصفحة بشوق".

جاءت تلك الكلمات أكثر غموضا على قلبي.. أعدت قراءتها باحثا بين سطورها عما يؤكد يقيني.. أقلبها طوال الوقت حتى تلاشت حروفها.. لتصبح بين يدي صفحة بيضاء.

-٥-

لها أن تنكر نفسها كجزء من خوف كامن.. فمن يعرفني غيرها في قصر ذي جبلة حتى يكتب إليَّ؟ ومن تجرؤ على مخاطرة دون معرفة سابقة؟ ظللت أردد ما يجول بباطني.. حتى ارتفع صوتي دون وعي مني.. شعرت بالإحراج وأنا أرى ذا الساق واقفا بعد فتحه للباب.. رافعا صوته:

- ما هذا؟ أجننت أم أنك تعاشر الجن!

.....

ونتيجة لمحدودية السوق كانت العلاقة بين تلك الشبكات غير مستقرة.. إضافة إلى عدم الثقة فيما بينها.. لتنشب مؤامرات بين فينة وأخرى.. من خلال شن حملات مداهمة ومصادرة لتلك الكتب.. لتدخل تلك المناوشات ضمن حروبهم الصغيرة. ودوما ما يقتاد صغار البساطين.. وعادة ما يدعون أنهم أصحاب تلك البسطات.. وهم من يواجهون تلك الحروب الصغيرة وقد يديرون بعضها في مناسبات قليلة.. ولا يفشون أي سر من أسرار المهنة. كنت أستغل لحظات لأقرأ أوراق جوذر حين تخف أقدام المارة .

رفعت يدي متقدما نحوه.. احتضنته بإحساس تائه.. هامسني مربتاً على ظهري: لا عليك.. لا عليك هونها تهون.. ستفرج بفضل الصلاة على رسول الله.

أجلسني ليحدثني ناصحاً. تركته يتحدث متصنع الإنصات.. هازا رأسي أشاركه دخانه حتى أحسست بهالة من الوجد تحتويني. وسريعاً ما أنقضى الوقت.. ليغلق الباب مبتسما وهو يردد: أمرك اليوم غريب.

دخلتُ غرفتها.. وقفت أمام نقشها أتابع مرونة حركتها.. حاولت تقليدها راقصا.. أجاريها في دورانها لتلتقي نظراتنا.. وهكذا حتى دمعت عيناي. يقيني يزيدني سعادة ورضا. قضيت أياما أزين خشب سقفها.. التفت إليها من باطن السقف لأبادلها النظرات.. أنقش ورقا في أغصان كرمة لا تشبه ورق العنب.. عصافير تتخفى بين أغصان الكرمة.. ملأت الفجوات بين الخشب بألوان داكنة ولامعة.. تلك الفراشات مختلفة عما ألفت رؤيته.. حتى أن أحجامها أكبر من أن يلتقطها عصفور.. لم أنسَ نقش عيدان تيبست وبراعم تبزغ من تحت جذوع الأوراق.. لم يكن نقش السقف متعبا.. فقط كنت بطيئا في انجازه.. ولذلك كان علي أن أنذر شهورا طوالاً حتى أكمل ما يطرب نظراتها.

إحساسي مختلف وأنا أجلس أمامها.. أخط جوابي عليها.. يشاركني قلقي.. أقترب من نهاية كلماتي فألمح ابتسامة حول فمها الصغير: هذا أنا أكتب إليكِ والسعادة تغشاني.. نعم أكتب إلى تلك الصبية التي تسكن خاطري ونفسي.. الصبية التي فارقتها ذات يوم أمام أكوام رقوق كان علينا ملء صفحاتها بالمداد.. وأذكر بأنا تواعدنا أن نلتقي أمام جامع صنعاء المقدس قبيل صلاة الظهيرة.. وأجزم بذهابك في الموعد ولم تجديني. هي فرصتي الآن أن أكتب معتذرا وموضحا سبب غيابي عن الموعد.. أنا على يقين من أنك تذكرين.. كان ذلك قبل عشرين سنة.. لا تزال تلك التفاصيل تسكنني. ظهور خيالة القلعة في أزقة السوق.. لحظتها كنت أهم بالخروج لإغلاق الحانوت والتوجه إليك.. لكنهم تقدموا نحو باب الحانوت.. ظننتهم يسألون عن أحدهم.. حاصروني في صمت وقد رأيت بريق عيني أحدهم وهو يشير إلي"هيا اجلبوه" مستديرا بخيله.. بينما سحبني عسكره مقيد اليدين

إلى مؤخرة خيل أحدهم. ظننت أن في الأمر خطأ ما.. حاولت الاستفسار لكن عنفهم أسكتني ولم يتركوني أغلق الحانوت.. ليقتادوني إلى القلعة.. وهناك أودعوني ظلمة لا تشبه أي ظلمة. لأتأخر عن الحضور إلى موعدنا سنوات طويلة.. سنوات تحت الأرض. ظللت أتخيلك تنتظرينني أمام باب المسجد طوال غيابي. حتى يوم خرجت توجهت إلى نفس المكان.. وحين لم أجدك سرت إلى داركم.. ثم بيت أمي.. لكني لم أجد أياً منكما.. سرت أطوف أسأل الأزقة والأسواق.. أتلمس الطريق.. حتى أني سافرت مكة للبحث عنك. دون أن أهتدي.. كان همي أن أعتذر لك.. وألا تعتقدين بأني خذلتك.

ويوم دلتني إحدى العجائز إلى سكنك.. أنكرت نفسك.. صحيح بأنك كنت مختلفة وقد أمسيت أكثر نضجاً.. لكنك كنت أنت.. قلتِ بأنك لا تعرفين أحداً باسم شوذب وأن اسمك "فندة" تحملت نكرانك.. لكن ما آلمني عدم سماع اعتذاري.. كنت تصرخين في وجهي"كف عن هذيانك.. أنا اسمي فندة.. ولست منتظرة من أحد أن يعتذر عن أوهامه؟!" طلبتِ مني مغادرة المكان.

خرجت وفي نيتي ترصدك.. أن أعاود لقياك.. لكنك خرجت في ذلك الصباح عابرة أزقة صنعاء حتى ابتلعتك بوابة القلعة.. ذلك اليوم كانت صنعاء قد خرجت لاستقبال الملكة أسماء بنت شهاب بعد إنقاذها من أسر النجاحي في زبيد. أنا على يقين بأنك تتذكرين كل ذلك.

أكملت كتابة جوابي ودسسته بين الرسائل المنجزة. سعادة تحملني كلما شاركت دخان ذي الساق.. أشعر برغبة في الحديث والغناء بل والرقص في وقت واحد.. أتمنى أن يطيل جلوسه لكنه ينهض متعكزا.. وأبقى بقية أوقاتي إلى جوارها متأملا تارة ومضيفا ألواناً على أطراف ثوبها وأزاهير متناهية الصغر تتطاير.. ثم أصعد لأواصل نقش السقف. يسافر إحساسي بعيدا إلى حيث غيوم تهبط لتقبل شفاه الجبال.. أحلم بأن أعود يوما مصطحبا شوذب عبر تلك الطرق الملتوية حتى صنعاء. أن أعاود سوق الوراقين.. نسكن دار المعلم .. نبتعد عن ضوضاء من حولنا.. أقضي ليالي أبث لها أشجاني وما كابدته في سنيني الماضية. أعبر لها عن سكون جمر

الوجد.. أقضي ليالي مع ألواني.. حتى يوقظني وهج الفجر.. أو تسلل أنفاس الشمس من النافذة.. لأصحو من صحوي.. أنتظر هبوط جواري البريد. وما إن يغادرن حتى أسارع بلهفة إلى تقليب ما تحتويه مخلاة الوارد بارتباك.. أخاف ألا أجد مبتغاي.. أميزها.. أفردها بلهفة.

"سبحان الكريم المتجلي عن أي صفات.. سبحان مرسي الجبال ومسري السحاب الصافنات. وأدعوه أن يرحمنا برحمته ويحيطنا بعنايته.. رب العرش العظيم وخالق الكون المكين.. من إذا أراد للشيء أن يقول له كن فيكون.. وأستغفره وأتوب إليه من كل ذنب عظيم.. وأصلي على خاتم الرسل سيدنا طه الشفيع المنيع.

سلام عليك.. يا لعذاباتك.. أشفق على قلبك من هيام عجيب لكائن أقل ما يقال عنه غريب.. تكتب إليَّ بتفاصيل شيقة لعلاقاتك بفتاة تعشق إنكار ماهيتها.. مكررا جزمك بأني هي! أصدقك القول أني أزداد مودة لك.. كيف لكائن يشقى لفتاة تنكره وتنكر نفسها؟ لو كنت مكانك لسلختها من ذاكرتي وانشغلت بما يفيد حياتي. ثم ما تتوقع أن أكتب إليك وأنت تسألني بأسئلة لا رد لدي عليها.. كيف لي أن أساعدك وأعرف من تعني.. أشعر بالغرابة.. وأنا في موقع ملتبس ليس لك.. بل وملتبسة أمام مشاعري.. مترددة بين طلب المزيد من تلك الحكايات.. والتوقف عن كتابتها إلي. دمت في عناية رب العباد "

-٦-

لم يعد نكرانها يؤثر فيَّ.. بل أني أقاومه.. وأقاومه بمزيد من حكاياتنا المشتركة.. وسأظل كذلك حتى يترسب اليقين بداخلها بأن لا جدوى مما

.....

جاء اليوم الذي أقتدتُ فيه إلى إدارة المخالفات.. لأيام لم يسأل عني أحد.. كنت أتمنى لو أن أوراق جوذر معي حتى أواصل قراءتها.. اعتقدوا بأني سأبوح بمعلومات كوني جديداً.. بعد أيام من الصمت والمراوغة اكتفوا بمصادرة تلك الكتب وأخذ تعهد بعدم ممارستي لبيع الكتب المدرسية. يتكرر الأمر بين فينة وأخرى وكأني الوحيد في الساحة.. حتى أضحى لي معهم نوع من العشرة خاصة مع صغار الموظفين. ليكلفني المدير بمتابعة من يتم اقتيادهم من شبكتنا إلى إدارة البلدية والتفاهم بمبالغ على إطلاقهم.

تدعيه: السلام عليك .. والسلام على قلب يود دون معرفة.. سأزيد من تذكيرك لحكايات تعرفينها.. لكنك لا تعرفين بأني في ذلك اليوم عدت بحسرتي بعد أن ابتلعتك بوابة القلعة.. وأصدقك القول بأني فقدت الأمل من رؤيتك مرة أخرى.. فأنا أعرف القلعة. انصرفت باحثا عن طريق حياة جديدة.. أصلحت حجرة في داركم الخاوي إلا مني. أعدت ما تهدم من جدران وسقف الحانوت.. رتبته وعدت سوق الوراقين. بداية الأمر أحست بصدود الوراقين.. ينفرون من هيئتي والشعر الذي يغطي ملامحي! لكني مضيت في صمت رغم تحاشيهم.. رسمت ليومي إيقاعاً لا يتغير.. أصحو في الصباح الباكر.. أتجه سوق اللقمة عبر أزقة أَلِفَتْ خطوتي.. تترصد عيناي من بين شعري ملامح من حولي.. أتناول صبوحي على مصطبة عارية.. أرتشف قهوتي .. أتقبل في صمت سخرية بعض المارة. أتجه إلى الحانوت.. تحتويني زاوية المعلم التي تعرفينها.. أرقب المارة. أستقبل طلبات النسخ.. أحاول تقديم أقصى ما لدي من رسم ونقش وتلوين.

أتذكر في تلك الأيام أن الملك المكرم أستقر في صنعاء بعد حروب سنوات إخضاع أمراء الحصون والقلاع البعيدة.. لتزدهر أسواق صنعاء بوفرة السلع ورواجها.. وازداد الإقبال على نسخ الكتب. ولذلك خطيت لنفسي طريقاً تقضي بإتقاني في عملي.. وطلب أجر مضاعف على ما يُطلب مني نسخه.. في البداية مرت أيام عشتها على الكفاف.. لتتغير الأحوال وأمسى لا يأتيني إلا من يريد خطوطا ملونة ونقوشا بديعة.. كنت أمعن في رسم حرفي.. ونقش زخارفي وتلوينها بمداد أخلطه بمسحوق الصدفيات. ليأتيني بألوان براقة.

ودوما كنت أعشق مراقبة حركة المارة.. تلك الملامح المتباينة.. إلا أن ألوان بعض الملابس ما كانت تجذبني متابعتها. وقد خصصت يوما لزيارة قبر أمي.. التي لم أكن أعرف ما علي فعله غير أني كنت أشعر بدفء يدها تمسد شعري وصوتها يردد صلواتها. أبتسم.. وكثيرا ما تمددت جوار قبرها أحكي بعض ما أعيشه.. لتقترب رائحة وجهها وتقبل وجهي. بعد رحيل أمي لم يعد من صديق يسمعني.

يعاودني إحساس بأني سألقاك يوما وهكذا كنت أنتظر.. إلى ذلك الصباح الذي فاجئتني فيه بحضورك.. لحظتها وقفت أمام الحانوت دون أن أشعر بك. هذه المرة ادعيتِ بأن اسمك شوشانة. وأذكر لحظة وقوفك كنت منهمكا بتزيين هوامش صفحة مخطوطة. حين شعرت بمن يقف رفعت رأسي.. ليفاجئني وجهٌ هو وجهك يتابع ما أصنع.. كنتِ صامتة.. تأملتك.. سرت لحظتها رعشة في بدني.. أتمعن وجهك الطفولي الباسم.. رائحتك التي تسكنني.. كل شيء من حولي أخذ يهتز.. تعرق جسمي وفاحت منه رائحة المداد.. حاولتُ رفع صوتي أرحب بك.. ثقل لساني وتاهت حواسي.. مددت يدي كي الأمس كفك.. لكنك أزحتِها بلطف.

- رويدك.. هل أنت بخير؟

رويدا رويدا أخذت أستعيد حواسي.. عدت أتأمل وجهك البيضاوي من جديد.. عينيك الضاحكتين. فمك الصغير. ما حيرني ذلك النقش أخضر اللون على ذقنك لم أره من قبل.

اقترب وجهك.. تسربت منه رائحة أنستني نفسي وما حولي.. اضطرب نبضي.. تضاعفت رعشة كفي لحظة لامستِهِ.. تشجعت بالترحيب:

- أهلا شوذب؟

إعوجَّ فمُكِ مستغربا:

- أي شوذب؟

.....

بعد أشهر تم تكليفي بالإشراف على جميع بسطات الكتب المنتشرة بالعاصمة.. ثم مسئولا عن جميع المخازن في صنعاء.. اعتقدت في بادئ الأمر أن ذلك نابع من ثقتهم فيَّ.. وكنت سعيدا إذ إن مثل هذه الخطوة جعلتني مسئولا على حركة البيع سواء بالتجزئة أم بالجملة من المخازن المتعددة في أكثر من حي من أحياء العاصمة.. وقد نشطت لفتح المزيد من بسطات الأرصفة.. ثم طورت المسألة إلى تحويلها أكشاك.. كما عملت على توسيع دائرة توفير المناهج المدرسية لبعض المدارس الخاصة خارج العاصمة وغير المرخصة. ونتيجة للصراع المستمر بين كبار بائعي الكتاب المدرسي فقد استمرت حروبهم الصغيرة والمنافسة على كعكة السوق. وكنت بعيدا عن تلك الصراعات.

أربكني برود تساؤلك.. تعثرتْ حروفي.

- مرحبا بكِ.

- لستُ مَن تعني.

سكتُّ لبرهة بينما كنتِ تتأملين رفوف الحانوت. أمسكت بمعصمك.

- بل أنت هي.. وإن ابتدعتِ تلك النقوش على وجهك.

- لا أعرف عمن تتحدث.. توقف عن هذيانك.. أتيت كي أحدثك في أمر يهمك. لكن يبدو أنك لست على ما يرام.

- بل أنا بخير..اجلسي لأسمعك.

- لا..لا سأعود إليك لاحقا.

- لماذا لا يكون الآن يا....؟

في تلك اللحظة علا صوتك.

- أنا لا لست من تعني!

خشيت أن يلاحظ من في السوق ما يدور.. هدأت من صوتي.. متسائلا عن سبب مجيئك.. مكررة نكران ذاتك.. استدرتِ منصرفة بعد أن همستِ بصوت بارد:

- سأعاود لتصطحبني خارج السوق.

جفلت كلماتِي وأنا أرقبك تسيرين مبتعدة.. أغرقني ذهولي.. جلست أراقب حركة جلابيبك السوداء ماضية بين المارة حتى غبت.. خيل إليَّ أن من في الشارع يراقبون حالتي. تلفت نحو حوانيت الوراقين.. سعدت لانشغالهم عن حالتي. لم أعد منشغلا بما كان بين يدي.. ظللت مشرعا ناظري وسؤال يحيرني لمَ تنكرين نفسك؟ وداخلي عجز وخوف من ألا تعودي.

منذ تلك اللحظات انشغلت بوحدتي محاولا استعادة ملامح وجهك.. نظراتك المحايدة.. وما زادني حيرة وجود ذلك الشكل الأخضر على ذقنك.

توقعت أن تعودي صباح اليوم التالي.. لكن اليوم انقضى .. مضت بعد ذلك أيام وأنا أرقب نهر المارة.. أتابع كل جلباب أسود.. كل وجه يشبهك حتى يظهر آخر.. كنت متيقناً من إيفائك بوعدك.. فقط أنتظر متمتماً: لن أفقدك هذه المرة إن عدتِ.. سأجاريك.

وكما تريدين.. ظهرتِ فجأة بنفس لون جلبابك الأسود.. تشقين طريقك.. تقتربين أكثر.. لا أحد يشبه حضورك.. هي أنت.. للحظة داهمني ارتباك غريب.. دفعتُ نفسي للخروج.. هبطتُ الدكة.. أغلقت الباب. ابتسمتِ مشيرة بأن أتبعك واستدرتِ نحو منعطف شارع السوق الجانبي.. قدتِ قلبي عبر أزقة الصفارين ثم الحدادين.. خرجتِ بنا إلى حي الدباغين ثم سرنا بمحاذاة مجرى السائلة.. أتبعك متأملا قوامك.. كان طولك يبهرني.. تمنيت لو التفتِّ لتعانقي عيني.. أن تمسكي ببرد كفي.. أن تسمعي صوتي يغني .. وأن تسمعي عزف قلبي.. أن أذكرك بتلك الصباحات البعيدة التي كنت أجيئك فيها لنخرج صغارا نسير لا نلوي على شيء في أزقة صنعاء. واليوم بعد أن أضحيتِ امرأة لا يهمني نكرانك.. فقط أن تسمعيني.. ولا يهمني رغبتك أن تكوني غير ما أنتِ.. ما يهمني هو يقيني بك.. وعودتك التي أريدها أن تدوم. لم تدركي بأنك كشفتِ نفسك حين كنت على رأس الشارع الذي عشتِ فيه صغيرة.. حيث داركم .. سرت لتتوقفي أمام بابه. لتؤكدي لي بما لا يدع مجالا للشك أنكِ أنتِ.. ومن تلك اللحظة لم يعد يهمني شيء. وقفت جوارك أمام باب سوره الطيني.. أشرتِ عليَّ بفتحه.. مرتبكا دفعته بقدمي.. تقدمتِ إلى الداخل.. عبرتِ تتلمسين أغصان الشجيرات العطشى.. تصعدين أمامي سلما كثيرا ما لهوتِ على درجاته.

عند الدور الأول سمعت صوتك يسألني:

- أنت يهودي أليس كذلك؟

كنت أعرف ما يعتمل بداخلك.. تلعبين لعبة مكشوفة.. ذلك السؤال لم يشغلني.. ولم يبعدني عن يقيني.. أنتِ من تعرفين أكثر من غيرك من

أكون.. فأنا لا أعرف إن كنت مسلماً أو يهودياً أو بدون ديانة. لكنك أكدتِ بأن ذلك هو أسلوبك لنكران كينونتك.

وهذا أنا أعود لأذكرك الآن بتلك التفاصيل الصغيرة.. وأني كنت أعرف أسلوبك كما هو الآن.. ولم تكوني قد نضجتِ كما هو اليوم.. وأتذكر بأننا كنا نستأذن والدك المعلم بزيارة مساجد بعينها في أحياء صنعاء.. نتفرس تلك الزخارف.. نتعلم ما ننقشه على الرقوق.

أذكرك الآن كيف كنا نطيل النظر في عينينا.. بل أنكِ قلتِ ذات يوم بأنك ترين وجهك في عيني حلواً.. وسألتنِي كيف أبدو أنا في عينيك وقد اقتربتِ بوجهك كي أرى نفسي. نتحدث ببراءة عن الدين وعن المعبود وعن أنفسنا.. وحين نعود إلى معلمي يحدثنا بضرورة إعمال العقل وعدم التسليم بظاهر ما يعتقده الناس.. ولا بمسلماتهم.. وكان يدعونا دائما للبحث عما وراء ظاهر الأشياء لنصل إلى حقيقة جوهرها ولنصنع لأنفسنا ما نعتقده. كنتِ في تلك الأيام تسألينني عن صلاة أمي.. وأعيادها.. ثم تحكين لي عن ربكم رب العالمين. وبدوري أحدثك عما تمارسه أمي من صلوات.. ونتحدث معا عن والدك (معلمي). وأذكرك بأنك كنت تسألين لماذا لكل منا رب مختلف. وإذا كان الله رب الجميع.. لماذا كل منا يعتقد برب خاص به.

أعادني تكرار سؤالك من الماضي.. تأكد لي لحظتها بأنك مصممة على المضي بعيدا.. مددت يدي وعيناي ترسمان نظرات استغاثة.. أن تلامسي أصابعي.. كنت بحاجة إلى من يُخرج صوتي القابع في أعماقي.. أن تعيدي قدرتي على الكلام.

.....

تم اختطافي أثناء وجودي في مقهي وزارة الثقافة بميدان التحرير.. كانوا يحملون رشاشات.. تبين فيما بعد بأنهم ليسوا من الشرطة.. وليسوا رجال إحدى شبكات بيع الكتب المدرسية.. كان الأمر يتعلق برغبتهم في تعاوني معهم في مجال المخطوطات.. في بادئ الأمر اعتقدت أن في الأمر لبساً.. لكنهم أوضحوا لي بأن نشاطهم يقتصر على شراء المخطوطات.. وأنهم بحاجة إليَّ لأصلهم بمن أخرجوا صناديق مخطوطات قبل الحريق الكبير لدار المخطوطات.. وأنهم يعولون علي الكثير للوصول إليها! ووعدوني مكافأة بعملة أجنبية.

-٨-

أطلتِ النظر في عينيَّ مبتسمة.. ثم مددت أصابعك في دلال.. ضوء دافئ ينسكب من أطرافك .. شعور بالأمان يجتاحني، يحرر صوتي :

- أنتِ أدرى بديني.

- أعلم بأن أمك يهودية.

- وتعلمين كل شيء عن...

تراجعت عن إكمال ما وددت قوله واستبدلت ذلك بـ : لا دين لي غير المحبة.

لتنظري في عينيَّ مبتسمة.

- لكن في ديانتنا الولد يتبع أمه.

في تلك اللحظة أدركت بأن كائناً لا مرئياً يتلبسك.. لتدفعيني إلى الانتقال من انتظاري لأسئلتك إلى أن أسألك:

- وأنتِ .. ماذا عنكِ.. حدثيني ؟

- أتيتُ لأسمعك .

- سأتحدث إلى شوذب فيك....

استدرت بوجهٍ غضوب.. مركزة ناظريك في عيني:

- من هي شوذب؟ ولأزيل عنك سوء الفهم.. أرسلني عيلوم صنعاء يدعوك لزيارته في الكنيس .

تكلمت وقد ارتسمتْ دوائر نزق حول فمك الصغير.. ما لبثتْ أن تسلقتْ إلى عينيك.. كان عليَّ أن أتظاهر بالبله.. هكذا فكرت تلك اللحظة.. بينما كنت تدورين مبتعدة بعد أن التقطتِ كتابا تقلبين صفحاته.. ثم خطوتِ نحو أرفف خزائن الجدران.. تفحصين أوعية المداد.. وأقلام اليراع والريش.

توقفتِ تقلبين كومة رقوق.. مشيرة إلى ما عليها من نقوش وزخارف.. ثم التفت وقد عادت ابتسامتك:

- أنت بارع في ما تصنع. هززتُ رأسي متعجبا.

زاد حضورك في تلك اللحظات، وأنت تقلبين.. صوتك يعاود التمطي: تصنع ألوانا براقة- صمتِّ قليلا ثم التفتِّ وأنت تتفرسين المحتويات - ألم أقل لك بأنك يهودي!

بالفعل.. كنت ماضية في طريق صورتِه في رأسك أو هكذا خمنتُ. تكلمين نفسك: كل ما حولي يبوح بذلك.

جعلتني كلماتك أبحث عما تحبينه.. رميت بكلمات يوافقن هواك:

- صدقتِ وعلي أن أعترف بذلك.

- ألا تدرك فتنة ما تصنعه.. هذه الحروف الملونة أنها مدهشة حد السحر.

- ما أوجه الإدهاش؟

- لا يعقل أن يسألني مثلك هذا السؤال!

- لن أجادلك.

- أشكرك.

- لكن لماذا تنكرين ذاتك؟

- أنا يهودية.. فكيف أنكر ذلك.. وفوق ذلك أجيد قراءة أسرار الكف.. والاستعانة بالنجوم لقراءة الطالع.

- قراءة الطالع .. وتعرفين الاستعانة بالنجوم؟

- نعم.. ويمكنني قراءة طالعك.

في تلك اللحظة أعترف لك بأني أحسست بأنك تخاطرين بعمل شيء تجهلينه. سارعتُ بمد كفي لقراءة طالعي حتى أكشف زيف نكرانك لذاتك.. في تلك اللحظات شعرتُ تجاهك بالشفقة. ويدي معلقة في الهواء.

- هذا كفي.. أقرئيه.

رفعتِ وجهكِ تشيرين بالرفض.. قلتِ باسمة:

- سأقرأ طالعك.. لكن بعد أن أدق لك وشماً.

حينها زاد يقيني بأنك تهربين من شرك إلى شرك آخر بداخلك . ابتسمت وأنا أراك مكشوفة دون ساتر.

- وشم؟

سألتك متعجبا دون أن أسحب يدي المعلقة. ابتسمتِ بدلال:

- نعم مثل هذا. ومررتِ بأحد أصابعك على ذقنك.

اقتربتُ من وجهك ناظرا إليه متصنعا تصديقك.. بينما كنتِ تقومين بدور الكاهنة وقد أمسكتِ كفي تمسحين ظاهره بزيت دافئ وتتمتمين مغمضة العينين. أتأملك مستسلما. ولم يطل الانتظار حين أخرجت كيسا صغيرا.. وأخذتِ تخرجين منه قناني صغيرة وجراباً سكبت منه مسحوقاً أسود. وضعتِ كفي على ركبتك.. استللتِ إبرة وانهمكت بوخزه وخزاً مؤلماً برأس إبره.. وأنت تنظرين وجهي.. آلام لا تطاق.. لحظتها أدركتُ جديتك وأنت تُخضعين كفي لضربات جارحة.. انهمكتِ وصوتك يدندن بما يشبه الأنين.. يتسارع إيقاع همهماتك مع تسارع وخز آلام مبرحة.. رويدا رويدا تسرب خدر لذيذ اجتاح كفي.. نام الألم.. وصوتك يتعالى بصلوات أمي ليهوه.. وأنت تهتزين مع إيقاع دندناتك.. مر وقت خلته لن ينتهي وأنت تظفرين الوخز بالغناء. للحظة سكتِّ.. ولم أعد أشعر بالوخز.. ربتِّ على ظهري.

.....

يوما بعد يوم تتكشف تلك العوالم الخفية.. ويتملكني رعب مبهم وأنا أسأل نفسي إلى أين يؤدي بي ذلك الطريق. أطلقوني من أسرهم بعد أن تعهدت لهم بالتعاون فيما يطلبونه.. وإن كان تعهدي لهم بغرض الفكاك منهم.. ولم تستقر أنفاسي حتى جاء من يدعوني إلى حضرة الرجل الأول في التوجيه المعنوي.

- هل آلمتُ كفك؟ هيا أنظر.

وجهي يتصبب عرقا.. نظرت إلى سطح يدي المتورم.. لا يظهر شيء ذو ملامح.. تمررين أصابعك على ظهر كفي النائم.. تنفخين لتتأجج رائحة زكية.. تملسين بكفك على كفي .. وأنا أتمنى المزيد.. لكنك توقفت ناظرة في عيني.

- لا تجزع.. سيخف الورم تدريجيا.. ويزول الألم. نطقت كلماتك وأنت تمدين إليَّ بقنينة صغيرة. ثم أردفتِ: ادهن كفك مساءً وصباحاً ولا تغسلها بالماء لسبعة أيام .

أخذتِ بجمع دبابيسك وقنانيك إلى كيسها.. بينما قلبي كان يصلي لتبقي: والآن أستودعك.. مر الوقت وعليَّ بالذهاب.

- لكنك وعدت بأن تقرئي طالعي.

- ليس اليوم.. سأتركك لترتاح. وبعد أيام سأعود لزيارتك.

- لكني بوجودك مرتاح.

- الأيام كثر.

الأيام كثر.. تلك العبارة أضافت إليَّ شيئاً من السكينة.. أخفيت ما كنت أشعر به. وقفتِ.. هممتُ النهوض لأودعك.. ربتِ على كتفي:

- أعرف طريقي!

خرجتِ في خطوات متوازنة.. تابَعْتَ أذناي وقع أقدامك.. قلت بأنك تعرفين طريقك. أعرف بأنك تعرفينها.. هي داركم.

للحظات تسرب الشك وأنا أتساءل: هل غادرت الدار بالفعل؟ قد تكون مختبئة في إحدى الزوايا.. لكن لماذا تختبئ؟ وماذا لو تأكدت؟ شككت في صعودك الدور العلوي.. أو أنك تتخفين في ظلمة الدور السفلي.. أتذكر بأني حملتُ ألم كفي وخطوت أتعقبك.. صعدت درجات السلم لم أجد لك

أثراً.. هبطت الدور السفلي عليَّ أكتشف مخبأك.. لم أجد غير خيبتي.. بدأت أوصالي ترتعش بحمى باردة.. عدت.. تمددت على فراشي.. اجتاحني رعاش وسخونة. مكثت يومين أعاني الألم. صنعتُ ليدي جراب أضعها بداخله حين أخرج . أقبع في زاوية الحانوت.. متلهفا لظهورك.. تمنيت لو أني سألتك عن يوم عودتك.. أرقب المارة متخيلا وجهك.. أعاود متأملا وشم كفي.. بعد زيارتك لم تعد لي رغبة في أي عمل.. فقط أتفرس وجوه العابرات.. في لحظة خالطني شك بأنك عدت للدار ولم تجديني.. حملني قلقي عبر أزقة الأحياء.. مكثت بعض الوقت أمام الدار.. فلم يصدق شكي.. قررت العودة إلى الحانوت. وهكذا لأيام أقضي نهاري بين الدار والحانوت.. كان الوشم يبدو بهيا بزواياه المتعامدة.. تجاوز غيابك الشهر. خلاله تحول لون وشم كفي من القاتم إلى الأزرق المائل لاخضرار زاهٍ.. كان إتقانك يثير إعجابي.. أتذكر بأني قد شاهدت ذلك الشكل على صفحات بعض الكتب التي نسختها.. وكذلك هو على جدران المنازل والمساجد.. يبدو لي شكلا غامضا أكثر مما يجب.

وبتلك العبارة اكتفيت بالكتابة إليها.. لففت اللفافة ووضعتها بين الرسائل المنجزة وأنا منتشٍ من سردي لتلك الوقائع التي قد تعيدها إلى صوابها.

-٩-

لأستقبل صباح اليوم التالي رسالتها:

"اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك.. وأدعوك من قلب شغوف بمحبتك. والتعبد لعظمة ربوبيتك.

أكتب إليك وقد وجدت سلوتي فيما تحكي.. من ضرب للوشم عن صنائع أجهلها.. مستغربة من تعاظم يقينك بأني كنت أياما معك.. وأقسم برب الكون بأني لست من تعرف.. ولذلك علي أن أكتب إليك عن نفسي .. كما تحكي أنت لي عن نفسك.. وحتى ترى بأني لست من تعني وإن تمنيت أن أكون هي. أنا ياسيدي إحدى جواري سيدتي الملكة الحرة. وليس كما ذكرت بأني جارية للملكة أسماء. وعليك أن تعرف بأن القصر يعج بمئات الجواري.. سأحكي لك يوما عن ذلك حتى ترى. تزوج والدي بأخرى..

بعد أن هربت أمي مع رجل آخر نتيجة لضرب والدي لها بشكل دائم.. تركتنا وذهبت بعيدا عن بطشه.. ولم نعد نسمع عنها شيئاً. حين بلغت الخامسة عشرة نصحتْ زوجة أبي إلحاقي بخدم الحرة سيدة لحسنٍ ظنته فيَّ.. وكانت سيدتي سيدة لا تقبل إلا الصبايا ذات النصيب من الحسن. ولذلك كان الأهالي يتسابقون لانتخاب أجمل بناتهم بمقابل وبدون مقابل لما يتوسمون من حياة النعيم والتربية الصالحة.

وجدت نفسي وسط نساء من جميع الأعمار. كنت ضمن الصبايا. وقد وُزِّعَ كُلٌّ فيما يناسب عمره.. أجمل الجواري لخدمة سيدتي الحرة سيدة.. مجموعة من الفتيات يتزينَّ على الدوام.. أنا وقلة من الصبايا الصغيرات تُعلِمُنا كبيرات الجواري الإخلاص لسيدتي.. عبادة الله.. نظافة أنفسنا.. حفظ أحرف الكلمات وكتابتها.. التعامل بأدب ورقة.. ثم انتقلنا في مرحلة لاحقة لحفظ الشعر والأدب.. وفنونٍ لا غنى لكل فتاة عنها.

ومن لحظة دخولي في خدمة سيدتي مُنع عليَّ الخروج كجميع جواريها.. لم أكن أعي ما يدور لصغر سني.. لكنني عرفت مع مرورالوقت القليل من العلاقات.. منها أن حياتي ملك سيدتي.. ولا أملك حق نفسي.. وأنني في مكان تتمناه الكثيرات. سيدتي هي من لها الحق في حياتي. وأننا في أفضل مكان.

خلال سنوات كنت أسمع بعض الثناء على حسني.. ولم أبلغ السابعة عشرة من عمري حتى كنت ضمن خادمات سيدتي . وبقربي منها تكشفت لي أسرار كثيرة.. فسيدتي الحرة ربيبة الملكة أسماء أم الملك منذ صغرها.. وهي حاملة أسرارها.. وقد حرصت عى تربيتها كخليفة لها.

.....

صداع يفتت رأسي بعد أن أفقت.. لم أدرك كيف فقدت وعيي .. وجدت نفسي وحيدا في غرفة ضيقة وقذرة.. حاولت التذكر بآخر ما دار.. لا أعرف هل هي ضربة على رأسي أفقدتني وعيي.. أم أنني حملت إلى هذه الغرفة وأنا أعي ما يدور؟ تلفت حولي غرفة بها قليل من الفراش الترب.. أسمع منبهات سيارات عابرة.. خمنت بأني لست في مكان ناءٍ.

والملكة أسماء صاحبة الفضل في دعم زوجها وشريكته في تأسيس مملكة الصليحيين. فبثاقب تفكيرها رأت أن جزيرة اليمن مهيأة لمن يجمع كلمتها ويقود قلاعها وحصونها. لتقوم بتحفيز زوجها "علي محمد الصليحي" ودفعه لتوحيد كلمة سلاطينها وأمرائها.. بداية بتشجيعه التفقه في علوم المذهب الإسماعيلي.. ثم دفعه لإعلان دعوته.. ونهاية بمؤازرته إشهار سيفه وإخضاعه جميع بلاد اليمن.. ومنذ البداية كانت مستشارته.. وشريكته في إدارة البلاد.. وكانت دوما إلى جواره.. ترافقه في حروبه على مدى عشرين عاماً. حتى مقتله على يدي عبيده في تهامة.. وهو في طريقه لكسوة الكعبة المشرفة... لذلك كان نفوذها قويا ومكانتها سامية حتى وُصِفت في سنواتها الأخيرة بالملكة.. وقد تبع اسمها بعد اسم الملك في خطب أئمة المساجد ودعواتهم.. كما يُعرف بأنها من كانت تُسيِّر المملكة تحت ظل زوجها في أيامه الأخيرة.

وبعد أسرها واقتيادها إلى زبيد أهملها ابنها المكرم متعمدا لأكثر من سنتين.. خوفَ عودةِ سطوة نفوذها.. ولم يتحرك لفك أسرها إلا بعد أن ارتفعت أصوات سلاطين اليمن بالويل والعار.. وثورة قبائل الجبال العالية إثر انتشار خبر بأنها أمست حاملاً من النجاحي.. ليتحرك خوف العار ويعود بها من زبيد منتصرا على النجاحي.

لتعلن بعد عودتها صنعاء بأن ابنها قد فوضها مشاركته إدارة البلاد.. لتواصل خطواتها في السيطرة.. ولم تمر سنوات قليلة حتى كانت هي الآمرة الناهية في أمور الدولة. ليفاجأ الجميع بإعلان موتها. أشيع وقتها بأن الملك كان وراء رحيلها.

برحيل الملكة برزت ربيبتها سيدة زوجة الملك التي استوعبت الدرس.. لتسير على هدى تعاليم مولاتها أسماء. فهي من خلعت عليها صفة الحرة سيدة.. وهي من أوصت لها بعدد من المخطوطات السرية كما سلمتها تعاليم تعينها كملكة.

وبذلك سارت سيدتي الحرة سيدة على نهج وصايا مولاتها أسماء بنت شهاب.. جاعلة منها دستورا لحياتها.. تلجأ إليها لمواجهة المخاطر

والعقبات. وقد أمكن لي الاطلاع على القليل من تلك التعاليم "سلطانة تحت ظل رجل".

تلك الأمور وغيرها تكشفت لي خلال حياة سنوات في خدمة سيدتي التي حدثتنا عن الصراع بين الملكة وابنها المكرم .. وكيف انتهى ذلك الصراع.. ثم أعيش الصراع بين الحرة سيدة وزوجها الملك.. لتتكشف لي أسرار تلك الوصايا التي ساعدت سيدتي الحرة حتى حلت محل مولاتها.. مضاعفة سطوتها عاماً بعد آخر. هذه أنا أبادلك حكاياتك بحكايات تنير لك من أكون.. محاولةً بذلك إبعادك من شقى الظنون التي تسكنك.

أستودعك رب العباد .. وأذكرك وأذكر نفسي الحذر.. لا تُسر أحداً أياً كان عما بيننا.. وإن رأيت أي خطر على حياتك فلا ترد علي".

-١٠-

أكملت قراءة رسالتها وقد غمرتني أحاسيس متباينة.. وحملتني أسرارا أخاف أن أحكيها تحت تأثير دخان ذي الساق. لم أعد متلهفا للمزيد ولم أكن بحاجة لمثل تلك الأخبار. صحيح أني كنت أتلمس أي خبر حتى يدلني إليها.

لكنها أسكنت بما تكتب رعبا مقيما بداخلي. كتبت جوابي إليها: لا تحتاجين لكل ما ذكرت في رسالتك لتمسين غير ما أنت.. ولا أحتاج لكل ذلك حتى تغيري يقيني فكل ما أتوق إليه هو أنت.. ولذلك أرجوكِ تَرْكَ يقيني.. ذكَّرتُكِ ببعض لُقيانا فهل تتكرمين بلقياك؟ ما ذكرت في رسالتك عن وفاة الملكة أسماء بنت شهاب.. وابتهال المآذن وازدحام الساحات بالوافدين من القلاع والحصون البعيدة لمواساة ابنها المكرم كنت قد عشته وشاركت

.....

تذكرت أنني كنت في حضرة الرجل الكبير للتوجيه المعنوي.. لم نكن في مكتبه الواقع في أطراف ميدان التحرير.. أوصلوني إليه بعيد مغيب الشمس.. فيلًا خارج العاصمة.. وحيدا يجلس في متكئة بعد مغادرة المكان من ندمائه.. تبعثرت حوله أعواد القات.. وتلك المتافل المعدنية تسفح بعصارة القات.. مرامد السجائر مليئة بأعقاب مدفوسة. أماكن من انصرفوا مجعدة.. بقايا أوراق ذابلة مبعثرة في المكان.

فيه.. وأذكرك أن صنعاء خرجت لوداعها. وأن الحزن تكدس في شوارعها لأيام. كان الناس يعيشون حزنهم وأنا أعيش قلقي على غيابك. وصدقتِ فيما ذكرتِ فلم تمر أيام حتى أصبحت المنابر تردد اسم الحرة سيدة بعد اسم الملك في الصلوات الخمس. فإن لم تكوني شوذب تعالي نلتقي. لأذكرك بلقيانا فيما مضى. وأحدثك عن شمس ذلك النهار التي اقتربت من شفاه الأفق.. وخاف الجميع ألا تعود بعد أن رحلت الملكة.

لم تذكري في رسالتك عودتك من جديد إليَّ.. فبعد مشاركتي في تشييع الملكة عدت إلى الدار لأستقبل ليلي.. سمعت قرعا متتاليا. في البداية ظننته متسولاً.. لكنها تعالت.. ما جعل قلبي يخفق بشدة وقد مر طيفك فجأة. هبطت سريعا.. لأراك تقفين أمامي.. وأذكرك بأني لم أتمالك واحتضنتك مرحبا. للحظات لم ترفعي وجهك.. سألتِني عن وشم كفي.. أمسكتِ به تتأملين وقد غطت ملامحك ابتسامة وضاءة.. وعيناك تتسعان وأنت تنظرين في عيني.. قبلت كفي فرحة.. كاد قلبي يطير فرحا لحظتها. اختلط حنقي بفرح لحظة خطوتِ إلى الداخل ورائحتك تؤثث نفسي. صعدتِ وأنا أتبعك. أزلت غطاء رأسك عن شلال شعر فاحم.. بشرة رقيقة لعنق طويل.. لم يعد يهمني شيء غير وجودك.. وضعتِ ما تحملينه أرضا:

- انظر ما جلبتُ لك.

قلتِ جملتك رافعة ناظريك وقد اتسعت عيناك لتوهج ابتسامتك.أخرجت لفافة كبيرة.

- هذه لفافتك من التوراة.

وأتذكر بأني رأيت في عينيك شيئاً من القلق .. أمسكتُ يدك وقلت لك:

- لا يهمني ما بين يديك.. فقط ما يهمني حضورك.

انشغلتِ كجندي لا يريد أن يخطئ. أخرجت أقمشة تذكرني بلفائف صلاة أمي. تلك التي كانت عادة ما تفردها لتردد صلواتها وهي تهتز خشوعا.

ناولتِني إياها.. ذكرتني ما كانت ترددده أمي "باركني ياسيدي ياربنا يا ملك العالم يا من عظمتنا بنزول التوراة". مغلفة نظراتها بشيء من الرضا والحبور.

في ذلك اليوم نظرتِ إليَّ بنظرة لم أفهمها.. بعد أن نهضتِ تحملين قنينة وفطيرة منتفخة.. مددتِها لي.

- هذه هدايا العيد؟

- أي عيد؟

- عيدنا.

- لم أفهم.. ولمَ كل هذا؟

- العيلوم يدعوك الليلة للمشاركة.

- العيلوم! لماذا يدعوني؟

- لأنك منا.

- منكم.. قبل كل شيء أريد أن أعرف.

- هناك ستعرف كل شيء. والآن هيا معي.. سترى وتسمع.. وبعد ذلك نتحدث في كل شيء.

.....

أتذكر بان إحدى سياراته "لاند روفر" حملتني عبر شوارع متعددة حتى أطراف صنعاء باتجاه ضلاع همدان.. وادي ظهر ومررنا من سائلة دار الحجر.. اخترقت السيارة بساتين أشجار مشمش وسفرجل وعرائش عنب.. حتى اقتربنا من تلة يعلوها سورٌ طويل .. بوابة سوداء مطعمة بالنحاس اللامع.. فتحت لتعبرها السيارة إلى حديقة منسقة بعناية فائقة.. ورد جوري صفوف متعرجة.. موقف عربات أمام مبنى رخامي ملون من دور واحد مضاء مدخله بعناية.. عبرنا صالة زينت بالتماثيل والتحف وصور رئيس الجمهورية.. دخلنا ديواناً يتنفس رائحة العودة الكمبودية الثمينة.. أثاث بلون أحادي ذهبي.. ستائر لنوافذ واسعة.. سجاجيد وثيرة.. متكآت ومساند ووسائد منتظمة.. زوايا جدرانه المزينة بمنحوتات جصية وثريات تتلألأ بأنوارها ساحرة.. لم يتحرك من مجلسه حين وقفت على مقربة من متكئه.. ولم يمد كفه لمصافحتي.. منشغل بتبزيغ القات ولم يلتفت وكأنه كان يريد إهانتي.

- وستحدثينني عن نفسك.

رددتِ في دلال:

- سنتحدث كثيرا.

تلك اللحظة شعرت بأني من يستدرجك.. ولم تكوني أنت من تسيريني. لم يكن يهمني ما وراء دعوتك. كل ما كنت أريده أن أحافظ عليك جواري.. وأن نظل على تلاقٍ.

- سأرافقك.. وإن كنت لا أدري إلى أي عيد.

أتذكر لحظتها بأن وجهك أضاء بابتسامة انفرج لها فمك الصغير.. مرسلة نظرات الرضا.

- سترى ما يسعدك.

- لا يهم المكان الأهم أن يكون كفك بكفي.

رمقتِني دون أن تغلقي فمك.. ثم مددتِ يدك تمررين سبابتك على أطراف وشم كفي.. كنتُ أشعر بسعادة حين تكررين ذلك.

- أيسعدك أن نكون معاً؟

هززت رأسي وقد داهمني إحساس حلم قديم. خرجنا مع تصاعد أصوات أذان مغيب الشمس.. أسير خلفك وسط برد أزقة معتمة تعرفينها. أحمل هديتك من أقمشة ولفائف وطعام. عبرنا شبكة من الشوارع .. حتى أطراف حارة اليهود.. حينها أخذتِ بإزجاء النصائح: أخفِ وشمَ كفك ما دُمتَ بينهم.. حين تصافح العيلوم أخبره من تكون.. حين يتكلم هز رأسك وعيناك في عينيه بعلامة الرضا.. وإن تكلمت امزج ابتسامة عينيك بكلمات هامسة.. وحين يتحركون للصلاة سر معهم.. شاركهم صلواتهم.. افعل ما يفعلون .

عبرنا أزقة ذكرتني بزيارتي صبَّياً إلى حي اليهود. يومها عدت أصف لأمي ما رأيت في تلك الحارة التي كثيرا ما كانت تحدثني بحنين عن طفولتها فيها.. ليفيض دمع صاف من عينيها وقد ضمتني بحنان.. أطيل لها الشرح أمكث بين رائحتها وقتا إضافيا.

وأذكِّركِ اليوم حين كنا أمام باب كنيس "أبو كوفية".. أشرتِ لشخص يبدو أنك رتبت الأمر معه مسبقا.. سرت خلفه بعد أن أشرتِ بأن أتبعه.. عبر بي ممرات الكنيس حتى أوصلني حجرة جانبية.. ضجيج لحضور تردد صداه الجدران الداكنة.. وقف عدد من لابسي ملابس الطقوس. أشار عليَّ أن أتقدم نحو رجل يقف وسطهم.. خطوت نحو نظراته.. قدمني للعيلوم.. لم يكن ذلك الذي قابلته صغيرا. مددت يدي مصافحا.. أوضحت له من أكون. ابتسم مرحبا .. حدثته عن أمي. أخبرته بأنها توفيت يهودية ودفنت في مقبرة اليهود.. هز رأسه مستحسنا.. ثم قال: نعرف بذلك! أنت منا وننتظر حضورك من أمد.. مرحباً بك فأنت يهودي.. وعلى اليهودي أن يؤمن بوجود الله.. وأن الله فريد من نوعه.. ليس له جسم.. وهو أزلي.. وعليك أن توجه الصلاة له لا لأحد غيره.. كما أن تؤمن بما قاله الأنبياء.. وتؤمن بنبوءة موسى أعظم الأنبياء.. وإن ما جاء في التوراة المكتوبة والتوراة الشفوية، كما التعاليم الواردة في التلمود وغيرها من الكتابات، إنما أعطيت لموسى.. ولا غيرها توراة. وأن الله يعلم أفكار ومواقيت الرجال، إن الله يكافئ الأخيار ويعاقب الأشرار.. وأن المسيح سيأتي وأن الأموات سيحيون".

أهز رأسي كلما رفع وجهه ناظرا إلي.. متذكرا كلماتك: " حين تستمع للعيلوم هز رأسك بالإيجاب.. وحين تكون بينهم افعل مثلما يفعلون" لكن ما أثار استغرابي سؤاله عن أمي.. وحين أخبرته بوفاتها رد بأنه يعرف. فلماذا سألني؟!

وقف من كانوا حولنا يتابعون. اختتم توجيهاته بتسليمي مجموعة رقوق دوِنت عليها وصايا وتعاليم ما تحله الشريعة من مأكل ومشرب.. ثم بسط كفيه لأناوله ملابس صلاتي.. أخذ يلبسني آمراً إياي ترديد ما يتلوه "باركني ياسيدي يا ربنا يا ملك العالم يا من عظمتنا بنزول التوراة" وهو

يضع على رأسي الـ "كيبا" ثم شال الصلاة الـ"طاليت" وأنا أردد خلفه" مبارك أيها الرب إلهنا ملك العالم الذي قدستنا بشرائعك وأمرتنا أن نضع التيفلين عصائب على رؤوسنا وأذرعنا" مستمرا بلفه على رأسي وأدخل شريطه حول إصبعي الأوسط وحول معصمي الأعلى. وحين أكمل ابتسم في وجهي ناظرا في عيني.. قال: حين تكمل صلواتك.. فكه بالتدريج كما ألبستك ولا تسمح لامرأة بلمس أي من أدوات الصلاة. ربت على ظهري هاما بالخروج من حجرته. بينما كنت أنا مشغولاً بغيابك. تحركت مع من تحرك إلى قاعة مترامية الأرجاء.. انتشرت فيها شموع كثيرة منها المعلقة وأخرى على رفوف الجدران.. وأخرى على شمعدان فضي ضخم .. حقل من الرؤوس مغطاة بطواقي صغيرة تتراص بصمت.. للحظات ارتفع صوت العيلوم من منبره العالي.. يتلو "سفر إستير" من التوراة ليضج الحضور بصراخ ملأ القاعة.. يضربون الجدران بأكفهم.. ويدكون الأرض.. لذكر اسم "هامان" الذي يحفونه باللعنات كلما ذُكر.عم صخب زلزل المكان.. حتى ظننته لن يهدأ.. صمت العيلوم عن تلاوته. لتدخل جماعة القاعة بمائدة طويلة ما لبثوا أن رصت عليها أطباق الطعام وقناني الشراب.. لتتصاعد روائح الخبز والأطعمة.. الجميع يتحرك بمرح.. الصغار وبعض الكبار يتنكرون بأقنعة وملابس ملونة.

انشغل الحضور بتبادل الهدايا من حلوى وفطير.. تتعالى قهقهات هنا وهناك.. يسير بعضهم راقصا.. وآخر يغني.. ليتبعه البعض. أخذ الجميع

.....

- هل تُقدر تقديرنا لك؟

- بالطبع أقدر ما أحطتني به من اهتمام.

- نعرف بأنك خُطفت!

- وأنا جئت لأحدثك بذلك.

- لا داعي. ما أملوه عليك نعلمه!

سكت بعد كلماته الجافة.. وهو الذي لم يشر علي بالجلوس.. تركني واقفا.. يتحدث منشغلا بأغصان القات: ونعرف بأنك تعهدت لهم بأن تكون لهم عوناً كدليل توصلهم إلى ما هُرب من دار المخطوطات.

في تناول الطعام والشراب.. البعض يترنح والبعض يقوم بحركات بهلوانية. أفرط البعض بالشراب حتى تمددوا أرضا.. عاد صوت العيلوم يتلو: "وحدث في أيام أحشويروش هو أحشويروش الذي ملك من الهند إلى كوش." وقف الجميع خاشعين .. ما إن يذكر اسم "مردخاي" حتى تتعالى أصوات التبجيل والتعظيم.. ثم يتابعون الإنصات.. لم أجد لما يدور تفسيراً.

شربت مع الشاربين.. شاركتهم الصراخ متذكرا نصيحتك: "افعل مثلما يفعلون.. إن طبيعة الإنسان تكمن في غضبه وشهوته وضحكته وكأسه.. اشرب لتكتشف من أنت".

لا أعرف كيف انتهت تلك الصلوات.. ولا متى.. ولا أعرف كيف عدت إلى دار المعلم.. خيل لي أنني رأيتك أمامي وأنا غارق في سُكري. انهرتُ على فراشي.. كنت أحاول النهوض برأس متصدع يكاد يقع لثقله. كما لو كنت أسمع صوتاً.

- هل أعجبك عيد المساخر؟

ذهب سؤالك بعقلي لأستذكر لحظاتي في الكنيس.. ومضات حلم.. ثم عاد صوتك يحدثني: هل عشت مع أمك يوما مثل هذا العيد؟ وحين لم أرد قلتِ: يجوز بأنها كانت تسميه بعيد"بوررريم".

قهقهتُ في نشوة وقد بدوتِ مضحكة وأنت تنطقين "بوررررريم" أو هكذا خيل لي.. سرحت عنك بذاكرتي أستذكر طقوس أمي.. التي كانت دائمة التعبد.. وكثيرة المرح معي.. وكل أيامها أعياد وصلوات؟ ارتفع صوتك وقد أخذت أسترد وعيي: إن أردت أن تعيش مثل تلك الأعياد.. أعدك بأن أصطحبك اليها.

رددت عليك ضاحكا:

- أنا لست يهوديا.. ولو عرفت بأنك ستفارقينني البارحة لما ذهبت.. فلم أذهب إلا طمعا في مرافقتك. وليس لقناعة فيَّ.

- طمعا فيَّ؟

- أخبرتك قبل ذلك.. ثم إن ذلك الرب الذي يعبدون لا يعنيني.. ودوما أبحث عما يقنعني.

- لكن أمك يهودية.

- لا يعني ذلك شيئاً.. ما يهمني هو أن تكوني شوذب.. وألا تتركيني.. وماعدا ذلك لا يهمني.

تكلمت إليك بكلام كثير لم أعد أتذكره.. ما أتذكره أنك احتضنتنِي وأنا أبكي كطفل يهذر. رأسي لا يزال ثقيلا.. كنت سعيدا بأصابعك تتخلل شعري .. استمررتِ في هدهدتي حتى شعرت بنعاس رائحتك.. لا أعرف كم غفوت لأصحو ولا يزال رأسي على حجرك.. شعرت بشيء من الرضا في تلك اللحظات.. أتذكر بأني أمسكت بكفك ألثمها. حاساً بسعادة تسكنني. رأسي على حجرك حين سمعتك:

- أمرك محير.

وأتذكر بأني قلت لك.

- ماذا تقصد؟

.....

- تعهدي لهم من أجل الخلاص منهم.

- تتخلص منهم.. وهل تعتقد بأنهم يفكرون مثلك؟

- لا عليك اترك الأمر لي.

- أتركك لتعض اليد التي امتدت لك؟

- وماهو المطلوب مني؟

- أن تتكلم بأدب!

- لم أسئ.

- وتفكر أيضا بالإساءة .. يبدو أنك بحاجة إلى تربية !

بعدها لا أعي ما حصل.. وجدت نفسي وحيدا في غرفة.. لا أعلم ما جرى .. ولا كيف نقلت إليها ؟ ولا أين موقعها؟

- لماذا ترددين ذلك؟. فقلتِ وأنت تملسين شعري.

- أنت لا تشبه غيرك.

رددت عليك بعد أن فكرت بكلماتك:

- كل منا سحابة حيرة.. أنتِ.. وإن أدعيتِ معرفة نفسك. ستجدين بأنك غريبة عنها وعن أقرب الناس إليك.. اجلسي إلى نفسك.. أنا على ثقة بأنك لن تعرفيها.. بل ستقفين في حيرة من أمرك. وستكتشفين بأنك أكثر من كائن.. جربي ذلك؟

صمتِ قليلا ثم أدرتِ رأسي بين كفيك.

- لا أصدق بأن من له عقل يؤمن بتلك الحكايات والأساطير التي تسمعينها من اليهود؟ أنتِ لست يهودية.. أنت شوذب ابنة المعلم صعصة.. ألم تباغتك أسئلة دون أن تجدي لها أجوبة؟ ألم تتساءلي عمن هو الله؟ وأين هو؟ ولِمَ هو محتجب؟ ولِمَ علينا التصرف باسمه.. بينما يتشرنق في غيابه؟ هل هو عاجز عن الحضور؟ أم أوكل بمهامه لبعض البشر؟ وتعرفين بأن تلك الإدعاءات التي يمارسونها باسمه ليس إلا لإخضاع العامة والدهماء واستغلالهم؟ والسؤال المتكرر لِمَ لا يتدخل؟ وكيف نعرفه بعيدا عن تعريفاتهم ؟

أكملتِ وأنت تتأملين عيني مبتسمة:

- الم أقل لك بأنك محير.

- الحيرة لا تكفي للوصول للحقيقة.

- من تعبد؟

- لا أظنني أعبد أحد!

- ومن ترى الناس تعبد؟

لا شيء.. يعبدون أوهاما يبتكرونها لأنفسهم.. بنو يعقوب يعبدون أنفسهم.. وما يتلونه من التوراة وأساطير التلمود إنما هي عبادة لذواتهم بعد أن

اختلقوا رباً لا يرى ولا يمس.. وادعوا بأنه رب يخصهم دون الأغيار. وكهنتهم يعون ما يصنعون مِن وَهْم.. لكنها مصلحتهم في الاستمرار.. وكل تلك الأسفار والمزامير عبادة وتقديس لسلالتهم.. وتمجيد لنبوغ وتميز يدعونه. وجل المسلمين يعبدون محمد أوفقهاءَهم ومراقدهم وإن أنكروا.. ولم يستوعبوا الرب المجرد الذي جاء به اليهود وإن ادعوا ذلك.. فهم شعوب لا تؤمن بالمجرد وإن تصنَّعوا. وأما النصارى فإنهم الأكثر صدقا من غيرهم حين جاهروا بعبادتهم ليسوع.. كائن منهم غير مجرد.. وإن ادعوا بأنه ابن الله. أو أنه الله هبط بين البشر كمخلص. وأما الله الحق فيقبع في أعماق كل إنسان. ولا يحتاج لأي طقوس.. ولا لأي تعريف.. ولا لمن يمثله. أو يدعي فهمه دون غيره. فقط أن نتجنب أذية أنفسنا كبشر وأذية من حولنا.

- بالفعل تفكيرك غريب.

- لماذا نخاف من الصدق؟ ولماذا نتقوقع خلف أوهام يصنعها غيرنا؟

-١٢-

صمتِّ تحدقين فيَّ. وأخذتِ تتحدثين عن نفسك دون أن أطلب منك.. وأتذكر الآن بعض ما سمعته منك ولا زالت نشوتي تحملني اسمي "شوشانة" هربتُ وأمي من الشام إلى صنعاء منذ سنتين. وقصتي تشبه قصتك.. فأمي يهودية.. تزوجت بشامي مسلم أنجب منها ولدين أنا ابنتهما الصغرى.. قُتل والدي في معركة بين أنصار العباسيين والفاطميين.. لتنشطر الأسرة إلى شطرين.. فأخوّاي تركانا كمسلمين بتأثير من أقارب أبي.. وأنا وأمي هربنا جنوبا بعد مطالبة أقارب أبي بي. لأذهب خلف أمي إلى أقارب لأهلها في اليمن.. حاملة كتب في التنجيم.. حيث تعلمت منها بعض إشارات النجوم.. وعلاقتها بالبشر.. تبعت خطاها وأمسيت مساعدتها.. وأثناء مرورنا بعشائر الشام تعلمت من نسائهم ضرب الوشم.. كما عرفت سر بعض الرموز وقوة تأثيرها.. فأمسيت أدقها على الجلد. لكن ذلك الوشم الذي نقش ذات يوم على ذقني جعل اليهود يتشككون من يهوديتي حين يلحظونه.

قاطعتكِ مستغربا:

- إذاً لماذا وشمتني وتعرفي أن اليهودي لا يوشم؟

- سأصدقك القول.. وأرجو أن تغفر لي. عرفت قصتك وأمك.. وأنك يهودي بالتبعية. وطُلب مني أن أقوم بدور.. فجمعت فوق ما زودوني به حول أخبارك.. عن عملك وسكنك وحكاياتك الأخرى.

- ثم ماذا؟

- يريدونك يهوديا.

وأتذكر بأني قاطعتك.. كمن يقترب من اكتشاف حقيقة ما.. كنت غير مصدق بما تتحدثين عنه.. كررتُ سؤالي:

- لماذا ضربتِ الوشم على كفي وتريدينني يهوديا؟

ضج صمت للحظات.. هطلت أثناءه أفكار تعتمل بداخلي.. شعور من تعصف به رياح عاتية.. أعادني صوتك من جديد.

- أعترف لك بأن ضرب الوشم جاء بنداء من داخلي .. وجدت نفسي أفكر بك.. وقررت أن أمنحك حجاب الرمز الأعظم.. الأمر لا يتعلق بشيء.. فقط شعوري نحوك دفعني لذلك.. بعد أن أثرت فيَّ .. ورأيتُكَ كم كنت نقيا من أول مقابلتي لك في السوق.. جعلتني أفكر بك بعدها.. ثم جئتك المرة الثانية لأجدك في غاية الرقة.. أحسست بقلبي يدعوني إليك.. رأيتك تشبه جانباً من روحي جعلني أتمنى لك الخير. أحببت أن أرقيك بأعظم رمز في الوجود تعبيرا عن امتناني لك.. رمز يحمل أسراراً كثيرة.. يحمل رسائل إلى كائنات نورانية تراك ولا تراها.. يصنع صلتك بأرواح النور في كوننا الكبير.

سكتِ ممسكة كفي بين يديك.. لحظتها شعرت بصدق كلماتك تعبرني.. كما لوكنت تعترفين بأنك أنت.. في الوقت الذي كنت متيقنا من أن ما يمنعك سر يعذبك. هي نفس الأسباب التي تمنعك اليوم.

كسرتِ ما يعتمل بداخلي بمعاودتك الحديث وقد رفعتِ ناظريك إلى عيني: ومن يحمل الرمز الأعظم لا تسكنه الكراهية.. ولا الخوف.. دائما يحمل شجاعة الإحساس بالحب لكل ما حوله.. حب قيمته أنت.

أتذكر بأنك اختتمتِ كلامك بنصيحة إخفاء وشمي عن العيون.

لا تعرفي بأنك تلك اللحظات وضعتني على مفترق طرق.. فذلك الرمز يذكرني بك على الدوام. لم أعد في حيرة .. فقد زادتني كلماتك يقيناً بأنك شوذب.. وظل سؤال يسكن أعماقي: لماذا تشقين في محاولات متواصلة لإنكار نفسك وإقناعي بذلك.. مخترعة حكايات عجيبة لا يصدقها عقلي. رغم بقايا نشوة شراب الكنيس كنت أميز صدق نظراتك وقد جلستِ تراقبين صمتي دون أن تنبسي بكلمة. كما لو كنت تراقبين مدى تأثير ديمومة نكرانك على نفسي. لتنفرج ملامحك وقد علتها ابتسامة عذبة.. بينما أصابعك تحرث شعري الطويل بحنان.. تسألينني الرحيل. نهضت من نشوتي أرجوك البقاء.. كنت أتوسلك البقاء.

- سأعود إليك قريبا.

- عهد عليك.

-هذا أنتِ وقد وعدتِ.

أعود إلى غرفة شوذب الملونة بعد أن بعثت إليها جوابي. تمر الأيام ولا أجد لفافتها بين الرسائل. هي المرة الأولى التي تأخرت رسالتها.. تعودت أن تتأخر أياماً لكنها في هذه المرة تجاوزت المعقول. ولانشغالي بنقش غرفتها وقضاء تلك اللحظات أمتص دخان ذي الساق.. ملتزماً أقصى درجات الحذر .. والخوف

.....

لم يدم بقائي طويلا.. فُتح بابها على جندي بائس.. اقتادني عبر ممرات تصطف حولها أبواب يبدو أنها لغرف مماثلة.. حتى حجرة خالية إلا من مقاعد محطمة وبقايا طاولات.. ضابط شاب خلف مكتب متهالك.. يبدو من الخارطة المعلقة وصورة رئيس البلاد القائد الأعلى للقوات المسلحة أنني في دائرة حكومية. أشار علي بالجلوس.. على مقعد مقابل أمام مكتبه.. ابتسم وهو يرسل نظرات نمسية فاحصة. بينما كانت نفسيتي محطمة.. أشار على جندي يقف أمام الباب.. سريعا ما ظهر أحدهم يحمل ملزمة أوراق.. أخذ موقعه على مقعد مجاور يدون حوارنا.. أسئلة روتينية مملة حول عنواني وسني وعمري ومؤهلي وسنوات خدمتي.

من تأثير دخانه الذي كان يبسط لي لذة المنادمة. بل إني أجد نفسي في حديث متواصل دون توقف. متخيلا ذا الساق ثعلبا ينصت مبتسما وقد أطل المكر من عينيه.

" بسم رب الأكوان ومشرخ البنان.. وخالق من العدم كل إنسان.. ونحمده ونسبح ليل نهار عدد خلقه.. ونصلي ونسلم على ضياء الأنام.. وآله تسليما كثيرا وعلى الأئمة من صلبه.

لم يكن لي من حيلة إلا أن أتوقف عن بعث خطابي إليك بعد أن سمعت من بعض الصبايا ما جعل رعبي يستيقظ من أن تُكشف رسائلنا.. فقد قالت إحداهن بأنه ما إن تصل الرسائل إليك حتى تضطرب أصابعك وتزيغ عيناك وكأنك تبحث عن شيء.. ما إن سمعت ذلك الحديث حتى تعرق جسدي.. وقررت التريث في الكتابة إليك.

قد تظن بأنك في هذا القصر نكرة.. وأخبرك أن جميعهن يتحدثن عنك.. فأنت كاتب الملكة وحامل أسرارها الرجل الوحيد بعد اليامي شاعر سيدتي القزم في هذا الحمى.

أصبحت متشوقة لحكاية جواباتك.. أرى بعيونك أحداثاً عشناها.. أمرٌ يعجبني.. فنحن جواري سيدتي لنا حيواتنا داخل القصر.. وما خارجه حياة لا نكاد نسمع عنها إلا ما يصلنا عبر رسائل الجواري.. أو من تعود من مهمة لنتحلق حول عودتها تسمعنا ما يعيشه الناس وما يتعاملون به. ولذلك تثيرني حين برسائلك وأنت تحكي عن امرأة لا أعرفها.. وأصدقك أن ما تكتبه إلي خاصة تلك المشاعر أحسها لي.. رغم أنك تعكرها بين فينة وأخرى بذلك الاسم الذي لا يعنيني. ولذلك أنتظر حكاياتك في هذه المرة وسأكتفي بهذه الأسطر القصيرة .. وهي رسالة لتطمئن بأن ما أخرني هو الحذر.. وعليك عدم إظهار اللهفة أمام من يهبطن بالبريد. لك كل مشاعر الود ودمت في عناية رب لا تخفى عنه السرائر".

كلما أكملت قراءة رسائلها أعود لقراءتها باحثا عن نفسي في كلماتها وعما تحمله وما تخفيه بعض الجمل.. وأتخيلها تفعل الأمر نفسه بجواباتي إليها. منحتني سعادة باعترافها أنها تشعر بأن كلماتي موجهة إليها وأنها تحرك

فيها مشاعر.. وما أسعدني أنها تنتظر رسائلي بشوق. لم أتأخر بالجواب إليها.. لإحساس بأني أقدم نفسي من خلال حياة عشتها.. وما كان بيننا.. والحقيقة أنني أسعد حين أجالس نفسي مستعيداً بالكتابة إليها تلك الحيوات .. فلم يعد لي من أبوح له غير جدران وسقوف غرفتها وهذه اللفافة التي تنتظر الكثير من الكلام وكأنها تتغذى بحروفنا وأحاسيسنا. قضيت وقتي بعد أن أقفل علي ذو الساق بابه في رقص وغناء بصوت عال في غرفتها أو بالأصح أمام نقشها.. لا أعلم هل ما كنت أعيشه سحر الدخان أم أنها هبطت من الجدار لتراقصني وتغني.. بل وتقرب عينيها من عيني وهي تطير كفراشة في دوائر رقصها المتتالية. مع قرب الفجر فردت اللفافة وبدأت أكتب:

سعدت برسالتك بعد انقطاعها.. بددتِ قلق أخذ يسكنني.. حينها كنت أشاطر النافذة قلقي.. أبحث عن سبب لتسافر عيناي نحو سناء حريري

.....

بعد وقت من الأسئلة صمت الضابط ناهضا يذرع المسافة القصيرة خلف مكتبه ثم يتوقف ناظرا إليَّ.

- أين ما أخرجته من دار المخطوطات؟

- هي مخطوطة وحيدة وقد أعدتها.

- وحيدة.. وأعدتها؟

- نعم.

- طيب .. ما عنوانها؟

- لم يكن لها عنوان .. لكني أسميتها ظلمة الله!

- لماذا ظلمة الله؟

- لأن الجزء الذي قرأته منها يوحي بذلك.

- والجزء الذي لم تقرأه أين هو؟

- أعدت المخطوطة كاملة.

- وهذه؟

أنكفأ على مكتبه ساحبا من أحد أدراجه ملزمة ورقية.. شبيهة بنسختي التي استنسختها للمخطوطة ذات يوم.. لحظتها عرفت بأنهم قد فتشوا سكني .

يغلف الكون.. أحاول استعادة ما جاء في رسالتك السابقة.. أهامس القمر الشفيف شجوني وحيرتي وقلة حيلتي.

كم أنت محظوظة لقربك من الملكة.. أنا لا أعرف حياتكن خلف جدران القصر إلا ما تذكرينه.. وأحاول دوما تخيل تلك الحياة المبهمة.. وتلك الرسائل التي أنسخها لا تفيدني في شيء.. فهي رسائل موجهة إلى أمراء القلاع.. أو إلى متنفذين في أراضي قصية .. أتلقى ما يشاع ولا أملك إلا التأول والاستنتاج. ولذلك أمارس العشق بديلا عن الإيمان.. لأن لا إيمان في وجود غيبيات.. وإن أشقاني التفكير في الغيب أو المجهول وما أجهله.. سنوات أبحث عنك من خلال بحثي عنه.. أستجديه الظهور.. ولا يزال بداخلي بقايا أمل. إلا أن العدم يصبغ تفكيري لأجدني أقف إجلالا لمطلقه. ذلك الشيء الذي يبتلع كل شيء كل شيء.. ولذلك كثيرا ما فكرت أن العدم وجه آخر لما يجب أن يحترم.

اسمحي لي أن أكتب إليك شوذب كيقين يسكنني ولن أتواطأ مع رغبتك بإنكار كينونتك.. وأتمنى أن تكوني كما يقيني. ومع نفسك كوني ما تريدين .. واتركي قلبي يراك كما يريد.. قد تكمن السعادة في وهمنا لا فيما هو كائن.

-١٣-

قلتِ بأنك تتمنين أن تكوني هي.. سأعود بك إلى إحدى حكاياتي مع قلعة صنعاء.. إلى سنة ٤٧٢هـ.

نشط خيالة القلعة بالبحث عن كتب تخالف المذهب وإتلافها.. وكانت وجهتهم اليومية سوق الوراقين.. اقتادوا أصحاب الحوانيت وكنت بينهم محملا ببعض كتب حانوت المعلم. ساروا بنا عبر أزقة أسواق الملح والبخور.. ثم سوق العطارة والطعام.. حتى الساحة الأمامية للقلعة. غامت الرؤية.. ودارت الأرض حولي وتحت قدمي.. خارت مفاصلي.. سقطت أرضا مُغمىً علي.. صحوت لأرى كتبي مبعثرة.. وسيقان تقف حولي.. سمعت أحدهم يقول: الحمولة أثقلت كاهله.. وآخر: يبدو أن أقدامه نشبت بحفر الأرض. وهكذا كُلٌّ يدعي معرفة سبب سقوطي. ولا يعلمون بأن

ذكرى الأمس البعيد قد تهادت إلى عقلي . حيث اقتادني عسكر القلعة في يوم بعيد وأدخلوني ظلمة تحت الأرض ولم أخرج إلا بعد أكثر من خمس سنوات.. ظلمة لا تشبه أي ظلمة.. يسكنها مجموعة من المغضوب عليهم يتعايشون مع الموت وزواحف لا تُرى.

استقمت بمساعدة من حولي.. جمعوا كتبي المتناثرة.. سرت بخطوات أثقلتها ذكريات الأمس. عبرنا البوابة .. وجسمي يتفصد رائحة الخوف.. هاهي جدران الأمس السوداء العالية.. عسكر في حركة دؤوبة.. كل ما حولي هو ما كان بالأمس.. لم يتغير شيء.. تلك الدور المتناثرة.. القصر الكبير الأسوار. أدخلونا وكتبنا حجرة واسعة.. وقف كل جوار حمولته.. أطل علينا قزم وإلى جواره مساعده يطوفون مدونين بيانات كل نسخة مما حملناه إليهم . وحين أكملوا طلبوا منا تسجيل عناوين الكتب التي ما تزال بحوزتنا.. وكذلك عناوين النسخ التي تم نسخها في أيام مضت. انصرف من أكمل. ظللت ضمن قلة ممن رفضوا تسجيل ما تبقى لديهم من كتب.. منعوا خروجنا من بوابة القلعة.. ولم ينتهِ النهار حتى انصاع من حولي وبقيت وحيدا. سألني ذلك القزم بملامح جادة عن سبب رفضي تدوين ما لدي.

- ما يخصني أحضرته إليكم.

.....

- هذه نسخة صورتها قبل إعادة المخطوط.

- وما يثبت لنا أنك رددتها وأنها الوحيدة التي لديك.

- لا أعرف كيف أثبت لكم.. لكني أقسم بالله أني صادق.

- صورت تلك المخطوطة لتعرضها على مشترٍ؟

- لا!

- إذاً لماذا ؟

- لأن ما بها من حكايات شدتني .. ولذلك صورتها لأواصل قراءتها.

- وهل أكملت ذلك؟

- لا.

- لكننا متأكدون من أنك تخفي الكثير! نطق كلمة "متأكدون" مشيرا بسبابته صوب عيني بتهكم.. فاتحا فمه باتساعه. فضلت الصمت بينما واصل: إن استمريت بالرفض سننقلك إلى مكان آخر.

تخيلت المكان الآخر ظلمة الله.. تداخلت حواسي ولم أعد أميز ما يردده.. وإن كنت أتابع حركة شفتيه وتلك النظرات الحادة .. لينهض غاضبا دون معرفتي أسباب غضبه. بعد لحظات حضر رجل بساق خشبية وقادني خارج تلك الحجرة نحو شجرة كافور ضخمة وسط الساحة.. يلتف حول جذعها عدة سلاسل حديدية.. تنتهي بعضها بسيقان عدد من الأشخاص.. التقط طرف إحداها.. ولفه حول إحدى ساقي بتؤدة وصمت غريب.. وبعد انتهائه نظر في عيني باصقا على الأرض.. ثم مد أصابعه يلامس شعر رأسي باشمئزاز ظاهر.

حلت عتمة المساء.. اتكأت على جذع الشجرة.. حاولت النوم ليحول برد الليل من ذلك. في الصباح حاولت الحديث إلى من حولي.. دون جدوى أتلقى نظراتهم البلهاء.. ذو الساق عاد إلي مهددا: دون ما لديك من كتب .. فعاجلا أو آجلا سيعرفون الطريق إليها.. وحينها سيكون عقابك قاسيا. وهكذا تردد محاولا إقناعي.. قال في إحدى المرات: أنصحك بأن تنقذ نفسك.. فقد سمعت أن أحدهم سيدلهم على مخبئك. وهكذا طوال أيام قيدي يتردد ثم يسحب ساقه متأففا. يتركني أفكر متسائلا: عمن يكون ذلك الواشي؟ لا يوجد من يعرف السر غيري وغيرك ومعلمي الراحل؟ أبحث عن أجوبة دون فائدة.

لعدة ليال لم أذق طعم النوم ومع الصباح أعاني تجمع ذباب الساحة. ليعود ذو الساق نحوي صباح ذات يوم وقد تهيئات لأنفذ ما هو مطلوب مني.. لكنه ودون أن ينطق أخذ بفك سلستي من جذع الشجرة.. ممسكا بطرفها يجرني عبر ممرات أحد دور القلعة.. صاعدا بي عبر سُلم أحجار بيضاء.. حتى قاعة مربعة امتلأت بالصبايا ورائحة عطرية نفاذة.. لم يكن من رجل عداي وذي الساق يمسك طرف السلسة. كل العيون تتجه نحوي. ارتفع صوت: نحن في حضرة سيدتي الحرة سيدة.

-١٤-

لم يكن من أحد غير أن كف امرأة ارتفع من خلف مقعد عال . عقبه صوت يوحي بالجلال.. ذكرت الله وصلت على محمد.. ليستمر صوتها يردد أدعية . ثم صمتت للحظات ليرتفع مرة أخرى: لمَ لا تقتدي بأصحاب مهنتك وتقدم ما لديك؟!

تشجعت ناظرا إلى ذلك الكف.

- ما لدي ليس ملكي.

- لا يهم..أيا كان مالكه.

وجدت شفتي تسابقني بذل.

- لكنها أمانة.

- الجميع موالي مولانا المكرم.

صمت لبرهة أفكر في رد..ثم قلت:

- لم يعد صاحب الكتب من موالي أحد.

- ماذا تعني ؟

- صاحبها في ذمة الله.

- أيا كان فعليك بإيصالها.

ساد القاعة صمت قلق.. كمن تقرأ ما أفكر به وقد رفعت صوتها من جديد.

- أتريد أذية نفسك؟

شعرت بالرعب من تهديدها وأنا أستعيد مرة أخرى تجربة ظلمة الله.. رفعت أصبعي عاليا.

- للراحل ابنة وهي من جواري سيدتي الراحلة أسماء.

ضج همس ناحل بين الصبايا.. ترقب ثم قالت:

- أمتيقن مما تقول؟

- متأكد. قلتها هازا رأسي مؤكدا لما قلته.. ارتفع صوتها.

- هيا فلتحضرن من كُن في خدمة مولاتي أسماء.

في تلك اللحظة تأجج الحنين إليك.. وطيفك يسبح في أرجاء القاعة أرقب تلك الأبواب. سائلا نفسي من أي باب ستدخلين؟ تقاطرت عدة نساء.. تعالى حفيف أطراف ملابسهن.. فجأة بزغ وجهك بين الداخلات.. ضج قلبي لعينيك.. زدت ارتباكا لتلاقي نظراتنا. وأجزم بأنك تتذكرين تلك اللحظة.. شعرت بأن كل ما حولي يبتسم وأنا أتفرس وجهك.. وما زاد ارتباكي صوتها:

-هل هي بينهن؟

ظلت نظراتي عليك.. لا أحد في القاعة غيرنا.. وجهك المستدير.. فمك الصغير.. بشرتك اللبنية. عيناك الضاحكة . كدت أصرخ.. التفتُ إلى عيون تتابعني.. ابتسمتُ مشيراً:

- تلك هي!

.....

- شوف وضعك صعب.. وأنصحك أن تدلنا على المخطوطات.

- الدار أحُرقت بكل ما فيها.

- نعرف ذلك.. لكنك تعرف ما نعني .. نريد الوصول إلى تلك المخطوطات التي سُربت قبل الحريق خارج الدار.

- لا أعرف عن ذلك شيئاً.

- وماذا تعهدت لمختطفيك.

- لم أكن صادقا معهم.. لأني لا أعرف أي طريق إلى مايهدفون.

- ثم أليس هذا حديثك؟ فاردا صفحات من صحيفة قديمة.. كُنت قد تحدثت إلى محررها في يوم قديم.

ليعود صوتها سريعا موجها لك:

- أتعرفينه؟

تأملتِني لبرهة وقد علا ملامحك ارتباك ظاهر. ولوَّحتِ بكفك:

- ماذا في الأمر سيدتي؟

- يقول بأن لديه أمانه.. كتب لوالدك.

- إن كان ذلك فأنا وما يدعي هذا الكائن لسيدتي الحرة.

ضجت القاعة بالهمس.. أقلب كلماتها المراوغة.

- هل سمعتها؟

تعالى همسهن لبرهة.. ثم عاد صوتها هادئا.

- لكنك لم تجب على سؤالها.

التفتُ دون أنبس بحرف لأرى كفها المنقوش. بينما أردفتْ تأمرها:

- يمكنكِ التقدم باتجاهه.

زاد يقيني أنك شوذب وأنت تخطين نحوي.. لكني لا أرى وشم الأمس على ذقنك.. لحظة اقترابك.. التفتُ أمسح بناظري الحاضرات.

- هي ابنة معلمي صعصعة.

ارتفع صوت آمراً:

- حدثها هي.

فكرت في ذكريات أذكرك بها.. يوم أدعيت بأن اسمك شوشانة.

- أنت شوشانة.. تتذكرين يوم أتيتِ إلى الحانوت وذهبت بي إلى الكنيس في عيد المساخر.

قاطعتِني مندهشة:

- شوشانة!

لاحظت اضطراب ملامحك.. كمن يهم بالبكاء. خفضت صوتي أذكرك بما هو أبعد من الأمس القريب.

- أنت فندة. ألا تتذكرين ليلة دلتني إليك أم الجواري.. ألا تتذكرين حين تركتني وقد توجهتِ للالتحاق بالسيدة أسماء لحظات عودتها من زبيد.

اتسعت ابتسامتك التي حافظتِ على عذوبتها منذ كنت صبية.. تهزين رأسك نافية. وشعور بالخبال يجتاحني: إذاً شوذب.. نعم شوذب ابنة معلمي صعصعة. وإن بدلتِ اسمك من فندة إلى شوشانة ..ألا تذكرينني ؟

أشحت بوجهك بعيدا.. ملوحة بكفك:

- لا أعرف تلك الأسماء. ولم أقابلك يوما.. والكل يعرف اسمي "عطش".

-عطش؟ صدمتني تلك الكلمة عطش.. كنت أتمتم بها وقد خفضت ناظري متحسرا.

لم تتفوهي بعد ذلك.. أو تعاودي النظر إليَّ.. فقط تراجعتِ عدة خطوات حتى كنت بين الجواري ليتداخل همس حاد.. تلبسني ارتباك مخجل.. لا أجرؤ على شيء مع يقيني بأنك شوذب.. رفعتُ عينيَّ ألصق نظري بوجهك معاتبا.. ضجت حواسي وقد ارتفع صوت صاحبة الكف.

- ما دُمتَ متيقناً من أنها الوريثة.. عليك بالعودة إلى دكانك وحمل الكتب إلينا.. وأمنحك بضعة أيام لتجمع كل ما له صلة بعلوم المذهب الإسماعيلي.

ومن فورها أمَرتْ ذا الساق الخشبية بفك قيدي وتركي أعود إلى حيث أريد. قادني هابطا عبر تلك الممرات والسلالم البيضاء دون أن ينبس بكلمة.. فك سلسلة قدمي تحت شجرة الكافور.. مشيرا على عسكر البوابة بتركي أرحل.

لا أخفيك أن بعض الشك تسرب إليَّ حول شوشانة.. فندة.. عطش.. ويقيني اهتز بعض الشيء. بعد أن اختفى وشم ذقنك.

-١٥-

خرجت أسير وأنا أفكر بالبحث عن شوشانة.. مررت على الحانوت.. تجمع من في سوق الوراقين يسألونني: ماذا جرى؟ وهل كل ذلك الوقت قضيته في القلعة؟ وماذا عن الكتب؟ ومن تشفع لي؟

من بين شعري الكثيف أتأمل أعينهم.. ملامحهم.. شفاههم.. روائحهم.. أصواتهم. كنت أهز رأسي تارة.. وأخرى أغمغم كما لو كنت أحدث نفسي.. أعاود تفرسهم أود معرفة أي فم وشى بي.. أي العيون حدثتهم عن كتب المعلم.. لأمكث هناك بين العراء مقيداً.. لكن جل نظراتهم واحدة.. أصواتهم.. لا فرق بين ذلك الواشي فالجميع في لهفة.. أصوات عطوفة. استأذنتهم بعذر أني بحاجة إلى الراحة.. أغلقت الحانوت متوجها إلى حي اليهود.. أسأل نفسي: إن كانت تلك ليست شوذب فأين شوذب؟ وإن كانت ليست فندة فأين فندة؟ وإن كانت ليست شوشانة.. فعلي بالبحث عن شوشانة!

ويا للمفاجأة السارة.. أن أراك وسط نهر المارة.. قفزت كالملدوغ من زاويتي.. مهرولا حتى قاربتك.. كنت أنت بالفعل شوشانة.. أو في شكلها ذات الوشم الأخضر على ذقنك.. أضاءت وجهك ابتسامة غمرت عينيك وأنت تمسكين بكفي مزيلة ذلك الجراب.. تتسع دوائر بسمة عينيك.

- أتطاردني؟ قلتِها وقد اتسعت دوائر عينيك.

- بل هو الشوق من حملني .

- لكني كنت قادمة إليك.

- بحق؟

- الم أودعك على وعد؟

- بلى.

- إذاً أقفل حانوتك.

- إلى أين نذهب؟

- لدي لك مفاجأة؟

- أتقرين.

- أقفل حانوتك.

في هذه المرة كنت بشوشة.. تحدثينني بتلقائية وفرح غامض يطفر من عينيك. سرتِ بي حتى داركم.. قلت لي بأنك جئت لتعلميني ضرب الوشم.. وكانت تلك هي المفاجأة.. قلت بأني أمتلك قدرة على نقش الصور وسحر الزخرف.. وأنه ينقصني فقط أن أتعلم حقن الجلد بسن الإبر .. مكثتِ تحدثينني عن أسرار ضرب الوشم .. ورموزه وألوانه وأشكالٍ تمثل لغة قائمة بحد ذاتها.. لكنها لغة الأرواح والقوى الكونية البعيدة. وبالفعل كان الأمر من البساطة بحيث قلدت ما تقومين به على قطعة جلد ناعمة جلبتِها معك.. وبالفعل كان أهم جزء في الوشم هو تخطيط الرمز أو الشكل المراد ضربه . قضيت برفقتك وقتا اعتقدت بأنك لن تفارقيني بعده. لتفاجئيني بسؤال هز كياني وأربك نبض قلبي .. سؤال جعلني أنظر إليك بخوف وريبة:

- أود أن أسألك عن أمر كثيرا ما ترددت في طرحه.

صمت أنظر في عينيك مشجعا البوح بسؤالك.. قلتِ وأنت تداعبين شعري: كثيرا ما سمعتهم يتحدثون عن وجود كتب تخفيها.. وهي مما تركها لك

.....

حدثت الضابط من أني أردت فضح المصادقة على بيانات وهمية لصناديق فارغة أثناء جردنا لدار المخطوطات. لينهض غاضبا مادا كفه بتهديدي.. ثم أمسك بياقة قميصي وصفعني على وجهي.. رافضا ما أدليت به.. ناصحا بتقديم أسماء شركائي وعناوينهم.. ومن لهم يد في إفراغ تلك الصناديق.حاولت أن أشرح له الوضع.. لكنه كان غاضبا.. ليستدعي مجموعة جنود:هيا أعطوه دوش.

وبدورهم باشروا بضربي حتى أفقدوني الوعي. صحوت وقد أختلط رعافي بماء رشرشوني به.. ليأمرهم مبتسماً أن ينقلوني إلى سجن الإدارة العامة للمباحث الجنائية.

معلمك قبل مقتله وأوصاك بإخفائها.

نظرتُ إليكِ لحظة وقد أنعقد لساني.. لأتساءل مندهشاً: من هم الذين تسمعين منهم ذلك؟ ولماذا يتساءلون؟ ثم ما صلتك بهم وقد قلت بأنك ووالدتك شريدتان. وأمر آخر لا أحد يعرف بمكمن تلك الكتب غيري والمعلم وأنت. نعم أنت شوذب.. وقد رحل المعلم ولم يعد من أحد غيري وأنت. وأتذكر بأني كنت قد غيرت مخبأ تلك المخطوطات بعد احتجازي وتقييدي إلى شجرة الكافور. لم أنقلهن بعيدا.. فقط قمت بالحفر تحت أرضية مخزن الحانوت.. أنزلت صندوق الكتب بعناية.. سويت كل شيء.. شعرت بعدها بالأمان على تلك الأمانة.

تتذكرين بأنك ظللت في ذلك اللقاء تلحين الجواب بدلال مبالغ فيه.

أجبتك ساخرا:

- ما تسألين عنه أضحى في بطن الأرض. بعدها لم تكرري أي حديث حول سؤالك.. ظننت بأني نجحت في تتويهك.. وإبعاد قلقي منك. محاولا كسر صمت خيم بيننا.. سألتك أن تفي بوعدك قراءة طالعي. لكنك استأذنتني متعللة بتأخر الوقت.. وأتذكر بأنك لم تعديني بالعودة. ذهبتِ ولم تعودي إليَّ.. ولم تفي بوعدك في قراءة كفي؟ لكن بعد وقت عرفت بأني أخطأت حين أفشيت لك سر الكتب وكنت أظن بأني أتوهك حين أجبتك بسخرية. فهل تتذكرين كلما كان بيننا.. السلام لك من قلب يهيم في حبك ويتبتل بانتظار عطفك به.

أكملت ما كتبتُ إليها.. طويتها في قلق.. ودسست اللفافة كالعادة في مخلاة الرسائل المنجزة بانتظار هبوطهن.

-١٦-

كما لو أفقت من تأثير سحر.. صحوت بعد أيام على أسئلة تؤرقني: هل فقدتها؟ لقد ذهبت دون وعد. بدأت بالبحث عنك.. بدأت بحي اليهود.. أسأل من أصادف عن منزل شوشانة.. ناثرا أوصافها: فتاة لها وشم على ذقنها..

طويلة.. لها وجه بيضاوي..عينان ضاحكتان وفم كأنه خاتم. جاءت وأمها هربا من بلاد الشام.. تجيد التنجيم وقراءة الكف. لكن كل من سألتهم لا يعرفون بيتها.. أو أمها.. و لم يصادفوا يوما فتاة أو امرأة بمثل تلك الأوصاف.. وما زاد حيرتي أن العيلوم نفى أن تكون هناك يهودية لها وشم تحت فمها.. ولم يسمع بذلك الاسم بين رعيته.. ولم تصل امرأة وابنتها من الشام خلال سنوات مضت. لكنه لم ينكر حضوري إليه في الكنيس.

عدت عاجزا من الوصول إليك.. أفكر بهدوء مجمّعاً أفكاري.. أخذت بزاوية المعلم في الحانوت وقد أخذ اليقين مني مأخذه بأن عطش هي شوشانة وشوشانة هي فندة وكلهن شوذب التي هي أنت.

ولم يعد يهمني إن حضر خيالة القلعة أو لم يحضروا.. ولا سلاسل شجرة الكافور.. توالت الأيام دون أن يظهر أحد.. حمدت النسيان الذي شملني برعايته ولم يعُد فرسان القلعة يبحثون عني.

بعد أيام انتشرت أخبار عزم الملك أحمد المكرم الرحيل إلى اليمن الأسفل. وأنه سيترك صنعاء. وبتلك الأخبار احتل المدينة رعب.. لتتناسل شائعات كثيرة حول أسباب تركه لعاصمته وهو من حارب سنوات من أجلها.. وجدع أنوف عشرات السلاطين وقتل عشرات الآلاف من العسكر والسكان لإخضاع بلادا تصل بين مكة وعمان.. ليتركها ذاهباً إلى أحد الشعاب النائية. كان الأمر غريباً لم يصدقه معظم الناس في البداية. لكن يوم اليقين جاء وقد خرجت صنعاء لوداعه وبصحبته زوجته الحرة سيدة وكل حاشيته من جواري ومستشارين.. كان الموكب كبيرا تحفه عساكر كُثر. سار الموكب وسط المدينة حتى أطرافها.. لتختلط أصوات الأبواق بأدعية المساجد.. وعويل النساء بصهيل الخيول. أربدت السماء وعلت رعودها.. لتسكب مزونها وتغسل المدينة وتهدأ الأصوات.. سرتُ خلف الركب مع السائرين لا يهمني البلل.. وعيناي تتمنى رؤية وجهك من على أحد الهوادج. حام الخيالة بالزجر والتهديد يردعون الناس عن السير خلف الركب.

ليفترق ويبتعد الموكب عبر مزارع واسعة جنوبا.. عدت مع العائدين وقد بدت منارات ودور المدينة من خلف أسوارها ككائنات شاخت فجأة واعتلاها بياض عجيب.. وتلك السحب دنت من سفوحها يسمع الجميع أنينها أو أنه أنين قلبي. عدت أبحث عن بقايا دفء.. دخلت باب اليمن الأسفل.. ظللت أسير دون هدى حتى دنت الشمس ساحبة خيوطها ليحل ليل دون أمل. خواء رغم زحام الدور.. صمت يسحق نبض قلبي.. كل شيء مشغول برحيلك.. رافضا تلك الأسماء: عطش.. شوشانة.. فندة.. أحاول الهروب من تفكير يقودني إلى الجنون.. أستجمع معرفتي التي اكتسبتها من الكتب.. محاولا التصالح مع الحياة.. لكنه سؤال ظل يتكرر: لماذا كل تلك الأسماء؟

لم أعد أطيق البقاء في الحانوت.. ما إن تمر اللحظات حتى أنهض من زاوية المعلم.. أحاول التخلص من استبداد ضيق يلاحقني.. أقفل الحانوت فارا.. أسير عبر الأسواق .. أعاود الوقوف أمام بوابة أسوار القلعة.. كل ما فيها باهت.. تلك المنارة وعدة دُور خلف أسوارها تطل في غرابة.. لا أعرف لماذا بدأتُ أبحث عن معجزات.. لأيام لجأت للكنيس.. ثم اعتكفت في أحد المساجد.. بحثاً عن شيء يشعرني بالأمان.. ولم أجد غير الخواء. فكرت بمغادرة صنعاء.. أن أفر مما يعتمل بداخلي. لكن خيالة القلعة كانوا أسرع.. حين حضروا للبحث عن بعض الوراقين.. يتقدمهم على خيله ذلك القزم.. الذي ظننته رحل مع مولانا إلى اليمن الأسفل. وقف يتأملني من على ظهر خيله.. صوته الحاد:

- أتيتك بعد أن أعطيناك أكثر من وقت.

- يا مرحبا.

.....

لم يتركني ذلك الضابط الشاب بعد نقلي سجن البحث الجنائي.. ظل جنوده يقتادوني إليه كل أربعاء لمواصلة التحقيق.. أستمر في عنفه وقسوته.. يكرر تلك الأسئلة بالعاً اسطوانة مشروخة.. آمراً عسكره مع نهاية كل تحقيق بدوش ليبتسم بعدها.. ثم يأمرهم بإعادتي منهكا إلى البحث الجنائي.. كنت أرثي لحاله دون إفصاح. فهو يكرر كل أربعاء ما قام به في سابقه. أتأمل ملامحه وقد خالطتها طيبة.. وكأنه لا يعرف ما يصنع بي.. كثيرا ما ينهض يهتز طوله الناحل وهو يردد نفس الأسئلة.. مغضنا بشرة وجهه. يريد أن يبدو شريرا.

- ألا ترى أننا نعاملك بلطف؟

- لطف!

- وتسخر؟

- بماذا؟

- بلين تعاملنا.

- هو الحزن.

- أي حزن؟ ألديك ملامح مثلنا؟

حينها فضلت الصمت.. وبدوره أخذ يتأمل هيئتي.. ليتجه صوته إلى منحى آخر.. أو أنه أراد أن يسحبني إلى حلبة أخرى حين قال: طالعت صفحات بعض تلك الكتب التي أحضرتها سابقا وأدهشتني قدرتك على رسم الحروف ونقش تلك الزخارف بذلك الجمال.. لكن لا مبالاتك تستفزني.

ابتسمت حين نطق تستفزني.. بينما تقاطيع وجهه أخذت بالتجهم.

- فلمَ تعاملني بتلك القسوة؟

- أي قسوة؟ لم نمارس بعد قسوتنا.. وما تلمسه لطفاً.. وإلا ما تركتك طليقاً كل تلك الأيام.

- ربنا يجيرنا.

تحلق المارة والوراقون حولنا.. لتدفعه تلك العيون والأفواه إلى أن يزيد

.....

يفاجئني ذات أربعاء بخفض صوته.. وابتسامة لا تفارق وجهه. عرض عليَّ قراءة بعض صفحات تلك النسخة .. ومع نهاية الجلسة لم يأمر عسكره بالدش المعتاد.. ولدهشتي قال بأنه قرأ بعض حكايات جوذر ليجدها حكايات ممتعة. بل وحكايات تحرض على الثورة! مادأ بالأوراق لأقرأ له.. كنت أتأمل تأثير صوتي على وجهه.. يبادلني النظرات كأنه يبحث عن شيء لا أعرفه.. أو أن تلك طريقته في معرفة ما أفكر به كمتهم.. هذا ما ظننته في بادئ الأمر.. لكنه أخذ بالتغير من أربعاء إلى آخر.. وكأنه ليس ذلك الضابط العنيف.. صوته وأسلوب حديثه محير.. لم يعد كما كان.. نظراته وابتسامته تبعث في نوعاً من الأمان.

من شراسة كلماته.. فكرت في وسيلة لترضيته وتخفيف غليانه.. التقطت كتاباً كتبته كرسالة طويلة في عشقي لكِ.. وكنت أنوي إهداءه يوما إليك. وقلت له:

- هذا لك!

قلب صفحاته وقد تراقصت نظراته.. ثم نظر إلي:

- ماهذا؟

- أبداً.. هدية بعد أن أحسست بأنك معجب بما أصنع.. فأحببت إهداءك أجمل ما لدي.

تغيرت ملامحه.. وأشعرتني ابتسامته بأني أعرفه منذ زمن.. وقال بصوت ناعم.

- سأحترم روحاً جميلة تسكنك .. ولن أقتادك مع الآخرين .. سأنتظرك صباح غد في القلعة.

-١٧-

أتذكر بأن همسا تصاعد من حولنا.. ونظراتهم تنتقل بين الخيول الغادية وذاتِي. صباح اليوم التالي سرت وحيدا بمشاعر مرتبكة.. استقبلني عسكر بوابة القلعة بوجوه بشوشة.. لم يتركوني أكمل سؤالي حين سارع أحدهم يدعوني إلى مرافقته.. سرت صامتا.. شعرت بنوع من الطمأنينة.. أوصلني إلى نفس الحجرة التي استقبلتني والوراقين في الأيام السابقة.. جلست وحيدا على دكة طويلة. فجأة تسرب إحساس خوف.. لم تمض لحظات حتى دخل القزم اليامي بقناع باسماً رغم عيونه المرهقة.

- كنت واثقا من قدومك.

استغربت لوثوقه مع أنني أمسيت ليلة البارحة أفكر بالهرب من صنعاء. اقتربَ مصافحا ثم قال: أين الكتب؟

- كتب ماذا؟

- يبدو أنك تجيد السخرية لتعاطفي معك!

- قلت لي أن أحضر فقط.

- وماذا بيننا حتى تأتيني فقط؟ هيا انهض اذهب ولا تعد إلا بها.

وقفتُ دون حركة.. التفتَ مندهشا ثم أشار برأسه متسائلا.. فقلتُ له:

- سبق أن أخبرتكم بأن ما لدي أمانة ولا أستطيع التفريط بها.

- أمانة.. أمانة.. كثيرا ما أسمع تلك الكلمة حين تريدون التهرب.. وعليّ إعلامك أن ما لديك مخطوطات تخص علوم المذهب.. وعليك بإحضارها قبل أن تنقلب الآية عليك.

- كيف؟

- وبسرعة.. لا أريد أن تسوء معرفتنا قبل أن نبدأها.. وحالا عد ولا تأتِ إليّ خالي الوفاض.

وقفت أفكر في الخروج من ذلك المأزق.. فكرت أن أزيد من إدهاشه.. رجوته اصطحابي لأريه ما نقشت يوماً أعلى قاعات قصر القلعة. ابتسمت راجيا بتردد الطواف في تلك الأدوار قبل انصرافي.. خالطت ملامحه سيماء التعجب.. واستقرت نظرته على عيني للحظات.

- أمرك عجيب.. بدلاً من أن أذهب لجلب ماتبقى لديك من كتب.. تطلب مني الطواف على طوابق القصر!

- سأبوح لك بسر.. لقد قضيت أياما كثيرة كنت فيها أنقش جدران قاعات الدور العلوية للقصر.. كان ذلك في عهد مولانا الملك علي. وهذه أمنيتي أن أريك ما صنعته أصابعي.

ذاب قناع وجهه الباسم.. وتقلصت عيناه لبرهة وقد أطال في تأملي.

-هل أنت من نقش تلك الصور ؟

أدركت لحظتها بأني أصبته في مقتل . حدثته عن نفسي كناسخ ونقاش.. وعما قضيته في حجرات أعالي القصر.. حكيت له حكايات طريفة. لكني لم أذكر له مأساة معلمي.. ولا معاناة صباي.. ولم أتطرق لتلك الحياة المتداخلة لأمي.. ولا مشاعري تجاهك.. فقط حدثته عما يبهره.

أخرج الكتاب الذي أهديته إياه وأخذ يقلب أوراقه.. يتأمل كل صفحة وأنا أجيب عن أسئلته التي تدور حول مزج الألوان في نقش تلك الزخارف.. رسم الحروف بأشكال مختلفة؟ أبدى إعجابه وتذوقه ..ثم أخذ يحدثني عن قرضه للشعر.. وعن رغبته سماعي بعضها.. مالبث أن أخذ يترنم ببعض قصائده.. وهكذا وجدته وقد تغير. بدا لي قزما غريبا ولطيفا. ودعني حاثا على زيارتي له وقت أشاء.

خرجت من بوابة القلعة وأنا أنوي عدم العودة.. لكنه أرسل في طلبي بعد أيام. يدعوني إلى مجلسه في مساءات ممتعة.. يسمعني من شعره.. أحدثه حول أنواع الخطوط.. وأصناف المداد.. وفنون النقوش.

-١٨-

أثناء ترددي عليه كان يرسل عسكره إلى سوق الوراقين لفحص وجلب المزيد من الكتب.. يحبس من يريد.. ويصادر كتب من يريد. كان الهمس يتعالى بأن لي يداً في ما يدور.

إلى ذلك الصباح حين رأيت حانوت المعلم فاغرا سقفه تتخلله الشمس.. حتى الجدار الفاصل بين الحانوت ومخبأ الكتب هُد هو الأخر.. في بداية الآمر اعتقدت بأن الأنقاض قد أخفت تحتها مخبأ الصندوق.. سارعت إلى

.....

في أربعاء لاحق سألني لأول مرة سؤالاً بعيدا عن محور التحقيق:

- هل تهتم بما يدور في البلد؟

أربكني سؤاله هازا رأسي بالإيجاب.. تاركا بين يدي عددا لصحيفة حديثة الإصدار.

قلبتها في خلوتي.. أبحث عما يعنيه بكلامه.. لفت نظري خبر يحتل الصفحة الأولى: الرئيس يخطب في مجلس النواب بحضور أعضاء الشورى وكبار رجالات الدولة "لا للتمديد، لا للتوريث، ولا لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء" داعياً المعارضة إلى العودة للحوار والمشاركة في حكومة وحدة وطنية.

نبش ذلك الركام.. لم يعد يهمني نظرات المارة وأصحاب الحوانيت المجاورة.. بل لم أنهر من تقدم لمساعدتي في نبش الركام .. لكني لم أجد ما أخفيته. جلست فوق الركام أندب أمري.. تكاثر المارة والوراقون.. بالكاد أرفع بصري الدامع.. لأسمع كلمات المواساة.. فارقت السوق كسيرا لا ألوي على شيء.

تغير ما كنت قد اكتسبته من ثُقة بنفسي.. ولم أعد إلى السوق.. انزويت في داري.. أقرأ ما تبقى من كتب.. غائصا في معاني الكلام. ولأيام أمسيت لا أطيق حتى فتح النافذة أو النظر إلى العابرين.. أكره سماع الأصوات الآتية من بعيد. أقف على ما تحمله بعض الكلمات والجمل من دلائل .. أبحث عما وراء معانيها. لا أستجيب لقرع الباب.. ولا أهتم لما يدور خارج حجرتي. إلى ذلك النهار حين فاجأني صوت ذلك الشاعر القزم من خلف نافذتي: هيا اهبط لأراك.. لقد ذهبت إلى السوق ولم أجد غير ركام حانوتك! جئتك لأعرف ماذا حصل؟

أسمع صوته غير مصدق حضوره.. أخذت أتلصص على الشارع من شق نافذتي لأرى عيون المارة تتجمع.. رافعا صوته الممطوط أن أنزل.. عسكره فاغرين أفواههم ونظرات دون معنى. رفع صوته مهددا بكسر الباب.. فتحت مصراع النافذة ملوحا أن يذهب. لكنه واصل تهديده مغتاظا: إن لم تهبط سأصعد إليك.. ألا تسمع؟!

أقفلت نافذتي غير مبال بتهديده.. وما هي إلا لحظات حتى سمعت تهشيماً أسفل الدار.. تعالت جلبة.. لأفاجأ باقتحامهم حجرتي.. انكمشت على نفسي وشعور بالمهانة يجتاحني. وقف ملاطفا.. ثم ركع ممسكا برأسي يتودد.. عسكره ينتظرون ما سيأمر به.. نهض يسحبني من ذراعي.. نهضت أحتضنه كمن أفاق من غيبوبة.. أخذ يسألني عمَّ حل بالحانوت؟ كمن فطن لما يدور بداخلي.. اعتذر لي عن اقتحام خلوتي.. وأخرج لي ثيابا جديدة:

- مرسلة لك من مولانا المكرم.

- مولاي؟

- نعم.. وأمر باصطحابك إليه.. سأنتظرك صباح غد. لنرتب الرحيل إلى ذي جبلة.

- لكني أريد البقاء هنا.

- هذا أمر مولاي.. إن رفضت سأصطحبك عنوة!

- لن أهجر صنعاء.

- أنت من اليوم في رعاية مولانا.

- كيف أغادر ودكان المعلم ركام.

- سأتدبر أمر الحانوت. ستكون كاتبه وكاتم أسراره.

- كاتبه؟

- لا أريد إلا البقاء هنا؟

- لا بقاء لك.

- لن تصدقني إن قلت لك لم يعد يهمني الأمر.

- لكنك تهمنا.

- أرجوك تركي وشأني.

- هو أمر مولانا. لكن قل لي.. أهم الوراقون وقد ظنوا بك سوءاً؟

- يجوز.. لكني لا أتهم أحداً.

- هل فقدت غير الجدران.

- أمانة المعلم.

- أهي التي رفضت تسليمها لنا؟

- نعم .

- كلها؟

- كلها. رغم إخفائي لها في مكان آمن.. لا أعرف كيف استدلوا عليها؟

- لا تقلق سأعرف الفاعل عاجلا أم آجلا!

- وماذا بعد؟

- وسأرغمهم ببناء الحانوت.. وإعادة المسروقات.. وسأجدع أنوفهم.

رديت مكابرا.

- لا أريد جدع أحد.. أتمنى أن تتركني وشأني.

- أنا عبد مأمور لن أغادر إلا بك!

فاجأني بتصميمه. كاتماً سعادتي متخيلا الحانوت وقد أعيد بناؤه.. يحدثني بود صادق.. تخيلتني في ذي جبلة حيث تكونين.. وأن أعود بعد وقت لأستعيد ما سرق من كتب.. لأجلس أمارس عملي في الحانوت. رفضت مرافقته مشترطا بناء الحانوت أولاً. لكنه أرسل عسكره لاقتيادي عنوة صباح يوم الرحيل.

والآن اعذريني.. أسمع وقع أقدام جواري البريد ولا زال لدي الكثير لأقوله. أستودعك.

طويت اللفافة على عجل ووضعتها بين اللفائف الجاهزة بداخل مزودة الرسائل. متهيئاً لظهورهن.

-١٩-

أتذكر بأني لليال كنت أسامر صورة غرفتها وأنا أنتظر ردها.. مواصلا نقش ما يزين بقية جدرانها.. تشغلني تخيلاتي وقد هربنا معاً من ذي جبلة متجهين إلى صنعاء .. نعيش معاً أيامنا بدلا من مناجاة تلك الجدران..

.....

دوما أتابع أوضاع البلد لكني لا أهتم لذلك الصراع العقيم بين الرئيس وأحزاب المعارضة.. ولا أهتم للحوار الذي قاطعته تلك الأحزاب. وكثيرا ما أشارك في نقاشات خاصة في مقايل القات.. تدور حول الفساد.. والتوريث.. والأموال المنهوبة.. وتوظيف الأقارب.. وشراء الذمم.. أعرف أن الجميع من نفس الطينة سلطة ومعارضة.. وأن جميع الأحزاب عملاء يقبضون من الخارج.

أمسك بكفها أتأمل وجهها فأراه لم تتقدم به السنوات.. صبية خجولة تقهر الزمن.. أسمع صوتها.. ضحكاتها.. أفيق لأراها وقد عادت إلى جدارها.

وللمرة الثانية تهاجمني أحاسيس الفقد بعد مرور أيام دون وصول لفافتها.. أمسيت أهرب إليها ممسكا بكفها الراقص أقضي جل ليلي أراقصها وحين تتعب أتركها ماتبقى من الليل.. متجها نحو النافذة.. أناجي عبرها نجوما كثراً تتدلى عناقيد لا محدودة.. لتشد انتباهي حركة أحد قضبان النافذة وقد تجاوب لعبث أصابعي دون بقية القضبان.. شغلتني حالته.. اهتز قلبي أملا.. أخذت أبرمه يمينا وشمالا حتى استجاب أحد طرفيه.. سحبته ليُفتح أمامي متسع يكفي لعبور جسمي على هاوية الظلام. أقلب ذلك القضيب بين يديّ.. أسأل نفسي كيف حدث ذلك؟

أم أن في الأمر خدعة؟ جدلت ما استطعت جدله من الأغطية.. تسحبت بين القضبان.. أمسيت أحاول الهبوط حتى وجدت أقدامي تلامس سطحا صخريا بارداً.. لم أحتمل فرحتي تسلقت مذعوراً.. تسللت بين القضبان.. سحبت الجدائل.. أعدت القضيب إلى مكانه خوفا. غير مستوعب ما أنا فيه.

لم أنم لعدة ليال.. أحاول تفحص تلك المسافة نهارا.. جرف الجدار ينتهي بشفة صخرية ضيقة.. أعدت الهبوط.. وقفت على شفة الصخر.. سرت متشبثا بنتوءات الجدار.. أرتعش خوف الانزلاق.. بعد معاناة أمسكت أصابعي شفة ركن نهاية الدار.. أحسست بفرحة تغمر كياني وأنا أخطو على أرض مستوية.. ركعت أرضا.. أزحف بحذر حتى كنت في أطراف الساحة الأمامية للقصر.. أشكال الجدران وأبراج الحراسة.. ظلام صاخب.. غموض مهيب.. وميض النجوم يتواصل فوق أشباح أشجار الغابة القريبة.. كانت هناك أصوات وحركة لا ترى.. تسحبت حتى أطراف الأحراش.. قضيت شطراً من ليلتي أحاول اكتشاف المكان.. تخيفني أشباح الأبراج المتفرقة.

ليلة بعد أخرى أمست أصابعي تكتشف نتوءات وأخاديد أحجار الجدران. كان همي أن أتعرف على المحيط.. أن أجد طريقا للوصول إلى شوذب.

تبدو مباني قصر ذي جبلة دوراً متلاصقة تحاصر أطرافها أبراج سامقة.. مسجد يجثم أطراف الغابة القريبة.. وإلى جواره عنابر وإسطبلات خاوية.. ظلال الأشجار يحتل كل الأنحاء.. أعود كل ليلة متسلقا خوف بزوغ الشمس.

يبهرني اكتمال القمر. يدعوني بالتسلل وسط سناه الذي أضفى عليَّ شعوراً بالأمان والسكينة.. وهكذا تعودت التسلل على ضوئه.. بعيداً عن الأبراج.. أتسحب بحذر مقلدا الزواحف.. ألتصق بالجدران .. أسترق السمع .. أبحث عن باب يمكنني الدخول إلى قاعات القصر.. أترصد كل حركة وكل صوت.. عند أي خطر أنسحب نحو أطراف الغابة.. حفظت تلك الأنحاء.. وظلال اليالي المقمرة. حين ألج الغابة تقترب كلاب وقطط الأحراش حذرة.. ثعالب تحرث الأرض بأنوفها تتشمم حولي ثم تفر مذعورة حين تكتشفني.

-٢٠-

اخترت صخرة مسطحة على مشارف الغابة.. أصعدها.. أتمددها متابعا رحلة القمر.. أتابع تغيرات أطواره.. ينسيني ما حولي .. لحظات ملامسة شفاه الجبال العالية. ليالي اكتماله.. خُيِّلَ إليَّ هبوطه.. في البدء ظننتني أحلم.. كنت بين الصحو والمنام حين زاد دنوه.. واتسع بهاؤه.. يدنو ويدنو حتى انفصال نقاط بيضاء صغيرة عنه.. اقتربت تلك النقاط فوق سماء الغابة.. كانت خيول مجنحة أو هكذا تصورت ذلك.. هبطن أكثر وأكثر لأراهن برؤوس وأعناق صبايا فاتنات.. حُمن فوق الصخرة بشعورهن الطويلة.. سكنت جميع جوارحي رهبة وخوف. تقدمت إحداهن دون أن أسمع لحوافرها وقعاً.. كتمت أنفاسي متوجسا.. ابتسَمت كمن تدعوني.. نهضت مترددا.. اقتربت.. عيناها أوسع مما تصورت.. مددت كفي أمسك برقبتها.. إحساس بالطفو فوق فضاء شذي.. كائنات القمر البيضاء حولنا يتطاير شعرها.. علونا لأرى ظلال القصر تلتصق به الدور الملحقة.. الغابة والأودية وجبالاً اتشحت بزرقة ساحرة.. طفونا عاليا. أرفع ناظري إلى الأعلى لأرى بحرا من النجوم.. زادت رهبتي للحظات سماع وقع أقدام وهمهمة آدمية .. ما لبث أن ظهر رجل مديد القامة له سيماء الجلال

والمهابة.. اعتلى وسائد من سحب.. وقف حوله خليط من غلمان مرد وجوارٍ حسان. اعتلت إحداهن وسائده وأخذت تتلو ما يشبه الموعظة بكلمات غير مفهومة ليجهش باكيا.. تبعه نحيب من حوله.. ثم أشار عليها أن تؤم الصلاة.. وقف أمام الجميع حتى كائنات القمر. قرأت هي تراتيل خليطا من لغات شتى. سجد الجميع له. قام فينا خطيبا منتحبا كأنه الرعد القاصف.. ربت على رؤوس الجميع حتى جاء دوري.. أطال النظر إلى وشم كفي.. أتأمل وجهاً مستطيلاً مشوباً بحمرة.. عينين واسعتين وفماً يلتهم شفتيه. ابتسم ماسحا على كفي "من أنت ؟" لم أقوَ على تحريك لساني .. أشار علي بالصمت ومضى يطير بعيدا.. لتحلق بي تلك النقاط البيضاء المجنحة عاليا حتى رأيت أننا نخترق أكواناً شتى.. ما إن نقترب من جرم حتى أرى كائنات غريبة تتجمع وضاءة.. وأخرى بأحجام لا يستوعبها عقل.. اقتربنا من جرم عظيم .. ملأ الآفاق ولم يعد من شرق أو غرب.. أو أي جهات.. هبطنا صحراء امتلأت بالنحيب.. رأيت صفوفا من أشباح بيضاء عارية.. يرقصون مترنمين بلغة لا تشبه أي لغة.. ما لبث أن اهتز كل شيء وأضاء الكون بأسره.. وعاد صوت نحيبه مخيفا: " لم يكن لك أن تظل الطريق!" هو نفس الصوت السابق . كل شيء يرتجف بعنف غير مسبوق.. نقاط القمر ترتجف.. تجمعت أجرام عجيبة وكائنات غريبة. أحسست بأن بدني يهوي من علو لا مرئي .. لم يعد حولي غير فراغ دون لون أو رائحة. لم يستوعب عقلي ما أراه وأعيشه.. أهوي وأهوي .. رأيت جرفاً سحيقاً ينزلق بعيدا.. ارتطمت بشدة لأصحو بعد هنيهة.. وأجدني أسفل صخرة أطراف الغابة.. لم يعد من قمر.. ظلام يحتضن الوجود.. كل ما حولي بارد.. حتى الأعشاب الناعمة.. غير مصدق ما كنت فيه. حقيقة تشبه الحلم.. زحفت أتلمس طريقي.. أقف متسترا بعتمة المكان.. عدت متسلقا جدران داري..

.....

أربعاء بعد آخر أنتظر تلك الصحف التي يجلبها ضابط التحقيقات.. يناقشني حول ما قرأت من أخبار ومقالات.. لأجد نفسي مهتماً ومتابعاً لما يدور في البلد بشكل متواصل.. وكذلك أهتم لما يناقشه المساجين حولي. ولم يعد الضابط يقدم لي أوراقي كي أقرأ له منها. قائلاً: حكايات جوذر قدمت إلي كثائر! ولم أفهم ما عناه.

أعاود النظر من خلف النافذة لأرى سماءً تزدحم بنجوم تومض في هدوء غريب.. غير مصدق بأني كنت هناك أطفو.

صباح اليوم التالي جلست إلى ذي الساق الخشبية أحدثه عن رؤياي.. حكيت له من البداية حتى النهاية.. لم يهتم إلا بأمر ذلك الرجل طويل القامة والوجه المستطيل المشوب بحمرة.. والعينين الواسعتين وفمٍ يلتهم شفتيه.. سألني متعجبا.

- أتعرف سيدي المكرم..أو قابلته يوما؟

- أبدا.. لماذا؟

- تصفه كما لو كنت تعرفه.

- غريب!

- أن تؤمكم إحدى الجواري.. وتسجدون له.. ثم تدمع عيناه.. هذه رؤيا تخيفني.

في ذلك الصباح أقفل ذو الساق الباب كئيبا.. يتمم بصوتٍ واخزٍ مريب. استبد بي الإحباط وأنا أنتظر لفافتها كل صباح.. يأس يتسرب لانقطاعها شهوراً طويلة.. تظهر بين لفائف ذلك الصباح .. صبّرتُ نفسي حتى صعدن.. غير مصدق أنها بين يدي.. خطوت نحو ضوء النافذة.

"عناية الله وحكمته هي ملجئي والمنتهى.. عليه التوكل وإليه نصدق النيات بصالح الأعمال.

لم يكن لي إلا أن أفكر قبل أن أعاود الكتابة إليك خوفا.. قد لا تعرف

.....

في سجن البحث الجنائي كان للمساجين عنابر تفتح على بعضها.. ولنا أوقات لنخرج فيها للتشمس.. نتبادل الأخبار ونتناقش فيما يدور خارج السجن.. ننسج تعارف فيما بيننا.. لاكتشف أن الشارع يغلي خارج أسوار السجن بالمظاهرات والاحتجاجات.. كلها تطالب بمحاربة الفساد.. كما تحدثت الصحف عن تظاهرة كبيرة في صنعاء أطلق عليها "يوم الغضب" جابت شوارع العاصمة وقد واجهتها قوات الأمن المركزي بسد الشوارع لإعاقة سيرها نحو دار الرئاسة مستخدمة الهراوات والرصاص المطاطي لتفريقها.. كما اعتقلت عدداً من الناشطين وزجتهم في السجون.

مايدور بداخل القصر.. هنا الموت سهل.. فبالأمس وُجِدت إحدى الجواري على فراشها وقد أسلمت الروح. لا يبدو عليها آثار الموت. ولذلك غمرني حزن شديد وأنا أراها ممددة كمن تغط في نوم أبدي.. انسحبت إلى سطح القصر كسيرة.. قضيت ليلتي دامعة.. لا أعرف لماذا هذه المرة.. مع أن الموت جليس كل جارية.. موت هذه الجارية ذكرني بموت مماثل.. لكنه وقع قبل عدة سنوات وإن اختلف المكان.. لازال ماثلاً أمامي.. كان ذلك في حمام بلاد آنس.. أثناء رحلة مولاي المكرم من صنعاء إلى جبلة.. حينها وُجِدت جاريتان في بركة الحمام .. تجمعنا لنراهما تطفوان وسط بخار متصاعد.

ذلك المنظر لم يبرحني حتى اليوم.. ودعني أحكي لك حكايتها التي بدأت منذ عزمت سيدتي الحرة الرحيل من صنعاء تطبيقا لتعاليم سيدتي أسماء.. بداية بوصية "أن تضعي هدفاً تعيشين من أجله.. على أن تخطي له طريقاً لتحقيقه على مراحل.. خطوة بعد أخرى.. والسلطان أجل المراتب" تلك إحدى تعاليم الملكة أسماء لربيبتها الحرة سيدة.. تدعوها مواصلة السير في طريق بدأَتْه: "السلطان أسمى الغايات".. وبدورها كانت سيدتي الحرة وفية لتلك التعاليم السرية ناذرة حياتها لما يمكن إسعاد روح الراحلة.. فكثيرا ما كانت تناجيها في صلواتها وخلوتها حتى يظن من يسمعها بأنها جنت.. وكثيرا ما تؤم صلوات خاصة بها.. نترنم جميعاً وسط سحب البخور.. نناجي روحها ندعوها لعوننا ومناصرتنا. وذلك في دورات محسوبة.. أما الحرة فتحدثها في كل يوم.. عما حققته وعما تنوي تحقيقه.. تنصت كثيرا كمن تسمع أصواتاً لا يسمعها غيرها.. ثم ترفع رأسها مسترده أنفاسها مواصلة الحكي إليها.. ودائماً ما تقول لنا أن روح سيدتي أسماء تعيش بيننا.. ترى وتبارك ما نصنع وما نفكر به.

ورحيل سيدتي الحرة وزوجها الملك من صنعاء ليس كما ذكرته أنت في أحد رسائلك. واعلم أن ما أُعلن شيء وما هو واقع شيء آخر.. بداية أشاعت سيدتي الحرة سيدة أن الملك قد فوضها كمساعدة له على إدارة الحكم بعد وفاة والدته.. وتلك الشائعة أشاعتها تطبيقا لأحد تعاليم الملكة أسماء الذي نصه: "من أمضى الأسلحة الشائعات.. فعلينا التمهيد قبل العمل

ببث الشائعات بين الخواص والعوام". أعقبت ذلك بتوزيع العطايا على خطباء المساجد.. ولم يمض وقت حتى كان الجميع يعاملونها كما لو كانت الملكة أسماء.. خوفا ورهبة. ويلجئون إليها في أمور كثيرة. بالمقابل لم يُلِقِ الملك بالاً لذلك. تبعت تلك الخطوة خطوة أخرى.. إهداء بعض جواريها باسم الملك إلى كبار أمراء حصون وقلاع البلاد.. تطبيقا لـ"اجعلي من ضعفك قوة.. فالأنثى أمضى سلاح على الرجال". ما جعلها ترى ما يدور وتعرف بأدق ما يفكر به كل أمير.. وبل وتعرف ما يهم نساء السلاطين ووجهاء البلاد. كما بسطت يدها بالصدقات.. والإنفاق على توسعة المساجد وإنشاء محاسن مياه الشرب في أحياء صنعاء. ولم يمض وقت حتى كان اسمها يُتلى عقب الدعاء للملك في جميع مساجد صنعاء وبعض المدن. وهكذا ظلت تخطو خطوات ثابتة يوما بعد يوم متبعة تلك التعاليم السرية. وأخذت تمارس عدة أساليب لإضعاف الملك الذي لم يدرك بأن روح والدته قد بعثت من جديد.. حيث حشدت حوله أجمل الجواري والغلمان.. سيرا للتعاليم المنصوصة.

"ملذات الحياة لدى الرجال مقود إلى هلاكهم وأمضى سلاح لإلهاء وإخضاع كل جبار وعزله عن الخاص والعام" ليغرق رويدا رويدا فيما حوله.. وهكذا نجحت سيدتي بإبعاده وعزله عما يدور من حوله.

يوما بعد يوم كانت تخطو بثبات نحو السلطنة.. مطلقة شائعة جديدة أن المكرم مصاب بمرض عضال يشتد عليه بين يوم وآخر.. أعقبتها بشائعة أخرى: نصحه الحكماء بالراحة لبعض الوقت.. والتخفيف من ضغوط الدولة.

مع مرور الوقت جلبت المزيد من الصبايا ذوات الحسن والفتنة..وابتدعت

.....

وجدت نفسي متعاطفا مع تلك الاحتجاجات .. وكل من حولي معها عدى قلة قليلة. ظنناهم مخبرين.

تحدثت الصحف في الأيام اللاحقة عن تطورات خطيرة، واعتصامات كبيرة أمام جامعة صنعاء تطالب بإسقاط النظام.. كما نادت تحالفات منظمات حقوقية برحيل رئيس البلاد.. متوجهة في نهاية كل مسيراتها إلى السفارة التونسية لتسليم بيان تضامني مع ثورة الشعب التونسي، أعقبها اعتقالات عدد من النشطاء والمتظاهرين وزجهم في سجون الأمن المركزي.

نظاما جديدا لتربيتهن وتدريبهن على فنون الإغواء ورقَّة الطبع.. كما زادت من تعليمهن فنون الأدب والتفقه بالدين.. كما اهتمت بمعارف ما يعجب الرجال من الجواري في الفراش.

-٢١-

أمسى المكرم يعيش حياة جديدة.. غارقا في الملذات.. وإن عاودته نوبات صحو حاول خلالها استعادة دوره.. لكنها سريعا ما تعيده إلى أحضان جواريها وغلمانها المدربين على إشعال الغرائز الدفينة. أخذت البلاد تخضع لسلطانها.. عدا السلطان سبأ الصليحي الذي ظل يقاوم اتساع سلطانها.. بل وأخذ في تحريض قادة بعض القلاع وحصون البلاد المحيطة بصنعاء عليها.. ما مثل قلقا دائماً لها.

السلطان سبأ الصليحي صاحب حصن أشيح.. وصاحب السطوة على كثير من أمراء القلاع والحصون.. كما أنه من أفضل قادة الملك المكرم. يشار بفضله إخضاع العتاة من الأمراء.. وقد عبر الملك في أكثر من مناسبة أن خليفته هو السلطان سبأ.. حيث امتازت علاقته بالمكرم بالاستقرار والثقة على مدى سنوات طويلة.

زاد نفوذ الحرة سيدة.. وزاد عداء السلطان سبأ لها.. بل إنه أخذ يهدد بدخول صنعاء.. لتلهمها إحدى تعاليم الملكة أسماء: "إذا ضاق عليك الخناق.. ولم تجدي علاجاً لحائل يقف بينك وبين المضي في تحقيق هدفك سارعي بتغيير مقر سلطانك.. ولنا في رسول الهدى أسوة حسنة.. لتنطلقي في مد سلطانك من مدينة تخصك".. ولذلك أخذت تقلب الأفكار حول تغيير مركز الحكم.. مستعرضة أنحاء جزيرة اليمن.. لتفضل اليمن الأسفل. أطلقت سلاح الشائعات حول استفحال مرض الملك.. ونصيحة الأطباء نقله إلى منطقة دافئة بعيدا عن برد الجبال العالية.. حتى يعود لبدنه عافيته.. ثم أخذت تعد العدة لإعلان البلاد الذي نصح الحكماء للانتقال بالملك إليها.. مستدعية باسمه وجهاء وقادة مناطق مختلفة من أنحاء اليمن مظهرة أنه يستشيرهم في الأمر.. وكان أول من وصلوا وجهاء المناطق الجبلية المحيطة بصنعاء إلى ساحة القلعة شاهرين سيوفهم ورماحهم

وفؤوسهم.. طالبين العطايا.. مقدمين أنفسهم لمحاربة أعدائه.. أعقبهم وصول وجهاء المناطق وقادة بلاد اليمن الأسفل.. حاملين هداياهم من جرار العسل والسمن.. يجرون دوابهم المحملة بالبن والحبوب. ثم بلاد تهامة . لتختتم شائعاتها بأنه في بداية الأمر احتار.. ليستشير زوجته الحرة سيدة التي أشارت عليه بالقول: "العيش بين سكان اليمن الأسفل أفضل.. لأن ذلك أقر للمملكة وثبوت قواعدها.. وأسهل جانبا في مصادر الأمور ومواردها.. وهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل وبها يخصب العيش ويطيب المحل". وهكذا انطلقت الأخبار حول رغبة الملك المكرم الرحيل جنوبا. وكانت سيدتي الحرة قد أعلنت باسم الملك أحد مستشاريها المقربين واليا لها على صنعاء حتى تقطع الطريق على السلطان سبأ من الوثوب والسيطرة على المدينة بعد الرحيل.

وكما كتبت في رسالة سابقة حول ذلك الصباح الماطر.. حين خرجت صنعاء لوداع الملك الذي كان يجهل ما يدور حوله.. بعد أن أقنعته زوجته أن يخرج في رحلة استشفاء إلى حمام بلاد آنس لعدة أيام ومن ثم يعودا صنعاء. وبالفعل تصل به وادي الحمام.. ويقضي فيه عدة أيام.. ليتوجه الركب بعد ذلك جنوبا. مخلفا جثتي جاريتين في أحد أحواض المياه الدافئة.. وأشيع بأن الوفاة غرقا. إلا أن الحقيقة أنهما حاولتا تنبيه الملك بما يدور. وكان عقابهما مؤشراً لمن تفكر بالشذوذ عن طاعة سيدتي.. تلك الحادثة تركت لدى جميع الجواري رعبا يسكن أضلاعهن. ولذلك ذكرني موت جارية الأمس القريب بجاريتي حمام آنس. فقد تعود جميع من بداخل القصر أن تختفي بعض الجواري بين فينة وأخرى.. نتيجة زلة أو وشاية.. إذ إن سيدتي لا تحبذ تخصيص حبس لمن تخطئ.. وكأن الموت أهون عقاب. لذلك أصبت بشعور مرير لعدة أسابيع.. لم أستطع الرد على رسالتك.. خلالها كنت أحاول الخروج من حزني وخوفي ليعيدني تصوري وقد وقعت أنا أو أنت في نفس المصير.. فلا نجد من يحزن علينا.. أو يفتقدنا.. ولذلك أكرر عليك توخي الحذر من تواصلنا فقد تكون نهايتنا بسبب وشاية من هنا أو هناك.. وأرجو حين تشك في شيء توقف عن الكتابة إليّ. أتركك في رعاية خالق السموات والأرض رب الثقلين".

في صباح ذلك اليوم جلست إلى دخان ذي الساق.. حتى رأيت نفسي أضحك كثيراً.. ما إن أقفل بابي علي .. حتى اتجهت إلى غرفتها.. لا أعرف هل كتبت إليها جواباً.. فقد وجدت نفسي راكعاً أمام نقشها أناجيها: لست متأكدا مما ذكرتِ.. وغير مستوعب كل تلك الحكايات التي تسردينها في رسائلك.. لكن ما يهمني أنت. وإن كان فهي حياة يجب أن نعيش لحظاتها.. ونقبل عليها.. فماذا أقول وأنا حبيس داري منذ وفدت؟ دعينا من مبررات تأخير ردك. ها أناذا أذكرك بما كتبت لك في جواباتي السابقة.. وقد كتبت كلما يذكِّرك.. ومن أجل أن تزيلي حيرتي.. أسألك: لماذا لا تجيبين على ما أطرح من أسئلة؟ ألا تكفي كل تلك الأحداث التي كررت ذكرها؟ ولا أعرف لماذا تحبين الإمعان في الذهاب بعيدا فيما تكتبين؟ وكأن ما كتبته لك لا يعنيك.. فإلى متى تظلين مصرة على نكران ذاتك؟ ولماذا تفضلين سلوك طرق تخويفي؟. أدعوك لأن تتوقفي عن الكتابة وأن نلتقي مرة واحدة.. لتنظري في عيني.. وتسمعي نبض قلبي.. ولحظتها أستنشق رائحتك.. وأبوح لك بمجاهل إحساسي.. حينها سينجلي كل شيء.. فهل تمنحيني فرصة واحدة ليتبين الخيط الأبيض من الرمادي؟.. مللت من رسائلك.. ومن

.....

في أربعاء لاحق سألني ضابط التحقيقات.

- ما رأيك بأخبار ثورات الربيع العربي؟

- أتابعها باهتمام.

ابتسم ابتسامة لم أفهم معناها. ليفتح بسؤاله أحاديث لاحقة كما لو كنا أصدقاء.. وإن ظل حقد يسكن نفسي على ما أقترفه في حقي من قسوة.. رغم محاولاته الاعتذار لي بصورة غير مباشرة.. متحدثا عن نقمته وعدم رضاه مما يدور في البلاد من مفاسد.. وأن ما يقوم به في عمله "لقمة عيش" وفي أوقات كثيرة غير راضٍ عن نفسه.. ودوما يتوق لتغيير يقتلع كل الفاسدين.. مستشهدا بتلك التجارة المحرمة التي يمارسها بعض رموز السلطة من تهريب للمخطوطات والتماثيل الأثرية.. هامسا لي أن الرجل الأول في التوجيه المعنوي يمتلك صناديق من المخطوطات النادرة والتماثيل والتحف الأثرية.. وأنه يوفر للرئيس ما يطلب من تماثيل وتحف لإهدائها لبعض القادة من ملوك ورؤساء.

مبررات تهربك.. ومن نكران ذاتك. سأنتظر تحديد الزمان والمكان منك.. في انتظارك دوما.

ظللت راكعا.. حين لمحتها تحرك كفيها على الجدار.. صمتُّ ولم أواصل حديثي إليها.. كما لو حركت عينيها باتجاه عيني .. بقيت أنتظر بفارغ الصبر.. لأرى ابتسامة تخرج من شفتيها. سمعت صوتها الذي أُميزه.. تنظرين إلي: بداية أسمي عليك العظيم وأصلي وأسلم على رسوله الكريم.. وآله الطيبين الطاهرين.

منذ دخلت هذا الدار أسمعك تود مقابلتي.. فكيف ذلك وأنا بين يديك أراقصك وأسمعك.. تتهمني وتكرر إنكاري لنفسي.. وتغيير أسمائي. وأجزم بأنك تعيش وهماً كبيراً.. وأخاف أن يقودك ذلك إلى الجنون.. فما يهمك من أكون! تعال كما يأتي الذكر بشوقه لأنثى..تعال إلي يقودك قلبك.

تشكو أن نتقابل .. بل أقول اسكن أضلعي ولا تدمن الشكوى.. فأنت لا تعرف أني نبذت كل من في القصر وسكنت إليك.. كف عن تذمرك وابتعد عن التشاؤم.. ولا أقبل حتى أن تشكوني إلى نفسي.. وتتهمني بالذهاب بعيدا في حديثي إليك.. هذه أنا بين يديك.. لا يهم من أكون. تعال لنعيش كما يعيش ذكر وأنثى.. أناجيك.. وتهمني سعادتك.. تلك رغبتك في معرفة ما يدور خلف جدران القصر. وأنت ناسخ رسائل الملكة.. عليك أن تعرف كل شيء مما تنسخ .. ولا تمل إن حكيت لك ما يقربك ويعرفك إلى طبيعة ما أعيشه.. ربما يزيدك ذلك إحساسا بمودتي تجاهك. وتدرك بأننا في حيز من هذه الحياة يتربص بنا الموت لأصغر زلة. ولو لم أكن صادقة لما جازفت.. وأننا نعايش ذلك الكائن المجهول ولا ندركه إلا بضحاياه.. فلا نعرف من التالي. سأذهب بك قليلا كما تشكو.. أحدثك عن تلك العلاقة بين الملك وزوجته بعد استقرارهما في ذي جبلة. وأعود بداية إلى إحدى الليالي التي طلب المكرم زوجته الحرة إلى مخدعه.. وهذه هي المرة الأولى التي يريدها للفرش منذ سنوات طوال.. كان الأمر غريبا حين رأيناها تنظر إليه مبهورة كمن أخطأ في حقها بطلبه ذلك.. تنقل ناظريها بينه وبين من حولهما جوار وغلمان.. كما لو كان بطلبه ذاك قد أهانها. لترفض طلبه بغضب.. رافعة صوتها:

- إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر الحكم.. فدعني وما أنا بصدده.

كمن تيقن من وساوس تراوده.. مقتربا منها هامسا بتهكم:

- أيعقل أن تعيش امرأة كل هذه السنوات بعيدا عن متع الفراش.. وأنا من خبرتك أرق الإناث.

علا صوتها أكثر.. مستنكرة ما يرمي إليه.

- أنا غير كل النساء.

رد ساخرا:

- لا يمكن ذلك حتى للأنبياء والأولياء!

ثم أخذ يدور حولها عدة دورات ناظرا إليها بتهكم.. وبصوت حازم: إياك والاعتقاد بأنك وصلت إلى ما وصلتِ إليه من سلطان بقدرتك.. اعلمي أن كل ذلك برضاي.. وهذه الليلة آن لك أن تسيري إلى الفراش صاغرة وإلا فستفقدين كل شيء.

لم ترد على تهديده.. بل تركته ومضت مبتعدة صوب جناحها.. وقف ثائرا من جديد متهما إياها بعصيانه. آمرا من حوله من غلمان وجواري بسحبها وإيداعها إحدى الدور المتصلة بالقصر.. وإحكام الحراسة حولها. بعد ذلك خيم الذعر في أرجاء القصر.. بعد أن استعاد هيبته وأحكم سيطرته. لم يدم حبسها غير عدة أيام.. خرجت بفضل دهاء جواريها.. بعد استمالة بعض غلمانه وجواريه.. ولم ينتهِ الأمر بخروجها.. بل انقلب الأمر داخل القصر وأمسى سيدي المكرم محجوزا بحراسة من أخلص جواريها في جناحه.

تصاعد بعض الهمس حول اختفاء بعض جواريها.. وعدد من غلمان وجواري المكرم .. وقليل من الهمس بأن تلك الأرواح قد صعدت لباريها.. عقابا لتواطؤ أو إهمال.. أو خيانة بينة.

أحدثك عن حقيقة يجهلها جميع من خارج القصر.. قد يتسرب بعضها.. لكن تسريبها لا يكون في العادة إلا بما يضاعف تعاظم سلطان سيدتي الحرة سيدة.. ضمن شائعات تشاع بمعرفتها.. وقد لا تتوالى الأحداث ولا يعرف الناس إلا الظاهر منها.. وأشعر بتساؤلك حول ضرورة ما أذكره لك.. وأود إخبارك كونك جزءاً من هذا المحيط.. ثم لأعبر لك عن مودتي .. وحتى تتجنب مزالق الخطر.

لم تكتفِ سيدتي بحجز الملك في جناحه وعزله عن الحياة.. فبعد أشهر قليلة.. رتبت لنقله وهو فاقد الوعي. حدث ذلك في الأيام الأولى لوصولك ذي جبلة.. حيث أخرجته في موكب عظيم. وبذلك انتقل إلى حبس استمر حتى رحيله.

وكي تذر الرماد على العيون وجهت سيدتي الدعوة لأمراء ووجهاء قبائل المناطق المجاورة لمرافقة الملك في صعوده إلى الحصن.. ليشاع بين الجموع أن الحكماء نصحو الملك بقضاء أشهر الصيف.. أعلى حصن التعكَر لاعتدال جوه بعد أن أشتد المرض عليه. كما أشاعت بأن الملك فوضها قبل صعوده تفويضا كاملا بأمور إدارة الدولة حتى يعود.

في ذلك الصباح خرج هودجه المحمول على جملين.. والمزين كأجمل هوادج الملوك.. تحيطه الخيالات من جواريها.. بينما كانت سيدتي تتابع لحظات خروج الموكب وصعوده بعيون دامعة.. تتأمل الجموع الملبية لدعوتها من نواحي المخلاف.. وحصن حب والسحول.. وقلاع الثجة ونخلان.. ومن حصون حب والشعر وخدد وثومان.. وجبل العود والدملوة وسمدان وصيد. لتزدحم ساحات ذي جبلة بالوافدين لمرافقة صعود الملك إلى حصن التعكر.. حرصت جواريها عدم اقتراب أي كائن منه. بحُجَّة حالته المرضية. تتابع تراص القبائل أمام الموكب ينشدون زواملهم الحربية.. مخترقين أحراش الغابة حتى أعلى الجبل المطل على جبلة.

ليبدأ عهد جديد على ذي جبلة.. حيث أخرجت بقايا حراسه ووزعت على أبراج الحراسة من جواريها.. وكذلك نقلت من تبقى من غلمانه إلى أحد الدور المجاورة.. ومنعت دخول أي رجل أبواب القصر إلا بإذن منها.

ليصبح قصر العز بذي جبلة قصرا للجواري. لتعيد توزيع وترتيب أدوار القصر المتعددة وملحقاته من دور.. بحيث خصصت الأدوار العلوية لها ولأبنائها وما تبقى من أدوار لجواريها.. وما خصص كقاعات للصلوات وقاعات أخرى للدرس والتدريب.. وقاعات لمنامات الجواري وهكذا بقية الدور الملحقة وأدوار القصر. موزعة أوقاتها بين الإشراف على برنامج الجواري.. واستقبال الرسائل من نواحي المملكة.. وتوجيه الردود عليها.. وصياغة الأوامر باسم الملك.. تحضر قاعة درس الجواري الليلية تلقي درسها. تعلمهن أن شرف الجارية يتركز في طاعتها لمشيئة سيدتها.. وأن سيدتها بمثابة ربها الأدنى.. وأننا غير كل نساء الدنيا.. فجميع الجواري يعشن دون هدف.. أما جواري قصر ذي جبلة فيعشن بهدف عبادة الله.. وخدمة أولي الأمر وحماية جزيرة اليمن. وكثيرا ما تردد في درسها أن النساء أعلى مكانة بما خصهن الله من خصائص العطاء.. مذكرة أن النساء كُنَّ ملكات.. بل وبعضهن آلهة للخصب والعطاء. وأن الرجل ظل روحا للتسلط والحروب.

وما تحرص في دروسها على التذكير بأوامر الله في ما يخص الطاعة والإخلاص.. كما تذكرنا بأن جميع من في القصر لهم حياة وغاية واحدة.. تنفيذ إرادة الله ببسط السلام والأمان بين خلقه.. وترسيخ الحق المتمثل في شريعته وسنة رسوله الكريم. وعادة ما يعقب الدرس صلوات ليلية طويلة.

أود أن تعي بأني أودك وأخاف عليك وأتوق يوما أن يجمعنا الله في حياة هانئة.. لذلك أريدك أن تقبل عليَّ.. هذه أنا أقف ناظرة إليك.. أنتظر نهوضك لتعانقني.. تراقصني تهامسني.. ودعك من أكون.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا راكع.. كنت بين الصحو والمنام .. فكلما حاولت مقاطعتها ترفع كفها متحدثة.. تسير بي بعيدا لتختم كلامها

.....

كانت أحاديثه حول الفساد.. تخيفني غير مصدق أن من يحدثني هو المحقق ذاته الذي كان يأمر جنوده بإعطائي دوش بعد كل تحقيق. كلماته تدفعني للمزيد من المتابعة لما يدور في اليمن وما يدور خارجها.. بعدها بدأت بالتواصل مع بعض معارفي وأصدقائي خارج السجن سائلا عن حقيقة ما يدور خارج السجن.. فكانت الأخبار تتوارد بأنها ثورة عارمة ضد النظام تعم شوارع صنعاء.. والمدن اليمنية.

بدعوتي لأن أعيشها.

نهضت وقد تلاشى صوتها.. وتلك صورتها على الجدار دون حركة.. لكنها تركت باب الأمل مشرعاً. وقد كررت كلمات المودة وعبرت عن عاطفتها في كلمات قليلة: "أن تعي بأني أودك وأخاف عليك وأتوق يوما أن يجمعنا الله في حياة هانئة".. تلك الكلمات ما أسعدني منها.. إلا أن ما يلفت تسلط الضوء على ما خلف تلك الجدران.. بل وتجعلني في موقع المطلع لحقيقة ما يجري. ومنذ ذلك النهار أصبحت أنتظر المزيد بشوق وخوف.

لم أعد أفرق بين رسائلها .. وتلك اللحظات التي أبوح إليها راكعاً.. ثم أستمع إليها في سكون أشعره يتسرب إلى كياني.. ما أسعدني بتلك اللحظات.. فماذا لو كانت غير شوذب. لا يمكن ذلك.. فقلبي دليلي.

-٢٣-

بعد صباح منتش بدخان ذي الساق.. كررت دخولي غرفتها.. ركعت مناجيا لها:

دعيني ويقيني.. فقد أصبحت أنتظر حكاياتك وأتشوق إليها.. وسعيد بأنك تفكرين بدعوتي إليك.. كلماتك تساعدني على فك شعور الحبس وما أعاني من اختناق.. بل إن حكاياتك تجعلني أراك وأحس بتحركك على هذه الجدران.. وبذلك يزداد يقيني أن المحب شهيد حي.. شهيد روح لا تموت. قد يهمني مصير من ذكرتِ من جوار وعسكر. من انتهت حياتهم لمجرد زلة أو وشاية.. فتلك الحكايات التي تطرحينها تزيدني رغبة في الحياة معك.. بل وأن تفكري بأن نرحل بعيدا.. أنا على يقين أن من يموت في سبيل عمل آمن به فهو في مراتب العظماء.

فقط أستغرب لتعدد أوجه الفناء.. كثيرا ما قرأنا في القرآن أن لله أسماء وأوجه عدة.. وحين تقرأين التوراة ترين مقدار التناقض لكنهم يقرون بتعدد

.....

وقبل أن أتجرأ وأطلب من ذلك الضابط أن يرد نسخة حكايات جوذر التي أخذها من سكني.. فجأة توقف عن إرسال جنوده لاصطحابي إلى تحقيقات الأربعاء.. سألت عنه فقيل لي بأنه ومجموعة من الضباط أعلنوا انضمامهم إلى صفوف الثورة! ولم يعد يحضر في مقر عمله.

أوجهه. وهكذا لمولاتي الحرة أكثر من وجه وتلك نزعات ربوبية.. فأنا لو حدثت الناس عن ماهية هذا الكائن الغريب لقتلوني.. كما أن لمولاي المكرم أوجه تخصه.. ولذلك الشاعر المستشار اليامي من اقتادني إلى ذي جبلة.. وللحارس ذي الساق الخشبية.. أيضا لك أنت أوجهك! لكل شيء هنا أكثر من وجه. لم أعد قادرا الاستيعاب والتمييز. يظل أملي الوحيد أن تعترفي لي.. ولا أظن أن نفر بعيداً.. ستسمعينني وأسمعك كثيرا.. أن تزيلي هذا اللبس اليقيني أو تؤكديه.. لا تهمني النتائج.. ولا أشغل نفسي بالغد إلا أن يكون شوذب.. فهذا أنا أسير محبسي.. وإن فكرت بالهرب دونك فأنت قبلتي.. ومحور الحقيقة هو أنت.

أنتظر أن تهبطي لنهرب بعيداً.. وبعدها تقررين .. أن ألمس بأني لا أسير خلف سراب.. وأنك لستِ وَهْماً.. وحينها سأتيقن مما أنتِ عليه.

ظللت راكعاً مر وقت لم أرها تتحرك.. في صباح اليوم التالي ركعت أما نقشها.. أنظر في عينيها.. وتوالت الصباحات دون أن تعود إليَّ.. مرت الأسابيع.. وكرت الشهور دون أمل.. جالستني حيرة قبيحة. قد أكون أعيش وهماً..أو أنه دخان ذي الساق! أو أكون أسأت دون أن أدرك فخاصمتني.. حاولت تذكُر صوتها.

فكرت اللجوء لذي الساق الخشبية.. أن أستغل ثرثرته الصباحية.. أن أعرف منه تأثير ذلك التنباك..لأعرف إن كنت أعيش الوهم.. أم هي الحقيقة.. ليتضح لي بأن هناك أنواع من التنباك.. استنتجت بأنه يريد الإيقاع بي من خلال ذلك الدخان.. وينتظر ثرثرتي.. أن وجها أخفيته منذ زمن. ليمكن أن أسمح له باكتشافه.

سألته إن كان من حدث قد حصل خلف الجدران.. أو أن جارية قد ماتت؟ واظبت الجلوس مستمعا إليه.. أشاركه أغصان قاته نمضغها معا.. إلا أني أبتعد عن دخان يراعه.. أتحايل على طرح سؤال وأخشى أن يثير حفيظته.. أتراجع خوفا.. أصبحنا نحكي كثيرا ونعرف أننا نختلق حكايات لا تمت إلينا في شيء.. نضحك كثيرا لتلك الحكايات التي يتمنى كل منا لو عاشها. يسألني أن أقسم بصدق ما أحكيه حين تعجبه إحداها.. فأضحك

كثيرا.. وأطلب منه أن يقسم هو الآخر.. ينظر إلي هازا رأسه ثم يفتح فمه الخالي إلا من نثارة القات.. يضحك عاليا. نكمل تلك اللحظات.. ثم يقفل بابه عليَّ ولا أدري إلى أين يمضي؟

صباحاً بعد آخر أحاول تجاوز شرنقة الكذب.. أن أعرف منه عن خبر يشفي قلبي.. أن يحدثني عما يدور خلف الجدران.. عن حياة الجواري.. أبحث عما يدفعه للحديث إلي بصدق.. أن أصل إلى ما يدلني على مصير شوذب. لماذا اختفت رسائلها؟ ألوم نفسي لعجز حيلتي في استدراجه للحديث.

إلى ذلك الصباح حين تجرأت وسألته أن يصِل رسالة مني إلى المستشار اليامي.. تأملني مبتسما وقال: عملي هو فتح بابك وإغلاقه لا علاقة لي بأحد ولا بالقزم مستشار سيدتي الحرة. وحضرة المستشار أيضا لا يتصرف إلا بأمرها! فلا شاردة ولا واردة إلا وتصلها. وجميع الجواري وغيرهن لا يجوز لهن التواصل أو اللقاء بأي كائن إلا إذا أمرت.

زادني ذو الساق خوفا.. وهو يصف مقدار سيطرة الحرة سيدة على كل صغيرة وكبيرة.. ومن جانب آخر أضاء لي بعض الغموض.. ليبرز سؤال اللحظة: لماذا كل هذا؟ أم أن ما سرده لي كعادته ادعاء وزيف؟

أستغل شطراً من ليلي بالبحث عما يدلني على منفذ يمكنني التسلل.. أتسلل حول تلك الجدران الباردة.. وبعد أن أكمل أزحف مبتعدا نحو أطراف الغابة.. أتسلق الصخرة الكبيرة.. كل شيء صامت.. أقضي شطراً من الليل متأملا سكون الكون.. ثم أعود متسلقا حيرتي إلى سكني. ألجُ غرفتها.. أجالسها معاتبا وقد تركتُ ألواني وأهملت يراعي في عتابٍ لها.

.....

كنت حزينا لضياع نسختي من حكايات جوذر .. أتابع أخبار اتساع نطاق الغضب الشعبي لتشمل كافة أنحاء الجمهورية.. وأمست كبرى الميادين والشوارع في المدن مقاراً لتجمع الإعتصامات الغاضبة وانطلاق المسيرات المطالبة بإسقاط النظام. لتتسع المواجهات بين السلطة والشعب.. وتبدأ الأخبار عن سقوط أعدد كبيرة من القتلى والجرحى .

صباحات دون هطول لفافتها صباحات برائحة الموت.. أوزع نهاري بين كتابة ما أكلف به والثرثرة مع ذي الساق.. والنوم حتى قدوم الليل.. ثم أخرج متسللاً. أستلقي على صخرتي.. أراقب السماء في تجهم ظلمتها.. على تلك الصخرة أقضي شطراً من ليلي أنصت لحركات كائنات الأحراش.. أنين أدغال الغابة.. تسحرني الليالي الصافية بنثارة نجومها.. أحس أن وميضها لغة لا تفهمها إلا هي.. طوال الوقت في منادمة لامعة.. مع بهاء الليالي المقمرة يزداد جلال كتلة مباني القصر وملحقاته.

حيث تحتويه غلالة نورانية.. بروز القصر من وسطها ككائن يهم السير بعيدا عما حوله.. وتلك الأبراج المتقاطرة على شفاه الجروف والوديان تسير خلفه.

إلى إحدى الليالي لاحظت أضواء غير معتادة من نوافذ القصر.. سارعت بالعودة.. ففي الوقت الذي كنت ألتقط أنفاسي بعد تسلقي نافذتي.. وإذا بالباب العلوي يفتح في غير موعده.. ظننت بأني واهم.. لكنها جلبتهن المعتادة ليتسرب ضوء وأرى عدة جوار يهبطن الدرجات القليلة. قالت إحداهن: تأمرك سيدتي سرعة إنجاز نسخ هذه الرسالة. وهي تمد إلي برقيقة.. قلبتها.. آخذا بقراءتها.. كانت موجهة من مولاتي سيدة إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله في القاهرة تعزيه بوفاة الملك المكرم.. متوسلة تنصيب ابنه علي خلفاً لأبيه. عدت أقلب وجهي في وجوههن مستفسرا دون أي كلمة.. أعقبت إحداهن: كما أمرتنا ألا نبرح حتى تكمل نسخها لنعود بها.

لم يكن الباب العلوي قد فُتح ليلا.. ولم يهبط منه أحد ليلا. بدأت بالنسخ وقلبي يستعيد إيقاعه.. محاولا إتقان نقش حروفها.. مر وقت حتى أنني نسيتُ من حولي.. ولم يتسرب وهج الفجر حتى أتممت نسخها رغم طولها.

أصابني الحزن لوفاة الملك. فتح ذو الساق الخشبية الباب السفلي. حدثته عن موت الملك.. ليعنفني ناكرا موته.. طالبا مني أن أصطنع ما أردت من حكايات دون تجاوز المقامات. يقفل الباب غاضبا كما لم أره من قبل. كنت

في ترقب لما يحدث. لكنه النهار يمر دون ضجيج الموتى. لعدة صباحات لم تهبط جواري البريد.. ما زادني حيرة فوق حيرتي.

-٢٤-

مضت ليالٍ وأنا في حيرة حتى هبط عدد كبير من الجواري في ليلة لاحقة.. حاملات لفائف وأدوات الكتابة. وجوار ظل حيرتي وقفت إحداهن توزع مهامهن.. محددة أماكن جلوسهن.. لنستمر جميعنا طوال تلك الليلة بنسخ رسائل إلى سلاطين وقادة ودعاة ووجهاء اليمن في وفاة الملك المكرم. "بسم الله الرحمن الرحيم والحمدلله القديم القدير الرحمن الرحيم المبدء البديع القوي الرفيع الفرد الأحد العزيز الصمد الذي جل أن تدركه الظنون.. وعلى أن يبلغ أدنى صفاته الواصفون بالإلوهية لنفسه وملائكته المقربين.. مبطل دعوة المشركين.. بقوله الذي عجز عن الإتيان بمثله القائلون (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) قاصم كل جبار عنيد وقامع كل شيطان مريد وبالغ كل ذي أيد شديد.. الذي لم يبتل أولياءه بما ابتلاهم تعنتا ولا هضما بل اختبارا.. وإن كان قد أحاط بكل شيء علما ووسع أعداء دينه أناة وحلما.. ليحتقبوا بالاستدراج حوبا وإثما.. كما قال جل وعلا تباركت أسماؤه: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) وسلام الله وصلواته وبركاته الطيبات وتحياته على ينبوع العلم والحكمة وولي الإحسان والنعمة.. ووارث الأنبياء والأئمة.. المفترض طاعته على الأمة.. باب العصمة المقصود.. ومنهل الرحمة المورود.. ومطلب الفوز

.....

مرت أيام طويلة منذ اختفاء الضابط الشاب.. لنفاجأ به ومجموعة من رفاقه في أحد الأيام يفتحون أبواب السجن داعيين الجميع للخروج.. ساد ارتباك وصخب غير مصدقين ما يدور.. قال لي بأنهم سيذهبون بنا إلى ساحة الإعتصامات لنعلن انضمامنا إلى صفوف الثورة. خرجنا ننتظر الرصاص تحصد أرواحنا.. لم يكن من أحد غيرنا وذلك الضابط ورفاق له.. نسمع ضجيج يتعالى من خلف الأسوار.. تجاوزنا ساحة السجن حتى البوابة الخارجية.. غير مصدقين أننا طلقاء نسير في شوارع صنعاء.. شارع العدل المؤدي إلى ساحة الاعتصام "التغيير" اقتربنا لنسمع صدى الهتافات.. هرولنا بفرح غامر حتى وصلنا أطرافها.. لنردد بعد ذلك الضابط الشاب" الشعب يريد إسقاط النظام".

الموجود.. ومعدن الفضل والجود.. وحبل النجاة الممدود.. وسدر الهداية المخضود.. وبيته الذي أوحى فيه إلى والد ومولود... سيدنا... أمير المؤمنين المستنصر بالله رب العالمين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين معالم الإيمان ومعادن البيان... المملوكة تناجي حضرة الإمامة وتناهي سدة الخلافة جعل الله عزهما باقيا على الأيام... وتنعي إليكم الأجل الأوحد المنصور العادل المكرم عمدة الخلافة تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين..."

نسخنا ما علينا نسخه طوال ثلاثة أيام.. ليحملها السعاة إلى أنحاء البلاد دعوة لحضور تشييع الملك المكرم إلى مثواه الأخير. لم أعد أستوعب ما يدور.. كيف يموت الملك مرتين. لكني تأكدت هذه المرة بأن المسألة جادة.. فقد اشتعلت قمم الجبال بنيرانها وأسطح القلاع والحصون.. لتنقل خبر وفاة الملك لعدة ليال تالية. وهذه عادة متبعة حين يتوفى عظيم قوم.

مضت الأيام ثقيلة بعد رحيل الملك.. أنستني تلك الأحداث التفكير بشوذب وعدم رجوع لفافتها.. وإن ركنت إلى غرفتها أقضي ليالي في إتمام نقشها.. ليستقر يقيني بأنها دفعت ثمن زلة لم تحسب حسابها. وليلة بعد ليلة بدأت فكرة الهروب تراودني.. أن أتسلل خارجا ولا أعود.. فلم يعد ما يبقيني. ثم يحاصرني التردد والأمل بوجودها حية.. وما كان يزيدني حيرة أن أرحل دون معرفة مصيرها.

إلى صباح لم تصدق عيناي ما تراه.. غمرتني رعشة لذيذة.. ما إن انصرفن حتى تركتُ لدمعي أن يفيض لرؤية تلك اللفافة.. لم أتماسك من الفرحة.. ما بين يدي تساقط أرضاً.. وأنا أجهش باكيا.

" شكري لمولى النعم.. من له الفضل عظيم الشأن ربي خالقي وخالقك وخالق الأكوان .. وحبا في أطهر خلق لله النبي الأمي أطهر ولد عدنان.. وصلاة على آله الأطهار وأئمته الأخيار.

سلام عليك من قلب مزقه الوجد وأضناه البعاد.

لا أعرف من أين أبدأ بعد غياب أشهر طويلة؟ أكثر من سنة أحملك معي وأذكر الله وأدعوه ألا يحرمني منك .. وأحلف بالله العظيم بأني كنت أموت كل يوم خوفا من أن تكتب إليَّ فتقع رسالتك بين أيديهن.. أو أن تعييك الحيلة فترتكب خطأ يكون فيه نهايتنا.. وظللت أترقب وأتوجس إلى أن عدت من غيبتي لأكتب لك في أمان.

حملت عذابك حتى أنه كان يأكل ويشرب معي.. بل إني جلست إلى نفسي في كثير من المرات دامعة العين . وعليك أن تعلم بأن سبب انقطاعي هو انتقالي بأمر سيدتي إلى حصن التعكَر. فبعد مرور فترة من صعود الملك إلى حصن التعكَر.. غرق في ملذات لا تنتهي.. فلا يصحو إلا ليغرق من جديد في نشوته وملذاته.. وبذلك استمرت سيدتي في بسط سلطانها دون قلق.. إلى أن فاجأتها أخبار هجر الملك للشراب والملذات.. طاردا جميع الجواري والغلمان من مجلسه.. كما تأكدت بأنه يقضي جل وقته في الصلوات .. ويصوم جل أيام الأسبوع. أصابت تلك الأخبار مولاتي بالحيرة.. وأخذت بإرسال عدد من جواريها المخلصات لمزيد من المتابعة والرصد. لتصلها أخبار مراسلة سيدي لبعض قادة الحصون ومنهم أبو حمير سبأ الصليحي سلطان حصن أشيح. وهو أكثر من كانت تخشاه.. فقد كان يتحين الفرصة لسلبها ذي جبلة. كما تأكد لها تواطؤ بعض الحراس وبعض الجواري. كما أن الملك اعتمد على حراس من قبله.. ليزداد قلقها.

طلبت مستشارها القزم اليامي ليشير عليها بسرعة إرسال مجموعة من جواريها المخلصات إلى الحصن.. لإصلاح ما أعتور. ولم تتوان سيدتي وسريعا ما أرسلت عدداً من جواريها ممن يُجدن القتال. ليدور قتال عنيف بينهن وحراسة البوابات.. ولم يمر وقت حتى عاد حصن التعكر تحت إرادتها. تلا ذلك تكليف مجموعة من الجواري كنت إحداهن بالصعود للسهر على راحة الملك. قالت لنا: سيدنا ومولانا تكالب عليه المرض وعليكن العناية به ومنعه من أي جهد أو الاتصال بأحد حتى يشفى .

أروقة الحصن وقاعاته صامتة إلا من زقزقة أعشاش العصافير.. كل شيء موحش.. حجرة مؤثثة بسجاد وفراش وثير.. نوافذ ما أن فُتحت حتى

تراقصت ستائرها لصوت الريح.. تحلقنا حول قامته المديدة.. لم يعرنا أي اهتمام.. ولم يكن كما وصفت لنا بأنه مريض فاقد الحركة.

لأشهر عديدة أقمنا على خدمة سيدي المكرم الذي كان يتصرف كما لو أنَّا غير موجودات. يقضي أوقاته في الصلاة وتلاوة القرآن.. لا يتحدث إلى أحد. إلا ذلك المساء حين جمعنا حوله وأخذ يحدثنا عما يجب فعله لإرضاء الله.. بطاعته وتنفيذ ما يأمرنا به. طالبا منا القسم على كتاب الله بألا نبوح لأي كائن بما يحدثنا حوله.. وبدورنا أوصلنا ما دار لسيدتي. ولم يمر نهار اليوم التالي حتى أرسلت حكيمها الذي جمعنا حول فراشه.. وظللنا طوال الليل نهلل بصوت جماعي.. أمرنا ألا نتوقف عن التهليل.. بينما كان يسقيه عقاقير ذا روائح غريبة. وعجبي لطاعة الملك تمدد دون حركة.. مضى الوقت وجدران الحصن تردد صدى أصواتنا. رويدا رويدا أخذ وجهه بالانبعاج.. لترتجف ملامحه.. ويتشطر وجهه.. اتسعت إحدى عينيه بحمرة متجلطة وفم معوج.. ليفقد النطق بعد وقت.. ثم القدرة على الحركة. طوال تلك الليلة تحول إلى مسخ إنسان.. وحين تسلل صوت مؤذن الفجر رقيقا متعبا.. تخيلت سيدتي كعادتها في تلك اللحظات تطيل السجود وهي تتمتم ما يردده صوت مؤذنها حتى ينتهي تجهش باكية متوسلة إلى الله أن يعينها.. ثم تنهض.. ترهف السمع من على أحد نوافذ قصر العز المشرعة باتجاه جبل التعكر.. تنتظر إشارة مع غسق الفجر.

لحظتها رفع الحكيم وجهه ناظراً إلينا كما لو كان في غيبوبة.. مشيرا إلى إحدى الجواري بالبدء في تلاوة سورة ياسين والقرآن الحكيم لنردد بعدها بصوت عال. ثم مضى بخطوات مرتبكة منصرفا.

.....

لم أكن فرحا بتخلصي من السجن بقدر سعادتي بوجودي في ساحة الاعتصام.. وأملي باسترداد نسخة حكايات جوذر من ذلك الضابط.. أصوات تهبط من أعالي السماء.. تردد: ارحل ارحل يافاسد. ارحل ارحل يا جزار .. اقتربنا لنغوص وسط بشر يصرخون بحنجرة واحدة: الشعب يريد إسقاط النظام. ازدحمت الأرصفة والساحات ببشر من كل الأعمار وصفوف خيم متنوعة. منصة تشمخ وسط أمواج حماس متقد.. تصدح مكبرات الصوت بأناشيد حماسية.. الكل يردد"الشعب يريد إسقاط النظام".

ارتفعت نغمات أبواق الحصن.. سافر نفيرها على خيوط الريح.. رددت صداها جبال صيد وحصن ريمان وخدد. ومع انتشار وهج الضوء رُفعت رايات سوداء من على حصن التعكَر.. كما ارتفعت رايات مماثلة على أسطح وأبراج قصر ذي

جبلة "ذي بور" وعلى سواد الدور الملتحمة وأبراج الحراسة.. ظهرت أخاديد الوديان وسفوح الأشجار السوداء.

لم يمر الوقت حتى كانت سيدتي بيننا..عبر سردابها السري.. يتبعها جيش جواريها.. تنظر إلى الجثمان المسجي دامعة العينين. مدت كفها تغمض جفنيه.. ظل نصف وجهه شاخصا بتهتك مفجع. وعينه المتجلطة تنظر الفراغ دامعة قطرة دم.. لم تمكث كثيرا حين عادت هابطة من حيث أتت.

خلال أيام توافد سلاطين وقادة البلاد ووجهاء الدولة.. ليهبطوا به محمولا على الأكتاف.. عبر طرق عالية بعيدا عن ذي جبلة حيث لا مقبرة هناك.. يسيرون باتجاه الجبال الشمالية نحو صنعاء.. ويقال أن سيدتي الحرة سيدة أمرت بعدم دفنه في ذي جبلة. كما يقال أن أمراء وسلاطين اليمن لا يحبذون طريقة سيدتي في إلقاء الموتى في بئر داخل القصر بديلا عن دفنهم!

اعتلت دور القرى المحاذية النائحات وجمهرة من الأطفال. بينما كان الركب يسير عبر مرتفعات حُبيش والسحول بعيدا.. خرج سكان تلك القمم والسفوح يتابعون الموكب الحزين.. خيول وعربات مصندقة تشق خضرة ظلال حصن خدد ثم ترتقي جبل صيد.. لم تصعد شمس ذلك النهار

.....

طُلب منا الصعود وإلقاء كلمات الانضمام للثورة.. صعد أحد الضباط ملقيا كلمات نارية ضد رئيس البلاد والأحزاب.. ثم تكلم أحد الزملاء بحكاية أبكت الجميع: لا أعرف إلا أني سجين منذ أكثر من سنة وأربعة أشهر.. لا أعرف مصير أطفالي وزوجتي بعد أن شردنا الشيخ.. لقد ولدت وولد أبي وجدي في أرض نفلحها منذ مئات السنين.. ولا نعرف وطناً غير قريتنا.. ليأتي شيخنا مطالبا بطردنا وإخلاء منازلنا.. توسلنا إليه أن يتركنا وأطفالنا في بيوتنا لكنه وبوجاهته أنفذ علينا جنود الدولة يهدمون دورنا ويقتادون الكبير.. ويلحقون الصغار.. فرقونا على سجون المحافظات المختلفة.. لم يعد لنا وطن.. لندخل رحلة الشتات والضياع.. وهذا اليوم أنا بينكم ضد النظام الفاسد الذي ينتصر للجلاد على الضحية.. ولا يعير الفقير أي اهتمام ولا يجد من ينصفه.. مختتما: أريد الثورة أن تنصفنا من ظلم الشيخ .

عرشها حتى صعدت الحشود شمالا. تلك الليلة نامت ذي جبلة في سكينة وهدوء غريب.

هبطت ذي جبلة أتتبع أخبارك.. زدت ربي شكرا لحظة عرفت بأنك لا زلت في محبسك تمارس النسخ. وهذه أنا أعرفك سبب انقطاعي عنك.. أكرر الحمد لله على كرمه وجوده.. أستفسرك.. هل حاولت معرفة سبب انقطاعي؟ وهل كتبت شيئاً في غيابي؟ هذه الشهور الطويلة علمتني الكثير.. علمتني أن حال الدنيا لا يستقر.. وأن علينا أن نلزم الهدوء والصمت حين تدور بنا.. وأن نعايش الحذر دوما.. وكما طلبت في رسائلك السابقة أن نلتقي.. أعدك بذلك.. فذلك هو مطلبي.. فقط علينا بالصبر. وعندها سترى من أكون.. وأن كل يقينك وهم. أمر لفت انتباهي في رسالتك وظل عالقاً في ذاكرتي حين ذكرت بأن نلتقي ليلا خارج القصر.. ما ذكرته حيرني إذ كيف تخرج ليلا من محبسك؟ وأصدقك بأني أفكر بعض الأوقات ألا نلتقي حتى يظل يقينك على ما هو.. وحتى لا أفقدك.. أما أنا فأنت يقيني.. ولذلك لا أريد لك مزيداً من المعاناة.. أكرر وأوصيك الحذر.. وأرجو أن تصدق ما ذكرت لك.. أتركك في رعاية المولى عز في علاه وتمجد في كونه ".

-٢٥-

ساءت علاقتي بذي الساق.. يفتح الباب رافضاً مجالسته.. يمكث بعض الوقت معانقاً يراعه.. يقفل الباب صامتاً ويمضي.. تعجبت لانقلابه.. حاولت مناجاته لكنه التزم الصوم. تركت الاقتراب من الباب. أحلم بوفاء من وعدت بلقياها.. أفكر ليل نهار بما سأحدثها؟ أسأل نفسي: لو لم تكن شوذب ماذا سأصنع؟ هل

.....

صعد آخر يحكي حكاية سجنه وثالث ورابع.. وحين جاء دوري تحدثت عن حكاية المخطوطة من بداية فصلي التعسفي وحتى سجني.. حدثتهم عن تهريب المخطوطات.. عن حريق الدار.. وعن شبكات تجارة الكتب المدرسية وشبكات تهريب المخطوطات والآثار والتحف القديمة من تماثيل وأواني ومنحوتات سبأية وحميرية وأوسانية وحضرمية ومعينية.. حدثتهم ثم أجهشت باكيا مما تعرضت له من إهانة في السجن.. صفق الجميع. وهبطت خجلا.

أستسلم للأقدار.. وأترك ذي جبلة؟ لكن يقيني يؤكد لي بأنها هي.. أفكر كثيرا بالأمر ثم أقاوم الإحباط.. لتعاود تلك الأفكار أشرس من ماضيها.. أفكر في كيفية استيعاب ما يكون .. هل تستحق الحياة أن تعاش؟ لكن يقيني يهامسني أنها شوذب.. وإلا لما كانت خاطرت في ظل موت يجالسنا ويتنفس مع تنفسنا.

عاودت كتابة الجواب إليها .. أخبرتها بأني انتظرت لقياها.. معبرا عن شجني ولوعتي.. معاتبا تباطؤها.. وقد طعَّمتُ ما كتبت بأبيات شعر كنت قد حفظتها مما أنسخ.. كتبت عن شوق يقتلني.. وأني سأتوقف عن الكتابة بانتظار موعدها.

لم ترد على جوابي.. لأدخل من جديد في صمت خانق. مضت صباحات كثيرة تصالحت فيها مع ذي الساق.. أدمنت دخانه وأنا أنتظرها.. وبدوره أدمن سرد حكايات غريبة عن بطولات أظنه يحلم لو أنه اجترحها.. لم تعد حكاياته تهمني بقدر ما كنت أستلذ بدخان يراعه. أسحب نفسي بعد أن يقفل الباب.. أدخل غرفتها.. أمسك بريشي وألواني وأستمر في نقش جدرانها.. لم أعد لأعي ما أنقش أو ألون.. فقط أقضي وقتي سارحا في خيالات متداخلة.. يوما بعد يوم أفتش بين اللفائف بكل أمل.. لكنها تمضي تباعا.. أحصي الأيام بصبر وجلد أستغربه على نفسي.

لتفاجئني لفافتها بعد أيام طوال بكلمات لم تشفِ عذابي:

"إنه الله مقدر كل شيء.. نحمده على قدر جلال عظمته.. هو القدير اللطيف بعباده..هو الخالق لكل ما في الكون .. وهو المسير. واعلم أن الرياح قد جرت عكس ما أشتهي.. في الوقت الذي كنت أبحث عن فرصة ألتقي بك.. تأمر سيدتي بانتقالي ومجموعة من الجواري بعد وصول وفد من السلطان سبأ الصليحي الذي يطالب بتنفيذ وصية الملك المكرم.. والقاضية بخلافته على الملك. كنت أظنها أياماً وأعود للقصر.. لكنها سيدتي التي كانت تمتص تذمرهم بدعوتهم للصبر مجزلة لهم العطايا.. بعد أن أحاطتهم بكرم خاص إذ أرسلت ما يسليهم في ليال طوال.

وما كان يغيظها أن الوصية قد نصت على أن يتولى السلطان سبأ وصايته عليها وأولادها. فوق توليه لحكم البلاد. ومع تزايد تذمر الموفدين من طول المكوث التي أخذت تعدهم أسبوعا بعد آخر بكل خير.. موضحة لهم جسامة المهمة ناصحة لهم بعدم التسرع.. مختتمة ردودها عليهم بعبارة "لن تعودوا إلا محملين بما يرضي ويصلح البلاد". لن تستغرب إن قلت لك بأن سيدتي.. كانت تنتظر عودة رسولها مستشارها القزم.. من القاهرة.. فأنت من نسخت رسالة العزاء إلى أمير المؤمنين بوفاة الملك.. وأنت من خطيت تمنيها عليه خلافة ابنها علي لأبيه.. وكان اليامي قد غادر قبيل رحيل سيدي المكرم بأيام. وكان لها ما أرادت.. فبعد مماطلتها للوفد عاد رسولها من مقام أمير المؤمنين حاملا سجلا يعزي فيه الصبي الذي لم يتجاوز الثانية عشر.. ملقبا إياه بسليل الدعوة ونجلها منصبا إياه ملكا خلفا لوالده المكرم.. داعيا الجميع إلى طاعته ومساندته.. مكلفا الحرة والدته بالولاية عليه. ليسمع وفد السلطان سبأ من ينادي في الأسواق بما جاء: "وقد رأى أمير المؤمنين أن يصطنعك ويلحقك برتبة أبيك وينصبك منصبه ويرقى بك درجته... وأقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه برا وبحرا وسهلا ووعرا ونازحا ودانيا وقريبا ونائيا". وبذلك ودعت سيدتي وفد السلطان سبأ محملين بالعطايا وبمنسوخ من سجل أمير المؤمنين إلى حصن أشيح. ولذلك غابت رسائلي عنك.. وهذه أنا أعود.. وأكرر وعدي لك بأن نلتقي قريبا لأحدثك بما لا يحسن كتابته".

أقسم بخالق السموات والأرض بأني احترت في أمري.. فأي امرأة تسكب لك الود وأنت تجاهرها بتكذيبك.. بل أي كائن ذي عقل يقبل بذلك.. لكني أبرر كلما تردده في رسائلك كون الود ضرب من الجنون ولا تنطبق عليه قياسات المنطق المعروفة.. ولذلك دوما ما أفكر في حالتك وحالتي. وكثيرا ما أتصورك ممسوساً.. أو أنك هازئ بما حولك وفيَّ.. أو مخلوق بائس تسكنه الأوهام ؟ لكني أعاود في كل الحالات فأشفق عليك ويزيد ودي أكثر. وأعاود لأجالس نفسي فأجد بأني غير كل النساء.. وأن الأمر بدأ مني.. وأكرر أي قلب يود كائناً دون أن يلتقيه أو يجالسه.. بل ويدعوه بآخر. وأعود فأسأل نفسي: من منا الممسوس.. والواهم.. أو الهازئ؟

وأصدقك القول أن حرفك وتلك النقوش البديعة تجعل ذهني يزيح كل تشوهات تفرضها رسائلك عنك.. وأسأل نفسي على الدوام: أيعقل أن تكون تلك الروح التي تسكنك نقيض جمال ما يصنعه يراعك؟ من يمتلك تلك القدرة المدهشة حد السحر لا يمكن أن يعيش موسوسا.. من يرى ما تصنع يقف منبهرا. وأتصور حين أسمع صوتك في لقائنا القادم أسمع روح ملاك وقلب طفل. أمني نفسي بتأمل عينيك الغائرتين.. أمد يدي لأزيل كتل الشعر حتى أكتشف وجهك.. وأنك ليس وهماً. ومع كل تلك المشاعر التي أحاول جمعها وترتيبها. أتصورك كيف ستنظر إلي حين تراني غير شوذبك؟. ويتزايد إشفاقي عليك إن لم تكن هازئا.. في الوقت الذي أتمنى أن تكون هازئا حتى تتقبل متناقضات الحياة. وعلي أخبارك أني بحثت عمن تبحث عنها بين جواري القصر فلم أجد أحدا يوازي يقينك. حتى شككتني بنفسي.. ماذا لو كنت من تبحث عنها هي أنا كما تدعيه ؟

أن تراني هي ! وأنت تعرف بأن كل جارية في حمى سيدتي يتم تغيير اسمها.. وتدريسها بما يجب عليها فعله حتى تنسلخ من أمسها.. وكل ما يتعلق بها مهما كان صغيرا.. لتنتمي كلياً إلى حياة جديدة محورها سيدتي.. لقد كنت صادقا وأنت تعدد تلك الأسماء.. فبعض الجواري ينسين أسماءهن لكثرة تغييرها.. البعض تتجاوز أسماءها العشرين.. بل أن بعض الأسماء تتغير في ظرف أسبوع تبعا للمهمة. قد تستغرب من ذلك.. لكنها إرادة سيدتي التي ما إن تكلف جارية بمهمة كخدمة لقائد أو سلطان خارج القصر حتى تحمل اسما جيداً يدون في سجل الجواري.. وإذا عادت يكون لها اسم جديد آخر.. وإذا حُولت من جماعة إلى أخرى داخل القصر أيضا يغير أسمها.. أو غيرت من خدمتها إلى مجال آخر مثل انتقالها في خدمة جناح سيدتي أو ضمت إلى جماعة غير جماعتها. قد تتعجب.. لكن هذا النظام سارٍ ويزيد تعقيدا يوما بعد يوم. هناك جواري مقامهن عال. خاصة من

.....

لا أعرف كيف أجد ذلك الضابط الشاب الذي ذاب بين الحشود بعد وصولنا.. كمن يبحث عن إبرة بين أكوام قش.. مضيت أسأل عنه أياماً وقد بدت همتي في السؤال تخف حين أشار أحدهم عليَّ بالتوجه إلى مقر "اللجنة المالية" وبالفعل.. وجدت بغيتي فلديها أسماء جميع نشطاء الساحة. ليخبرني من يقلب تلك الكشوفات بأن من أبحث عنه ضمن "اللجنة الأمنية".

يخدمنها.. إضافة إلى رئيسات مجموعات الجواري الموكل إليهن مسؤولية تعليم الجواري وإرشادهن وتدريسهن علوم المذهب والدعوة.. أسلوب الكلام وحفظ الأشعار.. آداب ورِقَّة الأنثى. وإعداد العقاقير.. وفنون الإغواء وأسرار الفراش.. وعلوم الإقناع.. وبراعة الأدب. وغير ذلك من علوم متنوعة.. حتى حمل السيف والنشاب.

قد لا يهم كل ما ذكرت.. حتى أنا قد لا يعنيني كلما يدور عدا ما هو موكل إلي.. فالقصر جماعات وأقسام كل قسم له اختصاصه وله ما يقوم به.. ولذلك لا نعرف ما يدور إلَّا عن طريق الهمس ومعظم الهمس وشاية.. هنا تنقطع الجارية

عن كل ما يدور خارج القصر. لتغرق في حياة القصر.. وبالذات بما يدور في حيزها.

يحرم تواجد الرجال داخل القصر.. إلا باستدعاء من سيدتي. لها لقاءات تدعو إليها مستشاريها الذين عادة ما يحضرون من أنحاء البلاد.. وقد يحضر أمير.. تراه من موقع أثناء دخوله. ولا يراها أحد.. وفي كل الأحوال تجلس على مقعدها بعد ذلك ولا يرى أحدا وجهها.. فقط هو كفها الذي ينبئ عن وجودها. مستشارها القزم الذي يستقر في دار مجاورة للقصر من الجهة الشرقية. هو الوحيد الذي تستدعيه كثيرا.. وهو من يرى وجهها. أظنني أنرت لك إحدى زوايا ما أعيشه من حياة. وقد لمحت لك بعض الإشارات حتى تدرك أن كل شيء يسير بقدر وحكمة.. وكُلٌّ يسير لما سُخِر له.. سأفي بوعد لقياك فأنا أكثر شوقا.. أتركك في عناية العلي القدير ورعايته ".

-٢٦-

حملت رسالتها تلك ما شغل تفكيري لأيام .. كنت فيها أحاول فهم ما حولي. لم أسارع بالرد.. ولم أقترب من اللفافة لأيام.. متسائلا: هل أنا الحقيقة الوحيدة في هذا المكان؟.. أم أنا في وهم كبير؟ وأن جوذر وهم.. صعفان الذي لم أسمع حتى اليوم من يدعوني به ولا حتى يدعوني

بجوذر! ثم هل لذي الساق اسم؟ لماذا كل ذلك.. هل سأعيش بقية حياتي بدون اسم.. حتى هي في رسائلها لا تتحدث عن اسمها.

لم أشفَ من التفكير في الأسماء.. رددت لها لفافتها بعد أيام:

أستحلفك اللقاء.. فقلبي يكاد يذوي بين أضلعي.. ووساوسي تزيدني إيلاما.. كلماتك تلك التي أشعرتني بأني ذو شخصيتين تدفعني للجنون. لم يتشظَّ تفكيري يوما مثلما هو الآن.. ولم يداخلني الوسواس مثلما أشعر به اليوم.. كثيرا ما شغلتني ديانة أمي اليهودية ومعلمي المسلم. وانشغلت فيهما سنين ولا زلت.. لكن عقلي لم يتُه مثلما هو في ذي جبلة. بل أن التفكير بتباين ما يعبده الناس كان يزيدني صفاء. وأسألك بعد أن دفعتني رسائلك للتفكر حول ما تدينه مولاتي الحرة.. أن أفكر في إيمانها وإن تجلت عقيدة الفرد من خلال أعماله وتعامله.. لكن هذا الكائن من الغرابة بمكان. ولذلك أخاف فقدان صوابي وأنا أقرأ ما يدور خلف جدران القصر.. أن أجد نفسي يوما أسرح في الشوارع كالسوائب دون هدى. الجميع لا يشك في جوهرها إلا أنا.. ما تذكرينه في رسائلك يدفعني إلى ما وراء تلك الأحداث وما يسيرها من معتقد.. فكما تعرفين لكل ظاهر باطن.

أكتب إليك وأرجو الاستمرار في بذر حكايات تلك الجدران في رسائلك.. حتى لو مال عقلي إلى الجنون.. أنتظرها بشوق وخوف. وأتمنى التعجل بلقيانا.. أستحلفك الغوث.

سمعت صوته بعد أن فتح الباب يدعوني الجلوس إليه. دون أن أنبس بكلمة استجبت متعجبا.. مد لي مشرب اليراع.. وكأنه على علم بمعاناتي لفقدها..

.....

أخيراً عادت نسختي.. استقبلني بحرارة ولطف بالغ.. متوددا ومرحبا كما لو كنا أصدقاء منذ سنوات.. يقدمني إلى من حوله شارحا حكاياتي.. بل واستغلها فرصة كي يقدم نفسه بصورة جيدة من خلال اصطحابي متوجها إلى منصة الخطابة أمسك الميكرفون معتذرا أمام الجميع.. وهو يشير إلي كأحد ضحايا فساد النظام.. مرحبا بي ثائرا شجاعا.. متحدثا عن تلك النسخة التي أخذوها أثناء تفتيش سكني.. والتي احتوت على حكايات شيقة من تاريخنا العظيم.. ملتزما أمام الجميع بتسليمها لي.. مجددا في كلمته الاعتذار.. لاحظ من حولي كفكفة دموعي ثم رفع كفيَّ بالتصفيق.

نظر إلي دون أن يغير ملامح وجهه بينما كنت أعب دخان يراعه كالمفجوع.. هز رأسه كأنه يواسيني حرمان الصباحات الماضية.

- جئت أودعك.

أخرجها بصوت صادق وحزين.

- لماذا؟

- سنفترق .

- إلى أين ستذهب؟

- لا يهم إلى أين سأذهب.. ألا تريد معرفة سبب مقاطعتي الأيام الماضي؟

- أمرك غائم.

- أتتذكر تلك الرؤيا.

- أي رؤيا؟

- رؤياك ومولانا المكرم.

- رؤياي.. نعم.

- لحظة سمعت بموت الملك تذكرت رؤياك. ساعتها لا أعرف أكرهتك أم خفت منك.. ومن لحظتها لم أعد أطيق رؤية وجهك أو سماع صوتك!

- وماعلاقة رحيلك برؤياي؟

- من لحظة حكايتك لي وأنا أعتبرها فأل شؤم .

- يالعجائبك.

- لا عليك من ذلك.. لا شيء يستحق العناء.

شعرت بوطأة تلك الكلمات المثقلة بيأس وإحباط ظاهر. كان ينظر بعيدا على غير عادته حين يحدثني. وكنت أجالسه كأنا في صلاة.. وقد تسرب

الشك إلى نفسي أن يكون غير من عرفته. انشغل بدخان يراعه.. ثم عاد صوته يشابه مواء الهررة. التفت لأرى وجهه وقد زاد تغضنا. حدثني بحزن عن سنوات عمره التي قضاها مسخرا لإرادة غيره. لم أكن أعي سبب انهياره المفاجئ .. أخذت أستنفر حواسي لأسمع مواءه كمن يحدث نفسه. ثم التفت إلي يحدثني: أريد أن أحدثك بأشياء لم أحدثك بها من قبل.. أحدثك بصدق دون تصنع.. فقد علمت أنك ستنتقل إلى الدار الجديدة وأخاف ألا أراك بعد اليوم.. أريد أن أحدثك حديث أب لأبنه أو صاحب لصاحبه. وأستمع إلى أسئلتك.. فكثيرا ما طالبتني أن أحدثك بصدق. صمت حين ظهر شاب متجهاً نحونا.. ما لبث أن نهض كالمذعور.. وقف الشاب بملامح جامدة ينظر إلينا ثم مد يده باتجاه ذي الساق.

- المفاتيح.

أشار ذو الساق إلى الباب ثم سار يسحب ساقه مبتعدا مخلفا نظرات حائرة.. تعجبت مما يدور.. سريعا ما لانت ملامح الشاب بابتسامة عذبة مردفا.

- مرسل لأكون بمعيتك. وتلك المفاتيح المعلقة على الباب ستكون بحوزتك.

- من أنت.. وما تعنيه بكلامك؟

- أنت حر ياسيدي .. وذلك فضل سيدتي عليك.. ألا يغلق بابك إلا إذا أردت. مذهولا مما يدور وأسمع.. ذُعِرَ ذو الساق من دخول ذلك الشاب داري فور وصوله.. يجول في أرجائه يرتب هذا ويزيل غبار ذاك. كل ذلك اليوم كان محيراً. قضيت ليلتي الأولى في توجس من الوافد الجديد.. ومنظر ذي الساق لم يبرح تفكيري.. أراه يمضي مبتعدا دون أن يلتفت.. كلامه الذي بدأه. سطوة هذا الغلام الخفية وجرأته.. طوال الليل أراجع مايدور.. ماذا كان سيقول لي؟ لماذا كان يائسا وهرما أكثر من ذِي قبل ؟

بعد أيام سألت الشاب عن ذي الساق. وأني أريد رؤيته.

- سمعت أنهم وجدوه ميتا!

صدمتني كلماته ولفني حزن شديد. حاولت أن أعرف منه متى وكيف توفى؟ نفى أن يكون لديه تفاصيل.. مكثت للحظات مشلول الحركة مما سمعت.. متذكرا كلماته في ذلك الصباح لا زلت أسمعها.. ملامحه المشوبة بإحباط وحزن دفين.. ترى ما كان سيحدثني به؟ أو أنه ذهب ضحية لما كان سيبوح به. لحظتها أدركت بأن في الأمر شيئاً. كانت أفكاري تذهب وتعود وقد نسيت ما حولي وأخذت دموعي تنهمر في صمت.. دموع لها رائحة تنباكه. سرت تحت أشعة الشمس لأول مرة في ذي جبلة.. عبرت الساحة وأنا أرى ما حولي غريبا.. كل شيء جامداً.. مختلفاً عنه في طوافي الليلي . حتى صخرة أطراف الغابة العالية بدت غير ضخمة.

خصصت غرفة لخادمي. الذي يتصرف بسذاجة.. أو أنه يتعمدها.. لم يعد من أحد يغلق علي الباب.. أخرج متى أشاء وأعود حين أشاء.. كأن الدار لم يكن ذلك الحبس.. تلك الساحة الأمامية التي أسترق النظر إليها أخرج لأراها تصخب عادة بالمارة والوافدين. لم تكن (ذي جبلة) غير تلك الساحة التي كنت استرق النظر إليها.. وجدران القصر والمباني الملحقة به.. ومباني الأطراف للخيل والعلف.. ومسجد المنحدر. وما أستحدث مِن مبانٍ لتخزين الغلال على المنحدرات الخلفية للقصر.

لم يعد للجواري وجود. أصبح خادمي يقوم بجلب البريد والطعام وغسل ملابسي. دائمَ الحركة والنشاط.. حين يخرج في مهمة فلا ينشغل بأي شيء حتى ينجز ما أمرته به.. لكن موت ذا الساق.. وعدم عودة لفافة شوذب كانا مسيطرين على حالتي وتفكيري. لم أهنأ بحريتي.. فقد ظلت الأفكار والظنون تتقاذفني.

.....

استضافني ذلك المساء في خيمته.. وقدم لي عشاء مع رفاق له.. لتكتمل سعادتي وأنا أضم تلك الأوراق إلى صدري.. لحظته احتضنته شاكرا.. ليتحلق حولي مجموعة ممن كانوا في الخيمة مطالبين بأن أحكي عليهم حكاية تلك المخطوطات. حكيت لهم.. ثم دعوتهم إلى خيمة خصصت للسمر.. لتمسي ليالي عاجة بطالبي السماع لحكاية جوذر وشوذب.. البعض يتمنى علي تصويرها وتوزيعها.. أقابل ذلك برفض قاطع.. فاردين في ليالي سمرهم حيزاً لسماع صوتي.. يعقبه وصلات عزف موسيقي لشباب الساحة.. يرقص البعض والبقية يقومون بمقام الكورس يرددون تلك الأغاني والأناشيد.

مع مرور الوقت لم أستوعب أن يلازمني أحد طيلة الوقت.. لتتعاظم مشاعري بأنهم استبدلوا بما هو أشد وطأة من إغلاق الباب.. وأن خيطا يتمزق من خلال انقطاع رسائل شوذب وموت ذا الساق.

دون أن أسأله أخذ يحدثني عن نفسه.. أنه من بقايا غلمان سيدي الملك الراحل.. الذي كان له عدد كبير من الغلمان الصغار يبقيهم ضمن حاشيته.. ومتى تجاوز الغلام الخامسة عشرة يصرفه لأعمال أخرى ..أو على بعض أمراء الحصون. حدثني بأنه يحب ماضيه. خاصة سنوات صباه في صنعاء.. ولا يطيق حياة الحرَّاس.

أتأمل جلوسه وحركاته فلم يكن يختلف عما سمعته عن غلمان القصور.. بشرة سمراء ناعمة.. يبدو لطيفا إلا أن أنفه الطويل كان ينفرني.. دوما ما يظهر ببشرة نقية.. ما إن ينجز ما طُلب منه حتى ينشغل بنفسه.. عيناه غالبا ما تغرق بالكحل الثقيل.. كثير الاغتسال.. يجيد إعداد الأطباق المتنوعة.. كثيرا ما يشغل نفسه بنظافة وترتيب الدار. لا يفارقني إلا لينفذ ما أمرت به. ولذلك تسرب الخوف إلى نفسي.. ودوما أشك في كل ما ينطق به. في إحدى المرات قال لي: أنا غلامك وخادمك فأفعل بي ما تريد! واعلم بأن سعادتي في إسعادك وتسليتك.

كمن وقع في مأزق أتأمله صامتا.. أهز له رأسي مبتسما.. ليواصل هذيانه دون أن أنطق بحرف. ودوما يرسل نظرات دلال كما يتعمد تطعيم حديثه بكلمات فيها من الإثارة. لا يتذمر أو يشكو من شيء. يسألني عن صمتي الدائم.. وعن إحساسه بأني لا أطيقه. وكان محقا فيما يحس به.

.....

لم أستطع تمالك نفسي.. أهتز لنغمات وإيقاعات تهز بدني تدعوني للرقص.. أنهض قافزا بين الجميع تاركا لجسمي حرية التنفس حركات يصرخ لها الجميع استحساناً.. أغمض عيني وتلك النغمات تعصر جسمي.. تتسرب داخلي.. تهزني في قفزات متتالية .. ينهض بعضهم محاولين مجاراتي.. لا أحد. لا يعرفون أن من تسكنني هي زهرة.. من علمتني الرقص حين كنت في الرابعة عشرة.. هامستني يومها حين راقصتها في أحد أعرس قريتنا "اترك لجسمك أن تقوده ضربات الطبول" وحين أستغرب من قولها تردف "لا تتقيد بما يتقيد به من حولك.. دع الطبل يقود حركاتك"

يوما بعد آخر يزيد ضيقي من وجوده لصيقا دائماً.. لا يفارقني إلا لإيصال ما أنجزت أو الإتيان بالجديد. يقتصر صوتي على توجيهه بعمل ما.. أو طبخ كذا. كنت أشعر بأنه أكثر دهاء وإن أجاد إظهار سذاجة أحسها مصطنعة.

مع الأيام أمسى أكثر ابتذالاً.. وإن أظهر تأدبا أراه زائفاً. يحكي لي حكايات مدهشة لا أعرف من أين يأتي بها.. يُسَليني بنكت أكتم ضحكتي إزاء فحواها.. وتارة يلقي بقصائد عشق تهز القلب. وفوق ذلك كان صاحب إيحاء مثير.. وتلك نظراته كثيرا ما توحي بدعوات مغرية. نظرات تأتي بما لا تأتها أكثر الغانيات.. لم يتعرَّ يوما أمامي.. فقط يكثر من التمطي حتى لكأنه يعيش سنام لذة لا تنقضي. يغرقني في أحاسيس لم أألفها من قبل.. فكرت بالتخلص منه لكنها مخاوفي أن أدين نفسي بذلك. وهكذا كنت أعيش الحيرة في دار أشعر بقيود تكبلني رغم الباب المشرع. خيرته بإحدى غرف الدار. أو أن يذهب في إجازة لعدة أيام.. طلبته أن يبقى في الدار عند خروجي.. لكنه توسل بأدب أن يظل بقربي حتى لا يقصر في أي عمل.. تتوارد أفكار كثيرة. وأجدني مستسلما.. حتى ظننته قدري.

إلى ذلك المساء حين جثا دامع العينين جواري.. يتعثر في حديثه الخافق.. يبكي بحرقة جاذباً قلبي إشفاقا عليه.. وتلك مشاعري لم أجد لها تفسيراً. قال وأنا أربت على ظهره مواسيا بأنه لم يصادف سيدا في مثل طيبتي.. وأنه حزين لمغادرتي صباح غد. اعترضت لما أسمع وقلت مكابرا:

- كيف تنصرف عني؟ ألست أنا في مقام سيدك ولا يجوز لك أن تتصرف إلا بإرادتي.. كيف تقرر ذلك؟!

- لا أعرف إلا إننا جميعا موالي سيدتي الحرة وهي صاحبة الأمر.

عند ذلك أدركت بأني أمسيت أحد موالي الحرة سيدة دون عقد بيع.. وأننا جميعاً مرتبطون بعناية مَن لها العناية. تصنعت بعض الحزن على فراقه.. تركته يترنم بأبيات غزل.. ظننتها في حب الله كما يتغزل المتصوفة.. بعد انتهائه ركع يلثم قدميَّ راجيا أن أمنحه ليلة وداع.. قال لي وقد عاد صوته

للبكاء: أريد أن أريك قدراتي على إسعادك.. أشعرني في آخر ليلة بأني قمت بما يجب أن يقوم به سيد تجاه غلامه!

-٢٧-

قضيت أول ليلة دون رقيب.. تقودني رغبة العودة إلى غرفة شوذب التي حُرمت من دخولها.. جلست أمامها دامع العينين أتوسل إليها المغفرة شارحا سبب غيابي.. لوت عنقها مشيرة بغفرانها.. ركعت مناجيا لها وقتاً من الزمن.. شعرت بعد ذلك بقدر من السعادة.. خرجت وحيدا.. سرت في كل اتجاه.. صوت من داخلي يدفعني للهروب بعيدا.. وصوت ينازعني أن أبقى.

صباح اليوم التالي تحركت ضلفة الباب العلوي من جديد لتهبط جاريتان بمخلاة البريد. كنت أنظر إليهما بمشاعر جديدة.. تبادلنا النظرات دون صوت. خفق قلبي وأنا أرى اللفافة بين اللفائف بلونها المميز.. كدت أختنق.. تمالكت نفسي. متذكرا تحذيراتها. غياب طويل. كان ذلك الغلام شؤم.. لكني عرفت بعد قراءة محتواها حقيقته.

" أحمد من يحيي ويميت.. من يخط أقدارنا. وأصلي على نور الدنيا والآخرة سيد الثقلين محمد حبيب رب العالمين.

عشت أشهراً مضت لصيقة الموت.. كنت أنت منقذي.. فسبحان من ألهمك الثبات.. وحباك هذا القدر من الصبر. بياض لفافتنا دحض إدعاء الواشية..

.....

هي زهرة أحلى الخوادم من كان يتنافس شباب القرية على مراقصتها.. كما يتسابق أصحاب الأعراس حجزها وزوجها وأخيها لإحياء أفراحهم . يقفون صفا في أطراف الديوان: زوجها علق طبلاً في خاصرته.. وأخوها ينفخ مزماره..أما هي فبين يديها طاسة من نحاس تنقرها بأظافرها.. وفي لحظات النشوة تخرج من بينهم هازة جسمها المتناسق بعنف وجنون فتثير الرجال.. بينما زوجها يصرخ عاليا وقد أصابه هوس الرقص يحوم حولها بطبله ليعود إلى مكانه.. تهتز زهرة وتترك لجسمها أن يتنفس بروائح منفرة نتيجة تعرقه. يتقدم زوجها لحظات ضرباته الأخيرة على الطبل ليحملها قبل أن توشك على السقوط أرضا صارخا "رائحتك عطري يازهرة" لم أكن يومها قد نضجت.. أدخل حلبة الرقص تتابع زهرة رقصي.. وفي المنتهى تقترب مني"سأعلمك كيف ترقص" .

فحين سعت إحدى الجواري لتضع اللفافة بين يدي سيدتي.. كانت ناصعة البياض.. لا تحمل أي دليل مما قالته.. ليبحثن بين بقية اللفائف عما أدعته.. فلم يجدن ما يدل على إدعائها. لتأمر سيدتي بإرسال من يعود بدليل إدانتنا.. وكان الغلام.. ولشهور انتظرتْ سيدتي ما يمكن أن يؤكد ما قالته تلك الواشية.. لكن الشهور انقضت.. لا أعرف ما دار بينكما.. لكنه عاد دون دليل. كانت أياماً أرى الموت فيها جليسي.

ممتنة لك.. وعليك أن تعرف بأنك منقذي ومنقذ نفسك. تلك الدسيسة جعلتني متهمة.. لتبرأني أنت بصبرك وجلدك.. في الأشهر الأخيرة تكلفني سيدتي ببعض الأعمال.. ولم أخفق يوما. وأعتقد أن ذلك ما جعلها تتريث. فهي تنزل العقاب لمجرد الشك.. أو لوشاية عارضة. قد تستغرب مما أحدثك به.. فمصير الجواري خاضع لمشيئة سيدتي.

تشغل كل جماعة حيزاً من القصر أو الدور المتصلة به.. دون تداخل بين سكن كل جماعة.. فلا يسمح لإحدى الجواري بالتحرك داخل القصر أو في أحد الدور.. أو الخروج عن نطاق حيز جماعتها إلا للقيام بعمل كلفت به. لكل مجموعة تدبيرها وأسرارها التي لا تعرفها إلا سيدتي.. تدير كل جماعة أم أو رئيسة وعدة مساعدات. لا يوجد داخل القصر رجل واحد.. سيدي الملك علي وأخوه مولاي محمد اللذان تعاملهما الملكة كطفلين. رغم اقترابهما من سن البلوغ. لكل منهما جناح وعدة جوارٍ يقمن بخدمتهما.. وتمنع سيدتي خروجهما أو الظهور على عامة الناس.

سيدتي الحرة سيدة لا تخرج هي الأخرى البتة من بين جدران قصرها إلا فيما ندر.. ولا يعلم أحد عن خروجها.. لها سراديب إلى حصن التعكر وإلى مسجد ذي جبلة الذي تذهب إليه لتؤدي بعض صلواتها الخاصة. ولم تظهر قط على العامة منذ وصولها ذي جبلة. وتخفيّها لم يكن لرغبة منها

.....

علمتني كثيراً مما يُنضج الصغار قبل أوانهم. ولا أتذكر أن زوجها يوما كان يغار حين يشاركها الرجال رقصها.. بل يتابع حركات جسمها على نار ضربات طبله.. يهتز مع اهتزازات جسمها كما يهتز المجذوب أو المغيب طربا ووجداً.

بل تنفيذا لإحدى تعاليم سيدتي أسماء "لا نكثر من الظهور لعوام القوم وإن احتجبنا فذاك أفضل حتى نسكن عقولهم فالرؤية تقل من المكانة " وحين تريد أن تلتقي بمستشاريها أو دعاة المذهب أو قادة وسلاطين البلاد.. تجلس على كرسيها مولية ظهره تجاههم كما رأيتها أنت.. رافعة كف يدها اليمنى.. مانحة لهم صوتها.

حارسات الأبراج جوارٍ يكمن في أبرجهن الموزعة.. وجميعهن يأخذن أوقاتاً محددة ليحل محلهن من يليهن.

أعرف بأنك لن تصدق إن قلت لك بأنك ثاني أقرب رجل إليها بعد مستشارها اليامي الذي تسكنه إحدى الدور القريبة من قصرها. وأنت من ترسل إليك ما تريد هي نسخه.. ودارك لصيق لقصرها. ثم هي تقرأ معظم ما تخطه وما ينقشه يراعك.. وهكذا فأنت أكثر الرجال حضورا لديها بعد القزم..مع الفارق!

تعتمد على جيش من الجواري التي تحرص على جلب المزيد منهن.. ليتضاعف أعدادهن يوما بعد يوم تنفيذا لإحدى وصايا سيدتي أسماء: "الرجل يؤمن بضعف المرأة.. ويعاملها بتلك القناعة الراسخة منذ الأزل.. وعلينا أن نستثمر تلك القناعة الزائفة.. وأن تستثيري مكامن قوة المرأة.. فكل يحمل نقيضه" وأخبرك بأني ضمن مجموعة خادماتها.. ولذلك سعت تلك الجارية إلى التخلص مني بعد أن ظلت تراقب ما أقرؤه حين عودة البريد.. حتى اكتشفتْ سرنا.. لكنها لا تعرف سر تلك اللفافة فأوقعت نفسها فيما لا تعلمه.

ها أنا قد وضحت لك سبب انقطاعي.. وفي الوقت نفسه أنير لك ما يمكن أن يجعلك تعرف المزيد عن حياة القصر لتضاعف حذرك.. ولتقدّر مدى الصعوبة في التواصل بك.. فحين تأمرني سيدتي بمهمة خارج القصر أكون قد ابتعدت عن التواصل بك. اليوم أنا مطمئنة إليك.. ولذلك لا أرى ضيراً في الحديث بين رسالة وأخرى ببعض ما لا يجب الحديث حوله. أدعو الله لك دوما بالسلامة.. فادعُ لي".

كانت فرحتي لا توصف وهي تخبرني بصدق ظنوني حول ذلك الغلام.. وكذلك سبب انتقالي إلى الدار الجديدة.. بعد أن مرت شهور من الضنك والكمد. سعدت بما أوضحت في رسالتها.. وكنت أتمنى لو أنها أخبرتني عن موت ذي الساق.. لكني أظن بأنها لا تعلم. ظللت أرقب الفجر لأكتب لها سعادتي بما أعيشه من حياة جديدة.

" عودة لفافتك منحتني شعوراً بسعادة غامرة.. في كل مرة يتأخر وصولها تهوجس مخاوفي قلقا عليك.. وهذه المرة كنت في شك وضيق أليم.. حتى أن ذلك الغلام كان ثقيلا وأسوأ مما تتخيلين.

قد يهمني أن أعرف ما يدور خلف جدران القصر.. وكيف يعيش سكانه؟ لكن ذلك الاهتمام ليس من أجل شيء بقدر ما أود الإحساس بما تعيشينه ومعرفة تفاصيل حياتك.. كما أرى لحظة قراءة اللفافة ما تعيشينه.. لتقل ضخامة وقسوة تلك الجدران التي تفصلنا.. أنكب باحثا عنك بين أسطرك.. لأشعر بأني أجالسك.. تلفحني أنفاسك.. تلك هي كلماتك التي تشرحين لي فيها الحياة لديكم. وما إن أكمل قراءة رسالتك حتى أشعر بالغصة حين أدرك بأني أعيش وهماً قاسياً. ولذلك يروق لي ما تكتبين.. أحيانا أعد أفكارا لمناقشتك بها وكأني سألتقيك بعيد لحظات.. وأحيانا أحس بأني تائه أبحث عن حلم بعيد المنال.. أو وَهْم غير موجود إلا في خيالي.. خاصة حين تكتبين بأنك لست أنت. يحاصرني الضيق بل ويجثم على أنفاسي.. وسؤال يلاحقني: ماذا علي أن أصنع بعد مطاردة كل هذه السنين.. لا شيء؟ ثم أرد على نفسي: ولماذا علي أن أطارد اللا شيء؟ لماذا لا أتخلص من حياتي المملة المتشابهة؟ فأي مبرر لوجودي؟ ماذا إن كنتِ شوذبَ.. أو لم تكوني؟ ماذا إن كان اسمي جوذرَ أو صعفانَ.. أو كائن آخر؟ تتراكم حوارات نفسي لتحملني الذاكرة أو أنها تشفق عليَّ.. لتعود بي إلى أيام في حياة أمي وما جدواها.. حياة المعلم .. وذي الساق الخشبية. فلا أجد غير الأمس الذي لا أستطيع الجزم بأني عشته. لتعاودني فكرة الرحيل عن هذا الوجود.. أن أبدأ بهجر التواصل بك وعدم متابعتك.. أن أعيش كما أراد لي العدم. ثم أنخرط في نحيب مؤلم.. لا أعرف على ماذا؟ لكنه يتحول إلى لذة حتى يحتويني نوم عميق.

أجلس كثيرا إلى نفسي متأملا وشمك على كفي.. أو سرك الأعظم.. أمرر أصابعي على حوافه متذكرا صوتك في صنعاء "في لحظة أحببت أن أرقيك بذلك الرمز الأعظم.. الذي يحمل أسراراً كثيرة.. كما يذكر ذلك منجمو الهند في كتبهم.. يحمل رسائلاً إلى كائنات نورانية تراك ولا تراها.. تحميك على الدوام. أن يكون بينك وبين تلك الأرواح الفلكية علاقة وطيدة" هل تتذكرين كلماتك.. وتتذكرين لحظات قضيتِها معي ظننتها لن تنتهي.. حين أيقنت واهماً بأنني لن أفقدك.. وأننا سنكون معا. لكنك ذهبت ولم تعودي. لأتوه في دروب حيرتي.. ثم أعاود البحث عنك.. حتى تتشعب إلى عدة طرق. أتذكر ذلك اليوم في حضرة الحرة سيدة.. للحظات رأيتك وسط صفوف الجواري.. لفتت انتباهي نظرات عينيك.. ابتسامتك التي لا تشبه أيَّاً منهن. ومع ذلك تمعنين في النكران.

أهامسك بشعور من يدمره الشوق.. يحملني بأجنحة القلق بعيدا.. لأشعر بأني وحيد.. أبكي كثيرا حتى أشعر براحة غامضة.. أخاف دوما من إحساس يسكنني.

ذلك الغلام كان يحصي أنفاسي.. لا أعرف كيف تكاثف ظن السوء به.. وهذا هو حدسي يصدق. وأخاف يوما أن يخذلني.. لكن لماذا ننتظر حتى يأتي الخذلان؟. تعالي نفر بعيدا.. نهرب إلى بلاد لا أحد فيها يعرفنا.. هذه هي الأشهر تمر بل سنوات ونحن لا نستطيع أن نلتقي.. وقد يداهم أحدنا الموت.

أنا اليوم حر أسير وقت أشاء.. أدعوك للخروج من هذه الحياة المملة.. أن نجعل لحياتنا معنى.. لا أريد أن أسألك كيف تصلك اللفافة.. ولا سر تبخر حروفها.. ولا ما هو عملك.. فقط نهرب بعيدا بعيدا.. ستقولين كنت بالأمس أتمنى عليك اللقيا واليوم أريد الهروب معا.. لكنك لو عشتِ إحساسي لما انتظرت يوما واحدا.. ولا ظننت بي السوء و اتهمت روحي بالممسوسة.. كرهت الانتظار.. وأخاف أن أكره رسائلك.. فهل نلتقي لنفر بعيدا؟

أنتظر عودة لفافتها.. وكالعادة يأتي البريد ولا تأتي.. وهكذا أصبحت أنتظر لتكافئني على انتظاري بعد حين بكلمات الشرح والتبرير.. أخرج شطراً من نهاري أسير متعرفا على تلك الأنحاء بعد أن افتقدت غرفتها والجلوس بألواني إليها في السكن السابق.. وهكذا تعودت أن أسير تحت شمس ذي جبلة.. وسماع أصوات جواري أبراج الحراسة يطرب.. وقلة من القاصدين أبواب مولاتي الحرة.. البعض يصطحبون صبايا صغيرات.. وآخرون بهداياهم المحملة من البن أو الحنطة والسمن والعسل.. ينتظرون أمام القصر.. ينتهي المشهد بقبول هداياهم.. ليسمع بكاء بعض الصغيرات.. ويرفع بعض الآباء أصابعهم ماسحين دموعاً تسربت ثم يمضون فرادى. أعرف أن صغيراتهم قُبلن وأمسين ضمن كائنات ماخلف الجدران العالية. وبعضهن لا يقبلن.. فيعُدن ممسكات بأصابع أبائهم.

أهبط نحو منحدر الوادي أصادف مزارعين بمواشيهم وآخرين يصعدون بدوابهم في طرق متعرجة.. وهكذا يوما بعد يوم تتنفسني أشجار المنحدرات.. أرمق دار اليامي في صعودي.. تواتيني فكرة زيارته.. أجدني أقف أمام داره.. أسأل من صادفت.. ليشير لي بابتسامة عريضة إلى بستان مجاور.. يعشق اليامي الجلوس فيه وحيدا. ما إن أقتربتُ حتى شممت شذى تنباك ذي الساق.. احتضنني طويلا.. شعرت بذلك الدفء الذي تعودته في صنعاء.. أجلسني جواره على سجادة زاهية الألوان.. لابسا بزة فاخرة.. يفوح عطراً شذياً.. سيفاً مذهباً يبدو أطول منه.. ويقال أنه فارس لا يشق له غبار رغم قصره الملفت.. تبسط

.....

أرقص في خيمة الاعتصام مغمض العينين مستحضراً زهرة في رقصها الحر.. يتصبب جسمي رائحتها النفاذة . أفتح عيني على تصفيق من حولي وصرخاتهم.. تحيطني بنظرات الإعجاب. لم يكن يهمني من حولي.. أو نظرات الفتيات وقد تجمعن حول امرأة تحرص دوما على حضور تلك الأماسي.. ينهض بعضهن يرقصن بصحبة بعض الشباب . بينما تكتفي تلك السيدة بالمتابعة والتشجيع.. كنت أراها حين أرقص بأنها تتابع رقصي.. وتطيل التصفيق.. ولا أعرف كيف سكنني يقين أنها تحرص لتراني. ألمح على طرف شفتيها ابتسامة صغيرة حين تنظر إلي.. وبدوري لا أنهض للرقص إلا إذا تأكد لي حضورها.

معي كما لم أكن أتوقع.. وأبدى بشاشة خجلت معها معاتبته.. حدثني عن متابعته لأخباري.. قال لي: من الآن سأدعوك لزيارتي. ومد لي بمشرب التنباك.. ثم ضحك وهو يتابع شراهتي لدخان تنباكه.. أردف: يبدو أنك "مولعي" معتق.. يمكنك حمل النارجيلة ووعاء التنباك معك. لا أعرف كيف انتهى الوقت سريعا حين نهض يودعني إلى خارج البستان.. مشيرا بكفه أن أعاود زيارته.

كان موقفا غريبا فطوال وجودي معه وهو يتحدث ويضحك عاليا دون أن يتيح لي الحديث.. وتلك الأسئلة التي كانت تشغلني حول وعده بضبط من سرقوا كتب المعلم.. كان بداخلي عتب كبير إذ إن حبسي لسنوات دون أن يسأل عني.. ما إن كنت أنوي بفتح فمي لأتكلم حتى يسارع ليغمرني بصوته الضاحك متحدثاً في مواضيع لا تهمني... ظللت مذهولا وأنا أسير منتشيا نحو داري.. أسلوبه الدافئ.. وداعه لي دون أن يسمعني.. التفت خلفي كمن تدفعه قوة لا تُرى. عدت إلى دار النسخ وأنا أمني نفسي بزيارته مرة أخرى ومعتابته عتابا شديدا.. مبررا هذه المرة كان في عجلة من أمره.. أو أن نشوة الدخان جعلتني لا أميز مرور الوقت وأنا بين يديه.

-٢٩-

"لا ينبغي زيارة أو مقابلة أياً كان.. أو الجلوس والحديث.. حين تكون في شرف مولاتك الحرة عليك إلا تكرر ذلك ألا بأمر منا. احتفظ بهذا ليذكرك دوما عدم الزلل".. وجدت تلك الرقاقة صباح اليوم التالي مع البريد. أزداد نبض قلبي هلعا وأنا أردد ما جاء في تلك الرقاقة ..كلمات موجهة إل.. هو نفس الخط الذي عادة ما تكتب به الرسائل المراد نسخها.. لكنه لم يمهر باسم أحد.. استنتجت أن تكون تلك الرقاقة مدبرة ..وقد تكون كلمات مولاتي الحرة.. كنت حائرا.. أيعقل أنها تعني زيارتي لليامي.. أتحذرني؟ كيف وصلها ذهابي لمستشارها بهذه السرعة؟ أهو اليامي من أخبرها؟ هو قزم لكن لا يعقل أن يكون بذلك الضعف. أم لديها كائنات لا تُرى تراقب كل شيء؟ كررت قراءة تلك الكلمات وأنا أتذكر ما قاله ذو الساق يوما. أخذت أنبش ذاكرتي علِّي أجد في ركام ثرثراته جوانب أخرى بعد أن كنت أعتقد أن كل أحاديثه مختلقة.

لكني بحاجة إلى أن ألتقي باليامي.. أن أسأله عن كتب المعلم.. فهو من وعدني يومها بضبط الجناة.. عن حياتي هنا وكيف الفكاك مما أنا فيه. فهو من جلبني. وعن وعده بإعادة بناء الحانوت.

داهمني خوف متخيلا امرأة عقابها الموت.. أأكتب لها مستأذنا؟ أن أكتب لكائن أسمع به ولا أراه. أهي موجودة أم أنها مجرد فكرة تسكن عقول الناس. تحاملت على مخاوفي وكتبت: مولاتي الفاضلة لم أزر حضرة مستشارك من باب الترفيه.. بل كانت زيارتي له مذكرا بما وعدني به في صنعاء أن يضبط من سرق كتب معلمي وهدم حانوته. أعتذر عن زيارتي له دون إذن منك.. وأرجو وأتوسل السماح لي بزيارته وتذكيره.. دمت منصورة. خادمك الأمين صعفان.

أودعت رسالتي مخلاة البريد. مرت الأيام وأنا أنتظر الرد. أرى دار اليامي كلما مررت ولا أجرؤ الاقتراب. يوما بعد يوم أكتشف غرابة المكان.. والحياة.. وغرابتي.. وغرابة كل من يعيش هنا. وأسأل نفسي: هل جاء اكتشافي متأخراً؟ تذمر يتزايد من نفسي. لم يعد يهمني شيء.. أو أني فقدت معاني أشياء كثيرة.

حين ظهرت لفافتها بعد أيام طوال.. لم أشعر نحوها بلهفة. وكأنها لا تعنيني:

" بسم خالق ما يرى وما لا يرى.. رب السبع الطباق وما فيها.. والصلاة على صفوة النور وآله نور من نور.. وحسبي العزيز الرحمن. أظنك في شوق لرسالتي بعد كل هذا الوقت.. كما هو شوقي لجواباتك. وأعلم أنك في خاطري على الدوام حتى في لحظات صلاتي.. وما شغلني عن الكتابة

.....

في الليالي اللاحقة لاحظت حضورها وقد حرصت أن تضع على جانب طرحة رأسها وردة قرنفل.. تشدني إليها دون كل الحضور. بدأت أحاول تخمين سنها.. تكبرني بعشر سنوات تقريبا.. بين أمسية وأخرى أرى إلى جوارها رجل يكبرها كثيرا.. يحاول أن يبدو أصغر من عمره بصباغة شعره وعنايته بهندامه حتى يبدو سوبر. بداية ظننته والدها أو زوجها.. ليقودني اهتمامي بها لأعرف بأن مصبوغ الرأس قيادي في الحزب الذي تنتمي إليه. كما عرفت أنها ناشطة حقوقية.. متزوجة.. اشتهرت بمواقفها المناهضة للسلطة منذ سنوات.

إليك قلقي على سيدتي وخوف الجميع عليها بعد خروج ابنها الملك مغادرا ذي جبلة تلبية لدعوة السلطان سبأ. لينشغل جميع من في القصر لذلك الحدث. بعد انصياعها لإلحاحه زيارة صنعاء.. مكلفة من يرافقه من بني الزواحي من أخوالها وأوصتهم بأن لا ينفرد به سلطان حصن أشيح.. وأن تكون مدة الزيارة نصف شهر.. لكنه لم يعد إلا بعد أشهر. وما عكر العلاقة بين الملك الصغير بعد عودته بأنه لم يعد يتقيد بتوجيهاتها. يخرج في موكب لصلاة الجمعة.. ولم يكتفِ بل إنه يخرج في رحلات صيد ليغيب أسابيع.. ويدعو بعض الأمراء والوجهاء لينزلهم في ضيافته. ومع مرور الوقت يرسل الرسائل دون علمها.

شكت سيدتي أن ما يدور بإيعاز من سبأ أو أنه يرسل من يجالسه ويحرضه على عليها والتصرف دون مشورتها.

وأجزم بأنك قد عرفت بما يدور من خلال تلك الرسائل التي نسختها.

فكرت سيدتي بحيلة تتخلص فيها من سلطان أشيح وتحريضه.. لترسل مستشارها القزم ليقوم بدور المتمرد الذي يلجأ للسلطان أشيح.. ثم يوحي إليه بضم تهامة إلى نفوذه بمحاربة النجاحي في زبيد.. وضمها إلى ما تحت يده حتى البحر.. وكان له ما أراد.. فسريعا ما باشر إلى دعوة قبائله هابطا من الجبال العالية ظانا بكثرتهم وتغولهم للغنائم.

سيدتي بذلك أرادت أن تشغله وتبعده عن تحريض ابنها ضدها.. وقد نجحت في ذلك بدفع السلطان الطامع بالتوسع غربا باتجاه تهامة.. لكن النتائج جاءت كما تريدها سيدتي الحرة.. إذ إن تلك القبائل هُزمت من أول مواجهة رغم كثرتها.. وقد بلغها أن السلطان نجا من الموت بإعجوبة.. وفر مع من تبقى من قبائله مخلفا الكثير ممن قتلوا وبينهم مستشارها القزم.

بعد هزيمة السلطان ووصوله صنعاء جاء من يكشف له سر هزيمته.. ليسمع ما لم يكن في حسبانه.. وعرف بأن سيدتي من أرسلت مستشارها إليه ولم يكن فاراً كما أدعى منها.. كما أنها أوعزت لقبيلة الزواحيين بمناصرة النجاحيين.

راسل الملك الصغير سرا موضحاً خيانة والدته.. مطالبا نصرته.. ما جعل الملكة تفقد صوابها حين دعا الملك بعض الأمراء لمناصرة السلطان.. حاولت إقناعه بأن سبأ يتربص بهم الدوائر.. وأن الزواحيين سنده في الملمات.. لكنها أخفقت في إقناعه.. لم يكن الأمر بسيطا.. ولأول مرة تسقط سيدتي أرضا مُغمىٍ عليها.

لتقرر بعد صحوها احتجاز ابنها الملك في جناحه.. وعدم السماح له بالخروج أو مقابلة أحد. لتتطور الأحداث ويعلن الابن الثاني عصيانه عليها.. لم يكن لأحد أن يعلم بما يدور في أجنحة القصر عدا كبار الجواري ومن في خدمة سيدتي.

كادت سيدتي الحرة أن تفقد صوابها.. لتعمل ليل نهار على لملمة ما اعتور.. تاركة صراع السلطان والزواحيين منشغلة بإطفاء حرائق القصر. ولذلك انشغل الجميع حول سيدتي خوفا من أي انزلاق. كنت أنت في ذهني ليلي مع نهاري. أشعر بقلق تأخري في الكتابة إليك.. أن أرتب لقيانا.. وأعوِّل عليها لأحدثك بكل ما في نفسي.. وقد أقنعك بعكس ما تفكر به!

وأعدك بأن أعمل لنلتقي.. وسنتحدث كثيرا.. وحينها ستعرف من أكون.. قد يعود لك صوابك. وكم تسعدني أن تفكر بي كجارية تودك.. جارية غير من تتوهم.. فهل تحاول التفكير بكل الاحتمالات حتى لا يكون اللقاء وبالا علينا.. فلا يوجد في هذه الدنيا لي إلا أنت؟".

بعد قراءة أسطرها القليلة زادت قناعتي بأن العشق أمره غريب ولا يمكن أن نقيسه بمعايير غيره.. لم تعد لي رغبة في الكتابة.. قد أجد نفسي أغرد بعيدا عما كنته بالأمس. ولذلك كتبت إليها كلمات قليلة وكنت صادقا:

" لم أعد أرى في استمرار انتظاري لرسائلك أي معنى.. ولا بالكتابة إليك.. حتى اللقيا التي تعلقينها في عوالم الغيب لم تعد تهمني.. لست حزينا منك.. ولا نادما على أمسي.. فقط أتوق إلى الإنعتاق إلى هناك حيث لا تصل أيدي وعيون مولاتي.. كوني من تريدين وكما تودين .. فلست نادما على أحد ولا على بلاد الفتها. ولذلك أتركك لأن تتماهي في حياة سيدتك.. وانسي ما كان بيننا.. أنا لم أخلق لذلك ".

لا أعرف هل أصبت بتلك الكلمات؟ وهل هي ما كانت تعبر عن قناعاتي. لتترسب فيَّ قناعة أن الأمر وصل منتهاه.. وأن عليَّ أن أبدأ في الحياة مجردا من المشاعر. في لحظة قررت ألا أبعث تلك الكلمات القليلة.. وأن تظل اللفافة لدي.

خلال تلك الأيام لم تتغير حياتي في شيء.. انتهت انتظاراتي.. ومع مرور الأيام أصيبت مشاعري بالقِدم.

سيـــــدة

٥١٠ هـ

-١-

امتدت سنوات حبسي ثقيلة.. خفَت تفكيري بشوذب.. وأمسى طيفها يزورني لماما.. وحين تستحضر ذاكرتي أيامها تدمي قلبي.. ولم يكن شاغلي سنوات طويلة إلا خروجي من حبسي.

مساء ضاج بالنحيب والتراتيل الحزينة. تلبستني حيرة وأخذت عيوني تغرق بدموعها.. لا أعرف هل لحبسي أم لما أسمعه من نحيب.. كما لو كان الحزن استقر بأعماقي.

صباح اليوم التالي فوجئت بمن يفتح باب السفلي بعد سنوات من إغلاقه.. جلبة ضوء شمس وخطوات جواري.. غمرتني شهقة لرؤية فارعة بينهن.. وقفت أمامي وعيناها على الأرض: سلام عليكم سيدي. ودون أن تنتظر صوتي واصلت: كلفتنا سيدتي مرافقتك! تبعتهن دون أن أسألهن.. تجاوزن بي سلالم طويلة حتى سطح واسع.. ذهلت لارتفاعه.. رأيت قرص الشمس بكامل بهائه.. طيور تحلق فوق رؤوسنا.. رياح زرقاء.. أفق تحمله أسنة الجبال.

أشارت على أحد الأبراج في أحد زاويا السطح.. تبعتها دخلت بي جوفه:

.....

ومنذ تعرفي إليها في خيمة المسامرات.. عرفتها تتصدر المسيرات.. تشحذ همم النساء.. تلك المعلومات وغيرها جاءت من باب اهتمامي بها.. ما تضاعف إعجابي .

ساحة التغيير تبدو لزائرها عشوائية أو تلقائية.. بينما يديرها نظام دقيق وخفي.. أو كما يقال هي كنتون دولة مصغرة.. تديرها لجان متخصصة.. من أهمها اللجنة الأمنية التي ينتمي إليها صديقي الضابط.. والتي تسيطر على جميع المنافذ.. وترصد كل صغيرة وكبيرة داخل الساحة وفي هوامشها.. كما تدير حجزاً يلاصق مبنى تابعاً لمسجد مجاور.. وتمارس التحقيق مع من يشك بولائهم في غرف ذلك المسجد.. إضافة إلى حماية الساحة وكذلك خط سير المسيرات. وهناك عدة لجان أخرى.

- هل يناسبك هذا المكان؟

انشغلت نهارا بالمشاركة في المسيرات اليومية التي أخذت بالتعاظم بعد وصول مجاميع من عدة محافظات.. وأضحينا في مواجهات مستمرة مع

قوات الأمن التي تتصدى بمعداتها وجندها محاولة الحد من تزايد المتظاهرين بحجة منع انتشار الفوضى وحماية السلم الاجتماعي.. وممتلكات الدولة من العبث.. ليتزايد سقوط الشهداء.

نظرت إليها متعجبا. لا أعرف ما ترمي إليه.. أضافت: سيدتي الملكة أمرتنا بتهيئته لسكنك.. أو بالأصح لخلوتك. زادت كلماتها دهشتي .. حجرة واسعة في برج عالٍ.. سطح كبير تملؤه الشمس.. نوافذ صغيرة.. إحساس جميل وأنا أخرج من حبسي إلى ذلك السطح: تلك كتب -مشيرة إلى ما تحمله إحداهن- وهذا كيس دراهم. وصرة ملبوس السعادة وصابون وعطر. تكرمت به سيدتي عليك. كنت غارقاً في دهشتي.. أتأمل عينيها ببلاهة.. بينما الجاريتان تضعان ما بأيديهن.. أشارت عليهن بالانصراف. انشغلت باستراق النظر مضطربا لإحساس يجتاحني.. لمحتها تصف تلك الكتب على رف الجدار.متسائلاً: لماذا هي دون غيرها من تأتي؟ ليس في الأمر صدفة؟ أتوق لفهم ما يدور.. كمن أعيش كابوساً متلاحقاً. يفتح الباب بعد سنوات من الحبس ولا تظهر إلا هي. لماذا؟ وددت سؤالها عما أسمعه من نواح طوال ليلة البارحة..ولا زال يتسرب من خلف جدران القصر. لكني لم أجرؤ وقد تكون تهيؤات. أرقبها بحذر.. تسترق النظر إليَّ بين فينة وأخرى.. كما لو كانت تود أن تقول شيئاً.. نظراتها شبيهة بنظرات لقاءات السنوات الماضية. بعد وقت اقتربَت.. جلسَت على طرف الدكة بملامح حيرى.. لتدفع بذاكرتي السفر بعيداً.. إلى أول أيامي في ذي جبلة. مفكراً استمالة أي من جواري البريد.. على أمل أن تنير لي طريقا إلى شوذب. لكني لم أجرؤ. إحداهن كانت لها نظرات لافتة.. هي المرة التي تهبط بينهن.. ابتسامتها غامضة.. عرفت اسم تلك الجارية لاحقا "فارعة". في البداية حسبت أنها مصابة بنوع من البلادة.. تحضر لتنقطع عن النزول مثيرة فيَّ التعجب. مرت الأيام على انقطاع نزولها وقد أيقنت بعدم عودتها.. لتعاود من جديد وسط مجموعة من جواري مولاتي.. وكانت هذه

المرة لمساعدتي على نسخ رسائل وفاة الملك علي.. ولليال امتلأ دار النسخ بحركة وضجيج حضورهن. انشغل الجميع بنسخ وتوزيع الرسائل.. بينما كنت معلقا بنظراتها.. لليال هجرني الشعور بالحزن على الملك الصغير. كنت مسحورا بابتسامتها غائبا عمن حولي. تطيل النظر من مجلسها إليَّ.. ترقبني.. ليعود نبض قلبي إلى ماضي أيامه. وقد استعدت شعوراً غامراً بالسعادة.

في تلك الأيام البعيدة كنت قبل ظهورها أقضي وقتي بين نسخ ما يرسل إلي والجلوس صباحا إلى ذي الساق.. وبقية الوقت أقضيه في نقش غرفة شوذب.. شوذب من يبكيني طيفها إذا حل فيَّ.. حتى أن قناعة أخذت تتلبسني مفادها أن النساء شر مستطير وعلى المرء تجنبهن ليعيش بسلام. إلا أنَّ ظهور تلك الجارية المتكرر أعاد النظر في قناعتي. انقضى عزاء الملك الصغير وتركتني لتغيب من جديد.

-٢-

ممددا في حالة مزرية. سمعتُ صوتاً أنثويا يتردد خارج حجرتي.. للوهلة الأولى خلتها أوهاماً .. ما لبث الصوت أن ظهر هامساً.

- سلام عليكم .

دهشت لإطلالة وجهها.. ظننتها في البداية تهيؤات.. لكنها تقدمت لتقف عند أطراف فراشي متمسكة بكفي. لا أتذكر هل رددت عليها السلام أم أن المفاجأة بهتتني.. لا زالت هيئتها ماثلة أمامي حتى اليوم.. كاشفة عن شعرها الفاحم.. تبتسم وقد ظهرت غمازتا خديها.. خطت تبحث عن مكان تضع ما حملت.. اقتعدت طرف فراشي وعيناها تحرث عينيَّ.

- أوصى الحكيم بمن يرعاك.. فأرسلتني سيدتي لرعايتك وخدمتك.

جاهدت إخفاء ضعفي.. محاولا الاستواء على فراشي.. أن أبدو فتيا.. رعشة مفاصلي أبقتني ممددا.. أمْسَكَتْ أصابعها بكفيَّ: أنت ساخن.

شعرت بثقل لساني حين حاولتُ الرد.. اكتفيتُ بالنظر إلى وجهها.. لم يكن لي إلا الاستسلام لسعادة ما أنا فيه.. وتلك الأصابع توزع الخدر في

أصولي. أخرجت ماحملته من قماشه ملفوفة.. خبز ووعاء حساء دافئ .. وحنجور عسل.. تتودد كي أرتشف بعضه.. استجبت لرغبتها وتناولت ما استطعت تناوله. لم تمر لحظات حتى اضطربت أمعائي وتقلصت ملامح وجهي.. وصعدت حموضة بغيضة في حلقي لأقذف كل ما ألقمتني. شعرت بخجل وهي تنظف ما أفرغت من على ملابسي وفراشي. أتذكر بأنها سألتني عما أشعر به.. وما حل بي حتى تخرج معدتي ما ابتلعته. أتعرق وأنا أصارع تقلصات بطني. لم أستطع الإجابة.. لتعاود أمعائي قذف سوائل بمرارة العلقم لا أعرف من أين تأتي بها.. ثم تعيدني بين أغطيتي.. حاولت أن أعتذر لها.. خرجت كلماتي مبتورة غير مفهومة.

- لا عليك.. حاول أن تهدأ.

سكنت أسترد أنفاسي لأسمع عواء الريح يعاود بقوة.. أشرت نحو الباب واضعا كفي على مسامعي. ويبدو أنها فهمت ما أعني. حين أنصتت وهي تنقل عينيها بين وجهي وباب الحجرة.. ثم هزت رأسها: هذه أصوات الريح.. لا عليك! نطقت كلماتها وهي تتابعني بعينيها راسمة ابتسامة مصطنعة.. هازه رأسها مربته على ذراعي.

بينما عدت أسال نفسي: هل هي مصادفة أن تُرسل هذه الجارية بالذات؟ ثم لماذا علي أن أحكي لها؟ الم يخدعني ذو الساق!

عاد الحكيم لزيارتي صباح اليوم التالي.. يسألني.. أنظر إلى عينيه صامتا.. بينما عيناها تبتسم متابعة مايدور.. خرج وطلب منها أن تتبعه.. لا أعرف ما دار بينهما لكنني كنت أرى رأسها يهتز بتأدب وهو يحدثها بصوت خافت.. ركعت جواري مستأذنة بخلع ملابس الجزء العلوي من جسمي.. أشرت عليها عما حثها به الحكيم؟ هزت رأسها مبتسمة كمن فهم ما أود قوله:

- اطمئن ..لا عليك.

منهمكة بدهن صدري وبطني.. تقلبني كصغير تعتني به أمه. أوقدت نار موقد طيني.. وضعت أحجارا ملساء بحجم قبضة الكف. تكمل دهن

ظهري.. تغوص أصابعها ضاغطة في مواطن بعينها.. تسألني: هل يؤلمك هنا؟ أشير هازا رأسي بالنفي. مضت أصابعها من موطن إلى آخر تسبر بطني.. مكررة سؤالها.. لأصرخ متألما لضغطها تحت سرتي.. تدلك بأحجارها الدافئة على مواضع الألم.. بطني.. عضلات صدري.. ساقية ظهري. ما إن تبرد حتى تعيدها إلى جمرها.. ثم تعاود الدلك.. أستسلم رغم آلامي المبرحة.. يغرق بدني في عرق غزير. ابتسمت ليتسع فمها.. تسأل بعينيها صامتة وكفاها تدهن بشرتي بزيت ذي رائحة فواحة.. داهمني بعدها خدر لذيذ. فتحت عيني.. هزني خجل رؤية عينيها تراقبان منامي. حاولت لملمة أطرافي.. هزت رأسها وقد ضاقت عيناها بعطف.

- كيف تشعر؟

خرجت حروفي مرتبكة.

- أف ض ل.

- الحمدلله.

أمسكت بكفي تفحص بأصابعها وشم كفي.. متوقعا أن تسألني حوله لكنها نظرت في عيني: ما هي حكاية مرضك؟

أشرت هازا رأسي نافياً دون أن أنطق. نظرت بدلال: لكنك هذيت في منامك كثيرا.

أفكر فيما يمكنني قد هذيت به نائماً.. محاولا أن أبدو رابط الجأش كما لو كان الأمر لا يهمني.

- أود سماعك تحكي لي عن نفسك.. عما يشغلك.

.....

ليأتي منتصف مارس ٢٠١١ بأكبر مسيرة عرفتها صنعاء.. متجاوزة سقف النصف مليون متظاهر.. ما دفع بقوات أمن النظام إلى استخدام الرصاص وخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع.. لكن المفاجأة البشعة حدثت حين سقط أكثر من خمسين قتيل. وما يقارب الثلاث مائة جريح.. برصاص قناصة انهالت من المباني والشوارع والأزقة المحيطة بالتظاهرة.. اهتز الشارع لتلك المجزرة.. وتبودلت الاتهامات حول انتماءات قناصة ذلك اليوم. سقطت جريحا بإصابة رصاصة اخترقت كتفي الأيمن.

- أنتِ من ستتحدثين عن نفسك. بالكاد نطقت كلماتي. التفتت راسمة غمازتي ابتسامتها فزادت عينيها اتساعاً.

- إن كان ذلك يساعد على شفائك سأحكي.. لكنني أخشى.... ولم تزد لتمسك بكفي متشاغله بذلك الوشم.. تتأمله صامتة. لم تكن المرة الأولى التي تتأمله.. وفي كل مرة أتوقع سؤالها عنه.

- أمتأكد بأنك لا تعرف عني شيئاً؟

- من أين لي؟ إلا إذا كنت تقصدين رؤيتي السابقة.

- أمتأكد؟

أربكتني كلماتها.. خاصة تكرار كلمة "أمتأكد" ما جعلني أفكر دون أن أجد إجابة.. ليخرجني صوتها.

- أنا لست من هذه البلاد.. بلادي بعيدة ولم أعد أعرفها.. حُملت إلى سيدتي صبية.. وعيت الحياة وأنا أمَة. صمتت تنظر إلى عيني مبتسمة.. لأسألها بصوت عطوف.

- وماذا بعد؟

- وهذه أنا.. في قصر ذي جبلة.

- هل هذا كل شيء؟

- وماذا يجب أن يعرف الإنسان عن نفسه؟

- اسمك؟

- أيُّهم؟

- لا أعرفه.

- فارعة.

- فارعة.. اسم جميل.. أهو اسمك منذ وعيت؟

- لا تهمني الأسماء مادمتُ أمة.. ولا يعنيني أي اسم.. فقط رضاها ما يهمني.

- إذاً الأسماء لعبة؟

- ليس بالمعنى.. لكن الأمة أمَة ..لا تفرق الأسماء.

- وكيف ببقية الجواري؟

- أتقصد أسماءهن؟

- كيف يتقبلن تغيير أسماءهن؟

- هن وأسماؤهن لسيدتي.. قد تسمى إحداهن لفترة ثم يغير حسب كل وضع ومهمة. لكن ما يعنيك ذلك؟

- هي حكاية عُمر.

- أتود أن تُسمعني حكاية عمرك كما أسمعتك؟

- أنت لم تتحدثين بشيءٍ.

- الجواري حياتهن لأسيادهن.. أما أنت فلديك حياة ملكك تحكيها.

- كما تريدين.

كانت تنادمني وقد انشغلت بفرك قاع قدمي.. بختها برذاذ ماء فمها .. لتضحك حين شهقتُ لبرودته.. لفتهما بقماش.. التقطت ميسما رقيقا من جمر الموقد.. مست به قفا رقبتي.. ارتعشت صارخا لوخز الألم.. رائحة شواء مقززة.. فقدت وعيي.. أم أنه سلطان النوم حملني بعيدا.

صباح اليوم التالي صحوت وهي ممسكة بكفي كعادتها تتأمل ذلك الوشم.

- مِمَّ تخاف؟

- خوف.. وما أدراكِ بأني خفت؟

- اطمئن.

- اخبريني هل هذيت أيضا في منام البارحة؟

- كثيرا.

- بماذا؟

- لا شيء.. غير أنك تعيد إلي صبري.

- أي صبر؟

- انتظار أن تحدثني عن نفسك وعما يشغلك.

- سأحدثك.. لكني أتعجب لعينيك التي تشي بأشياء.

- أنا أنظر لكل الناس كما أنظر إليك.

- ليس ذلك.

- نظراتي فقط.

- لا أعرف.

- لكن لم تحدثني عما يشغلك.. عن حياتك.

شعرت بحصار كلماتها.. كان عليَّ أن أجاريها بحذر.. وألا أمنحها فرصة.

- أنا عادة أجالس الوحدة.. ومن يوم نُقلت إلى دار النسخ أخرج وحيدا.. الكل يتجنبني.. أرى ذي جبلة خالية إلا من الدور وغابة المرتفعات.. وبذلك ترافقني حيرتي.. أقضي لياليَّ بكتابة حياتي.

- تكتب حياتك.

- نوع من المؤانسة.. أكتب حتى لا أجن.. الكتابة حيلة أجالس بها عقلي.. متعتي حين أكتب ما أعيشه ومن أعيش معهم.. وأحيانا أنشغل بنسخ ما يطلب مني نسخه من كتب.. بمعنى أن الرقوق هي من أجالسها .. لكن...

- ما تعيشه ومن تعيش معهم؟

- نعم.

- إذاً ستكتبني ؟

- نعم.

- هل تريني ما تكتب؟

- ليس الآن.

- لماذا؟

- حتى أخبرك.

- وكيف تكتبني؟

صمتُ أستحضر أول حضور لها.. نظرتها..ابتسامتها وهي تعيد لقلبي نبضه.. ذلك الجذب الذي أحسسته نحوها. التفت أتفرس وجهها.. غمازتي وجنتيها حين تبتسم.. فمها حين يتسع.. عينيها الصافية.. ماذا سأكتب عنها؟ كان عليَّ أن أجيبها.

- سأكتب ما نحن فيه.

- كل ما نحن فيه؟

- كل ما...

- ومن سيقرأ ما تكتب؟

صدمتني.. نعم لمن أكتب؟ لم أفكر يوما لمن أكتب.. أشعر بارتداد أسئلتها بداخلي.. أبحث عن أجوبة. كانت عيناها تنتظران إجابتي .. إحساسي بأنها جارية غريبة بعض الشيء. أسئلتها: من سيقرأ؟ أو أكتب.. لمن؟

- أكتب لنفسي.. كلما حاصرتني الوحدة.. وأجد أن الكتابة تستأنسني لمجالستها.

صمتتْ متشاغله بمتابعة كلماتي.. بينما عيناها تبحر بعيدا في عوالم لم تفصح عنها.. كما لو كانت ترى صفحة عقلي.

- أتحب سماع الشعر؟ هززت رأسي مستحسنا.. أضاءت وجهها ابتسامة.. رفعت وجهها للسقف تستحضر.. بينما شفاهها تتلمظ مستحلبة لماها.. التفتت: سأغني لك قصيدة. ظللت أرقبها ممسكة بكفي.. بدأت بنغمات جميلة من أنفها.. تنظر إلي تارة وأخرى تخترق نظراتها تلك الجدران. ليرتفع صوتها تغني قصيدة معبرة كلماتها.

كانت بي رغبة إلى احتضانها.. إلى مسح وجهها.. أصابني حرج. أو أنه خوف إنهاك مرضي.. كنت أتمنى لو أني فتيٌّ معافى.

-٣-

أعادني صوتها من ذكريات الماضي:

- أنا في خدمة سيدي.

دلال تتقنه أظنه لإنجاح مهمتها. وهذه المرة أجزم بأنها ستقوم بأحد ألاعيبها؟ كابرت ووجدتُ صوتي يخرج قويا رغم سطوة نظرات عينيها:

- أنتِ في حِلٍّ من خدمتي.

فجأة تسرنمت للحظات ناظرة إليَّ.. ثم قالت بصوت ذليل:

- سيدتي من أرسلتني لخدمتك .. والأمة لا تملك حق الرفض.

صمتُّ وقد بدأ صدِّي يتراخى تحت وقع صوتها. فضلت الخروج.. شمس بهية لم تلامس عيني منذ سنوات.. نواح يتصاعد.. لا يوجد ما يدل على

.....

ليعلن الرجل الثاني في السلطة قائد الفرقة أولى مدرع اللواء علي محسن الأحمر في ٢١مارس انضمامه للثورة وتعهده بحماية المعتصمين وجميع مسيراتهم.. أحدث ذلك الإعلان دويا هائلا وانقسامات كبيرة في أركان السلطة. لتكتظ ساحة الإعتصامات بكبار رجال صالح من وزراء وقادة عسكريين وسفراء وبرلمانيين معلنين انضمامهم إلى صفوف الثورة مطالبين برحيل الرئيس.

موت.. فلا أحد في الساحة غير قلة من العابرين. حارسات أبراج الحراسة.. بعض المزارعين يصعدون باتجاه قراهم.. ريح تداعب أشجار السفوح. منحدرا الوادي العميق.. مجرى نهر السائلة.

- لا أعرف ما تقصده؟

صوتها كان مراوغا وحزينا. حول ما أسمعه من نحيب.

- فلماذا النحيب؟

نظرتْ في عينيَّ نظرة فيها من العتب الخفي:

- أتيت لأخدمك.. ثم ألم تجد ما تسأل عنه ؟

أوحت كلماتها بأنها تطبن أمراً.. تأكد لي أن أمراً قد حدث.. أضافت: حالتك بعد حبس سنوات تستدعي من يؤانسك.. أحاطني خجل ما ترمي إليه.. تود بكلامها أن تخرجني من دائرة الحذر. ولا تعلم أن حبس السنوات قد جعلني أقلب كل شيء قبل الإقدام على أي خطوة.. لم أعلق على ما سمعت منها.. فقط ظللت أسمعها منتظرا أن تجيب عن ذلك النحيب المستمر.. تنظر في عينيَّ كمن تكتشف ما يعتمل بداخلي. لأيام لم يكن بيننا من حديث.. فقط تختلس النظر وقد شغلت نفسها بترتيب الحجرة.

تقف جواري لحظات تناولي الطعام دون أن تشاركني..في الوقت الذي لا أدعوها فيه رغم أنها من تعده. تتكوم بعيدا في صمت ولا تكف عن متابعتي أثناء قراءة أو نسخ ما يُرسل إليَّ .. وفي الحقيقة كنت سعيدا أن يكون بالقرب مني كائن يتحرك بعد سنوات من الوحدة.. في الوقت الذي ظل همي هو شحذ الحرص والحذر؟

في اللقاءات الأولى لم أكن حذرا.. بل كنت مندفعا أبحث لها عن موطن في قلبي.. أنادمها في أمور لا يجب البوح بها. هذه المرة أود أن أحصر كلماتي عما أوده من طعام وشراب.. وما أحتاجه من مداد ويراع.. أوما يتعلق بترتيب الحجرة التي حولت زواياها إلى ما يثير البهجة بأثاث جلبته من القصر. قالت لي:

-هل أعجبك أثاث الحجرة؟

-نعم.

- هذا ما أمرت به سيدتي.. بل وأوصتني أن أجلب لك ما تريد.

- عجبا من مولاتي.

- على ما العجب؟

- إما سجين لسنوات طويلة أو تضعني في برج الصمت.. أعلى مكان في قصر ذي جبلة.

- ألا تحمدها على ذلك.

لبعض الوقت يسرقها حزنٌ مبهمٌ بعيد.. ما تدفعني رغبتي إلى منادمتها.. حين ألتفت لها.. تجتهد فتح نوافذ المنادمة.. أراقب تغيراتها وهي تتحدث إلي كمن لا

.....

وبإعلان علي محسن حمايته للثوار دخلت الثورة مرحلة المواجهات.. إذ إن المسيرات ازدادت عنفا وكثافة.. لتصاحبها قوات مدرعة وأفراد الفرقة أولى.. ومع الأيام أضحت المواجهات المسلحة أحد المظاهر اليومية وأصبح هدف المعتصمين اقتحام دار الرئاسة وبقية دوائر الدولة.. لتنشطر العاصمة إلى قسمين.. مثل شارع الزبيري خط التماس بين قوات الشعب المدعومة بقوات الفرقة أولى مدرع وقوات السلطة.. تسارعت وتيرة الاشتباكات المسلحة في أكثر من موقع في أحياء العاصمة.

تنتظر رداً.. أتواطأ مع حديثها وأشاركها.. تلتفت مبتسمة ناظرة في عيني بسعادة. مع الوقت تماهى ذلك الحزن عن ملامحها .

-٤-

يعاودني الحذر كلما حضرت وشايتها حول هذياني والهروب إلى زبيد و... أرتد إلى مسافة لا أسمح تجاوزها.. أكتفي بالرد عند الضرورة.. لا

أسترسل في أي حديث. أظنها تراهن على الوقت تنتظر إغرائي بالمنادمة.. أرقبها متوجسا.. حتى تحولت مقاومتي إلى نفور من صبر أحسه فيها.. تتعمد الرقة واللطف. وما كان يحزنني إحساس أن صمتي يعذبها.. بل تجاوز الأمر إلى تلذذي في إذلالها. ليكتنفني خوف من أن يتأصل ذلك ويتحول إلى تكوين طبعي. وفي نوبة حذر صارحتها بعدم حاجتي إليها.. لترد مبتسمة بأن وجودها مرهون برغبة الملكة. لحظتها صمتٌ محتارا.. وخلال أيام أرتفع بيننا حائط الصمت.. لم أعد أحتمل الاستمرار: أنا من سيطلب عودتي لمحبسي في دار النسخ.. عليك بإخبار مولاتي أريد الوحدة ولا أريد أحداً في خدمتي.

قلت كلماتي وخرجت نحو أطراف السطح أتأمل أشجار الغابة العالية. عدت مع مغيب الشمس وقد أمسيت وحيدا. توقعت عودتها.. مر الليل ثقيلاً.. نهار اليوم التالي. دمعت عيناي لإحساسي بغبن نفسي.. جافاني النوم.. ولم يعد لشمس النهارات من معنى.. حتى تلك الثياب التي مُنحت لي. وتلك العطور التي لم أعد أستخدمها. وأمست سلوتي تلك الكتب التي صفتها هي بعناية.. أخذت أقلب عناوينها. لاحظتُ بينهن كتيباً صغيراً لُفَّ بشريط حريري لماع. بحذر سحبت عقدته.. لتسقط منه رقاقة.. أخذت بقراءتها:

" بسم الرحيم العليم من يشفي السقيم ويحرك العواصف والنسيم والصلاة والسلام على من أوصانا بالرحمة وحسن الخلق.. وعلى الخمسة أهل الكساء وأئمة النور إلى يوم النشور.

أخط إليك هذه السطور في عجلة من أمري بعد إشهار سيفك.

وها أنا أفي بوعدي لك.. وأذكرك بطلب لقائي.. لتنهي هذا اللقاء.. كما أنهيت يوما جواباتنا.. وأنا على يقين بأن كل لقاءاتنا السابقة.. لكنك لا تعرف كم أتحمل حتى ألتقيك أو أسكن لأخدمك.. ليس فقط لأنها رغبتك.. بل لما يعتمل بي من شوق. وها أنت اليوم ترفضني. ودعني أسألك بعد تلك اللقاءات: هل وجدتني شوذبك؟ كما كنت على يقين في رسائلك! أو من

ذكرتهن في جواباتك: فندة أوشوشانة أوعطش؟ ألم أؤكد لك في رسائلي بأني لستُ أيَّاً منهن.

وأذكرك بأنك ذات ليلة قلت لي بأنك تكتب ما تعيشه. ولتعلم لم تذهب كلماتك سدى.. فأنت من دفعني لأكتب ما أعيشه.. ولكني لا أكتب لنفسي مثلما تفعل أنت بل أتحايل على قطيعتك وأكتب لك.. ومن لحظتها أخذت أزاوج بين مشاعري وكتابة ما أعيشه.. كتبت وكلي يقين بأني سأقرأ ذلك يوما عليك.. وهاهي الأقدار تحرمني قراءتها معك.. وتحقق لي نصف ما كنت أحلم به.. أن تقرأها دون أن أكون جوارك. واليوم أنت تعرف من كان يشاركك رسائل اللفافة.

احتفظت لك بما كنت أكتبه إليك حتى اليوم .. بعد أن تحملت عدم الإفصاح مِن أني صاحبة اللفافة حين كنت ألتقيك.. وفي كل لقاء أجدك عطوفا.. رقيقا.. بل ودودا ومحبا.. وأجد نفسي غير مخطئة حين أشفقت عليك ولم أفصح عن كينونتي حتى الأمس.. وأعترف بأني كنت قلقة من فقدانك.. ظانة بأنني قادرة على شفائك من عشق كائن وهمي.. كائن خلقه عقلك وأستمتع بتعذيبك.

طيلة سنوات كنت أكتب لفافتي إليك.. وكاد الخوف في كل مرة يدمرني.. ومع حجزك لها.. تغير الأمر.. وأمسيت أحتفظ بكل ما أكتب وكلي يقين بأنا سنجلس يوما ونقرأ ذلك.. ولم يعد هناك خوف. أكتب وإحساسي بك مختلف. كانت رغبة ملحة تخنقني أن أسألك: لماذا احتفظت بتلك اللفافة؟. لكنك كنت قاسيا طوال الأيام.. وكلما لنت قليلاً ..تعود إلى قسوتك وصدك ".

.....

فاجأني عدد من شباب الساحة بزيارتي في مخيمات المستشفى الميداني. لكن زيارتها كان لها وقع مختلف.. وضعت على طاولتي باقة ورد حمراء.. وقفت ممسكة بكفي "الحمدلله على سلامتك. نريد عودتك لتمتعنا برقصك!" انحنت من طولها الفارع لتقبلني على جبهتي.. لحظتها غمرتني رائحة شبيهة برائحة زهرة. شعرت بعودة روح قديمة. جاري على السرير المجاور كان يرقب ما يدور.. وبعد انصرافهن قال لي: هل قرأت كرت الورد؟. التقطت الباقة "الحمدلله على سلامتك. في شوق لعودتك وأن نرقص معا!".. سألني جاري فقلت له: عليه عبارة "الحمدلله على سلامتك" . فرد مبتسما: فقط!

كالجمر كانت كلمات تلك الرقاقة.. أكملتها وغيظ مدمر يعتمل فيَّ.. وضعتها جانبا في حنق غير مصدق أني ارتكبت ذلك الحمق.. وأنها بالفعل ليست شوذب..؟

تبخر يقين يسكنني منذ سنوات وسنوات. لكن لماذا كان عليها أن تكابد كل ذلك العناء في مودتي؟ أيعقل أن يعشق الكائن كل هذا الحد دون دوافع؟ كيف تحملت ألا تفصح عمن تكون كل تلك السنوات؟ أم أن النساء كائنات غريبة الأطوار في عشقهن؟

-٥-

التقطت كتيبها ذا الشريط الحريري مرة أخرى بأصابع مرتجفة.. أخرج من البرج.. أقلب صفحاته تحت الشمس.. رهبة تعصف مما أتوقعه.. أسأل نفسي: هل حبي لشوذب فاض ليشملها؟. هل أحببت في فارعة شخص الكاتبة.. أم شوذب.. أم جارية اللقاءات؟ أم أني لا أحب إلا نفسي؟ اتكأت أقلب تلك الصفحات.. وجدتني لا أحب أحدا حتى نفسي! عند ذلك هدأت قليلا وخف حقدي على نفسي. تمنيت لو أني لم أكن قاسيا معها.. لكن لماذا لم تصرخ معلنة عمن تكون؟ لو أنها رفضت تركي. ماذا كنت سأفعل؟ هل سأطلب منها أن تخرج من أمامي..أم سأتركها تبقى؟ سأسألها أن تحدثني مزيدا عن نفسها.. نعم عنها هي.. وعن اليامي.. ذي الساق؟ أم أن اللقاء سيتفاعل ليسير كل منا في طريق لا نلتقي بعدها أبدا؟

كنت متلهفا وأنا أفتح كتيبها.. أبحث عن نفسي:

"عظمة رب الأكوان تتجلى في سرائر خلقه.. وتزهو ببهاء باطنه وظاهره.. فسبحان من له الشأن في جميع خلقه.. الرحيم بعباده. الخالق لما نرى وما لا نرى في أكوانه.. فالق الصبح من الظلام وخالق كل شيء بانتظام.

هو الله فيَّ وفيك.. حتى لو أنكرناه.. فهو من يجمع ويفرق.. وهو باذر الود في القلوب.. من علق قلبي وجعلك تذله.

هل كنت تحسب بإبقائك لتلك اللفافة قتل أشواقي إليك؟ أم قتل شوق كنت أظنه فيك.. لكن لماذا؟

ومع ذلك لم أتوقف.. كنت أكتب وأبقي ما أكتبه.. ثم جمعته في هذا الكتيب الصغير.. أخفيه في ثنايا ثيابي أشده إلى بطني خوف اكتشافه. أخفيه كما يخفي الفاعل لجرمه.

في الأيام الأولى لتوقفك عن الرد ظللت أنتظر .. ثم مرت شهور.. وأكملت سنة على غيابك.. بعدها أدخلتني في حيرة . أردد: لم يتوفاه الله .. ولم يهرب من ذي جبلة! فماذا يشغله؟ ليلهبني الشوق وأتعجب لقوة صبرك وتحمل وحدتك. ويالدهشتي حين كان حضورك يزداد كلما أمعنت في الغياب.. أشعر بوجودك بداخلي كما تشعر الأم بجنين أحشائها.. أشتم رائحة آمنت بأنها لك.. هكذا تخيلت لك رائحة. وكثيرا ما يحضرني تذمرك المثقل به رسائلك.. وتلك العاطفة والشوق ما لبثت أن كونت فيَّ روح هي روحك. لذلك حين كانت تعصف بي الملمات أحسك بها جواري.. وفي لحظات وحدتي أشعر بك تجالسني.. حتى كلماتي أضحت شبيهة بكلماتك.. وهذه هي بين يديك.. فهل تراها كلماتك أم كلماتي.

سارت الأيام وأنا أبحث عن فرصة أفي بوعدي لألتقيك.. فرحت بأول لقاء رسمته الأقدار لنا.. والتقيتك.. بل وجلست إليك.. وفي كل مرة كنت أغالب نفسي التواقة لأن تخبرك من أكون.. لكني فضلت ألا أفصح عمن أكون خوفا عليك.

لم أفكر يوما أن تأتي بمثل ما صنعت.. تتابعت الشهور لأدرك بأنك كنت جاداً في مقاطعتي. ستقول بأني من بدأ.. لأكتب مبررات ليس إلا بعد كل غياب. لكنك كنت أكثر من يعرف ويقدر حياة جواري ذي جبلة.. فقد شرحت لك مرارا في رسائلي أن الموت ينتظر أبسط عذر.

تركتني غير مصدقة أتساءل: هل نضب شوقك الذي كنت تردده عليَّ؟ أم أنك شفيت من وهمك؟ وإن شفيت.. لماذا لم تعلمني كيف أشفى؟ لكن حتى لو علمتني فلا أستطيع طمس كلمات شوقك؟ قد تكون نسيتني.. مع ذلك فقلبي عامر بك وحدك. تلك اللفافة التي كانت تخبئ أسرارنا بعد أن أبقيتها

انقلب الوضع وأصبحت أنا من المنتظرات. حينها شعرت قدر معاناة انتظاراتك. وأتذكر آخر رسالة منك حين شكوت فيها وحدتك.. كان ذلك منذ سنوات وسنوات.. كتبت إليك ولم ترد بعدها .. لأدرك بأن طريقا جديدة تسلكها روحك. في الوقت الذي أخذ قلبي يتأملك.. لأعيش معك رغم قطيعتك. إلا أن رغبتي في لقياك ظلت تلح عليَّ.

وهنا أعود بك إلى أول رؤيتي لك فيها.. كنت في حضرة سيدتي الملكة سيدة.. في قصر ذي جبلة.. لا زلت أتذكر هندامك.. هيئتك الغريبة.. كما لو كانت الآن.. وأسمع صوت سيدتي يوجهك.. يريك ما عليك صنعه.. يختار لك اسما جديدا. يطلب منك طمس أمسك. أثناء تلك اللحظات كنت أتأمل سكينتك وخنوعك.. أصابعك المرتجفة.. نظراتك. وصوتها يحذرك من الثرثرة.. وأن تنسى ماضيك. لم تتكلم أنت ولم نتعرف إلى صوتك.. حتى ملامح وجهك ظلت تحت شعرك الكثيف. رق قلبي . انتهت المقابلة وقد ظننت بأن مشاعري نحوك لحظية. بل وللحظات حسبتها شفقة .. لكنه الليل مرجل الأحاسيس.. أمست هيئتك حاضرة.. سألت في اليوم التالي عنك.. لأجد أن أكثر من جارية مشغولة بك.. بل وبعضهن لولا الخوف من العقاب لخرجن يهمن في عشقك.

عرفت بعد ذلك بأنك جُلبت من صنعاء.. بعد أن أوصل مستشار سيدتي إليها كتابا في الحب بخطك. وأنها أعجبت بجمال حرفك.. فأشارت عليها إحدى جواريها المقربات بجلبك. واستخدامك لنسخ رسائلها.

كنت أنا من يرسل ويستلم منك البريد.. حينها سحرني رسمك لحروف الكلمات.. ونقوش الحواشي وألوانها.. لا أعرف بعد ذلك إلا أن شيئاً ما دفعني للمغامرة بالكتابة إليك.. لينفخ ردك في روحا جديدة.. إذ إنك تكتب بحرقة وألم المحب الملتاع.. كنت سعيدة رغم أن تلك الرسائل لغيري.. وما كنت تكتبه كان يجد مستقرا في نفسي.. يعجبني وهم أنها إلي رغم إصرارك.. ورسالة بعد أخرى تحولت المشاعر إلى يقين .. وفجأة تنقطع رسائلك بعد أن أسرت قلبي . لأعيش سنوات طويلة من الألم والتعاسة.. أبحث عن وسيلة لأسألك عن السبب. يئست بعد عدة محاولات.. لكنها ألطاف الأقدار تخبئ لنا ما يسرنا".

أحسست بمضغة ألم تستقر بداخلي من كلماتها.. تملكتني رغبة فأجهشت باكيا.. ولم أستطع مواصلة القراءة.. عقدت الشريط الحريري.

-٦-

وجدت نفسي أقاوم دعوة كتيبها لمزيد من الألم .. أخرج من برجي لأتأمل ذلك الفضاء الذي يزداد سحرا.. أتخيل عيني شوذب تتأمل نفس المنظر.. وكذلك فارعة.. أن يجمع عيوننا أفق تنظر إليه.. جبال تتأمل شموخها.. وديان تسعد لخضرتها.. وهذه السماء تشي بغدٍ أكثر أمل.. أم أنها تتواطأ مع قتامة جدران القصر. أطوف ذلك السطح الواسع أرى ما يحيط به.. يدعوني كتيبها.. ألتقطه في وجل ساحباً شريطه الناعم:

"احتدَّ الصراعُ بين سلطان أشيح والزواحيين أخوال الملكة.. واتسعت لينقسم أمراء جزيرة اليمن بين مؤيد للسلطان سبأ وآخرين في صف الزواحيين الذين كانت سيدتي الحرة تؤيدهم.. ما هدد بانقسام أمراء المملكة. ليتدخل أمير المؤمنين في القاهرة بإرسال موفده لحل الصراع.

لم يُخفِ الابن الأصغر معارضته على تصرفات أمه.. رافضا احتجاز أخيه الكبير.. وانحيازها إلى صف الزواحيين ضد السلطان سبأ.. ما دعاه لإعلانه رفض تصرفاتها.. والخروج مع الملك إلى صلاة عيد الأضحى.. حيث وقف خطيبا في المصلين ذاكرا دور جده الملك علي محمد الصليحي في جمع كلمة أمراء وسلاطين جزيرة اليمن.. وكذلك دور والده المكرم في العمل بشريعة الله.. مثنيا على أخيه الملك علي الذي يسير على نهجهما في فرض الشريعة وبسط الأمان.. داعيا الجميع تأييده لإخماد الفتن وبسط الأمان.. ولم يذكر والدته قط وهي من تُذكر ككافلة للمؤمنين على جميع منابر المساجد. ليعود ومن يرافقه من أمراء الحصون والقلاع المحيطة إلى إحدى الدور الملحقة بالقصر بعد أن استحدثها مقرا لاستراحته. لم تخضع سيدتي الحرة لما يدور.. بداية بمعاقبة عدد كبير من الجواري ممن اتهمتهن بالتهاون في واجباتهن.. ثم دعوة ابنها الأصغر ومثوله بين يديها في جناحها ليسمع الجميع تقريعه على ما قام به من عصيان .. ليفاجأ

الجميع برفع صوته في وجهها مهددا الحجر عليها إن لم تعلن رفع وصايتها عن أخيه الملك وتركه يقوم بسلطانه ولم يعد صبيا.

أعلن القصر خبر وفاة الابن الأصغر بمرض مفاجئ.. والبالغ السابعة عشر من عمره.. ولم تُقم أيام عزاء ولا مظاهر حزن .. ولم تُرَ جنازة تخرج من أبواب القصر.. لتعتكف بعدها سيدتي لأيام حزنا على ابنها.. خلالها كانت قد كلفت بيلسانة إحدى جواريها المقربات لتشرف على المراسلات ومتابعة سير أمور القصر في غيابها. وفي ذلك سمحت لي أيضا أن أكون ضمن جوارِي البريد. وهكذا واجهتك لأول مرة وجها لوجه.. أحسست بقلبي يسقط بين أقدامي.. أخشى أن تلحظ إحداهن دوار النشوة بي. عدد ممن يأتينك بالبريد يتحدثن عنك ومنهن من كنت برفقتهن.. كيف لو عرفن من أكون؟ وما أشعر به تلك اللحظات. في البدء ظننت أنك لست من كان يبادلني الرسائل.. مكثت أول صباح أتأمل رغم هيئتك التي رأيتها أكثر من مرة في حضرة سيدتي.. كنت أتمنى أن أسمع صوتك.. شككت في عينيك حين نظرت إلى عيني. وصباحا بعد صباح كنت أسمع صوتك الذي كان يتردد صداه في كل أوقاتي.. حتى أيقنت بأنك أنت.. وذلك ما كان يشغلني.. لتستقر في ذهني إنساناً جديداً بروح لا تفارقني. أسمع من يتحدثن حولك ومن تتمناك.. تضحك روحي مغردة أنه لي وأنا له رغم كل شيء. وهكذا لصباحات عدة أرافقهن نسلمك ما يراد نسخه ونحمل ما أنجزته.. لم يكن الوقت كافياً ولا آمناً لأخبرك من أكون. وإن كنت أستعد لتلك اللحظات طوال ليلي.. نجحت بكبت مشاعري.. أخفي ما عليَّ من وَله.. وإن كانت نظراتي تفضحني.. ظننت في بداية الأمر بأنك تَعرَّفت عليَّ حين كانت تلاحقني نظراتك.. لكنك خيبت ظني حين

.....

فاجأتني بعد أيام بزيارتها الثانية.. كانت تلبس عباءة تظهر رشاقة تقاطيع جسدها.. جلست على مقعد مجاور بعد أن رتبت ما جلبته من خبز وطعام وبكت حلوى في أدراج مجاورة.. تتصرف بتلقائية محببة.. تحدثني كما يتحدث صديق يواصل ما انقطع.. مادة إليَّ بكتاب.. قلبته بين يدي لأرى اسمها على غلافه.. تصفحت بعض صفحاته لأقرأ قصائد شعر ووجدانيات عاطفية.. نظرت إلى وجهها دون أن أنطق.. هزت رأسها مبتسمة وقد أغمضت عينيها كمن تقول نعم هي لك. شكرتهاعلى زياراتها.. وعلى قصائدها. ممسكا كفها أقبله.. لم أجد ما أقدمه لها.. غير أني التقطت نسختي من حكايات جوذر.. مددت لها بها: يمكنك قراءتها .

تركتني أنتظر أن تتعرف علي. وهكذا لأيام ظللت أنتظر المفاجأة بلهفة..أحضر معهن إلى دارك.. أحاول إطالة البقاء إلى جوارك.. ثم

أشقى بقية النهار وطيلة الليل حتى أعود صباحا. كنت أشوق إلى أن تتعرف علي بطريقتك. أو أني كنت أخاف من شيء ما.. أن أفقدك.. أن تنفر إذا ما عرفت بأني لست شوذبك. وقد فضلت الاكتفاء بنظراتك الحيرى التي تحاصرني بها.. صوتك الهادئ.

بعد أن عادت سيدتي من اعتكافها أبقتني كما كنت أودع البريد وأستقبل ما أنجز منه.. أفكر بسؤالك لماذا قطعت تواصل تلك اللفافة.. أتمعن في حروف ما تنسخه.. يعاودني أمل رؤيتك.. وسبحان الله الشفيق بقلوب عباده.. سبحان مجري الدماء في العروق وعالم بسرائر خلقه . من لايستقر على حال.. إذ إن طامة كبرى قد برزت من جديد.. وكأن القدر يحدث حدثا حزينا ليكون السبب في لقاءنا.. فبعد أشهر من رحيل الابن الأصغر لسيدتي. خرج الملك علي مطالبا أمه إعلان نهاية وصايتها. وكانت شديدة الحرص على ألا يتسرب ما يدور داخل القصر. قالت تحدث بيلسانة: كان ظني في محله حين شككت في السلطان سبأ.. لأكتشف بأن وراء العصيان إحدى الجواري.. التي استمرّت تحرض علياً على فرض سلطانه بخلاف إرادتي. جلستُ إليه محاولة إقناعه بالتريث بعض الوقت.. وفي كل مرة يظهر الطاعة.. ثم تأتي الأيام بما لا يسرني. وقبل أيام جلست إليه:

- أنت الملك ولا ينازعك على سلطانك أحد.. فقط هي سنة أو اثنتان يشتد فيها عودك. لكنه قاطعني على غير عادته ليصرخ في وجهي.

- لا.. لن أنتظر سنوات.. ولا أشهر.. هي أيام تعلنين بعدها للجميع بأني قد خرجت أمارس سلطاني.. وأن وصايتك انتهت. أيام ولا أكثر من أيام قليلة.

حاولت تهدئته:

- لا أريد لك إلا النجاح وعليك بطاعتي.

إلا أنه قاطعني مرة أخرى رافضا حتى سماعي.. متوعدا بالخروج . لم يكن ذلك هو ابني الذي ربيته على السمع والطاعة.. بعد أن أفسدته تلك المارقة.

لأعرف مؤخرا بأن تلك الجارية قد أغواها السلطان سبأ أثناء زيارة ابني إليه.. هي من كانت وراء كل ذلك العناء. بل وأن تلك الملعونة كانت تسعى لإقناعه بأنني من تخلصت من شقيقه الأصغر محمد. وأنه التالي إن لم يبادر.. ليسألها مرتجفا:

- كيف تتحدثين بهذا؟

- هو اليقين.. ألم تتساءل كيف مات محمد فجأة؟ ولماذا يموت شاب بعد مواجهة مع الملكة.. الكل يعرف أن سيدتي لا تخشاك.. كما كانت تخشى أخاك محمد.. نعم محمد أخوك الذي يقول الجميع بأنه يشبه أباك.. وأنه لو كان في مكانك لما قبل بوصاية أمك يوما.

- .....

- الجميع يعرف بأن شقيقك محمد لم يكن مريضا.. فقط لأنه واجهها ذهب إلى بارئه.. ألم تسأل نفسك كيف مات فجأة ؟

- لكنها أمي.

- سيدتي لا ترى في مجدها إلا أن تكون ملكة؟

وبلغني أنه صمت بعد كلامها ناظرا في عيني جاريته.. بعد أن أدركت بأنها استطاعت التشكيك في عاطفة أمومتي له.. وأن

الشك قد تسرب إلى أعماقه.. أردفت الجارية مستغلة انكساره:

- أنت تعيش ياسيدي في جناحك ولا تعرف ما يدور في القصر الكبير.. بل وتنتظر حتفك.. إن لم تسارع إلى التخلص منها ستلحق أنت بمن سبقك.

.....

ولم تتأخر حين عادت بنسختي وهي تشكرني كثيرا.. شكرتها على إهدائي نسخة من ديوانها.. ناقشت بعض ما قرأت.. كانت مزهوة بآرائي حول شعرها.

ليصرخ مرتجفا:

- اخرجي.. أنت بائسة.. بل شيطانة. ولا تعودي لمثل وساوسك اللعينة.. وإلا...

لم يكن ما كانت تقوله هينا عليه.. فبعد خروجها لم يهدأ له بال.. بل ظل صوته طيلة الليل يتردد كمن يحادث إنساناً ما. ولعدة أيام تحلق حولي بعض المصابين يستمعون مني لحكايات جوذر.. وهكذا كل مساء.. حتى تلك الليلة التي حضر بعض الغرباء لاقتيادي بتهمة قراءة حكايات تحريضية ضد الثورة ونشر الإحباط بين صفوف المصابين.. ولعدة أيام حُجزت في مبنى ملحق بجامع أبي بكر الصديق المجاور للساحة وصُودرت تلك النسخة.. أرسلت من يخبر ذلك الضابط الذي سريعا ما حضر للدفاع عني إلا أنه فشل.. كانوا مصممين أن هناك من أرسلني لتخريب عقول الشباب.. وتم إرسالي بعد ذلك إلى سجن بداخل الفرقة الأولى مدرع المجاور للساحة.. عنبر تحت إحدى مباني الفرقة المنتشرة خلف أسوار عالية.. دون نوافذ.. يطلقون عليه "الضغاطة".. أنشئ كمخبأ سري. لم يدم سجني لأكثر من عدة أيام.. حين حضر صديقي الضابط بأمر إطلاقي من علي محسن.. لم أعد إلى المستشفى.. وتم شطبي من اللجنة الإعلامية.. حاولت إقناع صديقي الضابط باستعادة نسختي منهم.. لكنه نصحني بنسيان الأمر.

-٧-

صمتت سيدتي تتأمل وجه بيلسانة.. كمن تريد اكتشاف ردها. ولما كانت صامتة عاودت حديثها بصوت هادئ: أنت بمقامي.. عالجي ما يدور.. فقط أريد كل شيء بعيدا عني! كان صوتها باردا وهادئا .. ووجهها الأشقر كما لو أن الدم يتدفق ليزيده احمرارا.. أضحت عيناها أصغر مما أراها دوما. غشتني رعشة خوف تخللت أطرافي وأنا أتساءل هل عنت ما عنته كلماتها؟

استأذنت بيلسانة سيدتي أن تلحقني مع مساعداتها.. كنت سعيدة بذلك الاختيار. لكني شعرت ونحن نسير في أروقة القصر بحزن يتلبسني. جمعتنا بيلسانة حولها وأمرتنا بسرعة إفراغ جناح الملك من الجواري وعزله.. لم نجد من تقاوم أو تتمنع حتى الملك بدا مذهولا وقد وقف محتارا ونحن نقود جواريه خارجا: ماذا تصنعن؟ سينالكن عقاب الملكة! يكرر بصوت مرتبك.. وحين طلبت منه بيلسانة أن يرافقنا سار طائعا وكأنه يزف وحوله حشمه.. أنزلناه عبر سلالم الطوابق السفلية حتى شونة الغلال المنشأة حديثا خلف القصر.. وما إن وصلنا به ممرات الشونة حتى انهار أرضا.. ليُحمل على سواعدهن. ناظرا إلى حوائط صماء متشابهة.. خيوط أضواء تدخل من فتحات علوية صغيرة.. حتى قاعة داخلية حيث تجمعن فيها جواريه المتواطئات.

أشيع في اليوم التالي أن الملك الشاب قد أصيب بمرض داء الكلاب.. وأن الحكماء عاكفون على مداواته. في الوقت الذي رفض تناول أي طعام أوشراب.. يتبول مرتجفا في مكانه. طلب مرارا مقابلة الملكة.. طلبنا منه أن يبوح بما يريد قوله لنوصله إليها.. لكنه رفض التفوه. أرسلت بيلسانة إحدى الجواري.. لكنها لم تعد ولم يعد لها وجود.

-٨-

وللمرة الثانية تلتقي عينانا.. وأظنك تتذكر تلك الليالي التي جلست أمامك طوال الوقت لمساعدتك ومجموعة من الجواري على نسخ رسائل العزاء.. كنت أشكر العلي القدير لأن بيلسانة قد أرسلتني ومجموعة من الجواري لمساعدتك على نسخ رسائل العزاء. تمنيت لو أن تلك الأيام طالت.. أتذكر بأن عينيك كانت تتبعانني.. لكنها أيام قليلة ثم افترقنا.. انفضَّ ذلك الجمع.. لأعود إلى سابق مجالسة سيدتي التي أظهرت جلدها هذه المرة.. ولم تعتكف حزنا أو تنزوي كما فعلت مع رحيل ابنها الأصغر محمد.

لم تمض أيام على رحيل الملك الشاب حتى دعت سيدتي مستشاريها ودعاة المذهب. لتطلب منهم نشر كفالتها لجميع المؤمنين والدعاة الميامين والحدود المستجيبين خير كفالة.. كما طلبتهم إيصال إيضاحها البراهين

في ولاية الأئمة وإظهار معالم الدعوة للتابعين وإبانة عدم وهنها لما أصابها في سبيل الله. وكان ذلك منها لقطع الطريق على سلاطين القلاع الطامعين في حكم البلاد.

بعد ذلك جمعت جميع جواريها في ليلة مقمرة.. صلت بهن طوال الليل.. حدثتهن بأن مملكة جزيرة اليمن لهن وهن من يحكمنها منذ تلك الليلة دون شركاء أو أوصياء .. وأنها الملكة الحرة التي لا تعتمد على جيش من الرجال.. وأن النساء الجواري شريكاتها.. ولم تسع ولن تفعل على امتلاك عسكر في عنابر قصرها. ثم أخذت تتحدث إليهن: جميعنا شريكات في مملكة تخصنا. شارحة أهم المخاطر وطرق مواجهتها. متوقعة تكرار مطالبة السلطان سبأ الصليحي بالملك.. كما عددت احتمالات مساندة بعض أمراء القلاع والحصون له. وتحرك النجاحيين لاستغلال الخلاف والصعود لضم الجبال العالية إلى إمارتهم.. ولم تستبعد أن يستغل دعاة المذهب الزيدي في صعدة لينشروا دعوتهم ضد وجود امرأة على رأس مملكة جزيرة اليمن.

معلنة بوضوح اليوم هو يوم فاصل وعلينا حماية جزيرة اليمن.. وألا نسمح بإعادتنا إلى كائنات مستلبة إلا إذا سكن الفشل أعماقنا. مستشهدة بقول الله في كتابه العزيز:

- لا تهتم بي.. أستطيع تدبر أموري.

.....

لم أفارق الساحة رغم ما تعرضت له.. أشارك في المسيرات والاحتجاجات المتتالية. متحملا صعوبة حركة ذراعي.. نتيجة تلف بعض أعصاب الكتف. وأمسى البعض يطلقون علي "الأشول" بدلا عن اسمي.

أتردد على صديقي الضابط الذي نصحني بالابتعاد عن الساحة مؤقتا..هامسا: أنت مستهدف! متعجبا لما يقوله.. ليعترف دون أن يبرر بأن السيطرة على الساحة أمست للتيار الديني.. وأنهم يصفون العناصر اليسارية النشطة على طول البلاد.. والثورة يحسبونها ثورتهم.. وهم المتحكمون بتمويل الساحات والمسيرات من خلال اللجان المتعددة.. ولهم قدرة السلطة نفسها في امتلاك السلاح من خلال الفرقة أولى مدرع.. وفرض أنفسهم بإقصاء التيارات الأخرى. وللمرة الثانية يطلب مني الابتعاد.. سألته عن نفسه! جرني بغضب.

"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " وأنتن المعنيات بخطاب رب الأرباب.. وليس المعني ذلك الرجال دون المرأة.. ومن تستبطن تأويل قوله عز في علاه" :ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون "ستدرك بأن المعني بذلك ليس الرجل أو النساء.. إنما الإنسان.. وعلينا أن نمضي على طاعته . ولا نعطي أولئك الطامعين فرصة كي يعيثوا بنا فسادا. ها قد مضى على حكمنا أكثر من عشرين سنة.. بداية بسيدتي الملكة أسماء أجل الله منزلتها مع الصالحات.. التي كان سلطانها مستتر تحت ولاية سيدي الملك علي الصليحي.. ثم سرت أنا على نهجها تحت ولاية الملك المكرم.. بعد ذلك أستمر سلطاني كوصية على ابني علي.. خلال تلك السنون كنا نسافر لهذا اليوم.. وها نحن نصل إليه.. أن تحكمن دون شريك.. عماد حكمكن العدل.. واليوم حقا عليكن أن تستمررن وبأنّكن قادرات على المضي بجزيرة اليمن كواحة آمنة ومزدهرة.

منذ تلك الليلة.. زادت سيدتي من أوقات الصلوات الليلية للجواري.. فكان الليل يبدأ بصلوات جماعية مستمرة .. يعقب ذلك درسها.. حتى مشارف الثلث الأخير. ودوما في درسها الليلي تتحدث إلينا عما يجب صنعه بغدنا.. موجهة رئيسات الجماعات والأمهات إلى ما يجب فعله.

-٩-

صدقت توقعات سيدتي.. إذ لم تمض أيام حتى وصلت الأخبار تباعا بتحركات قبائل السلطان أبي حمير سبأ الصليحي من الشمال باتجاه ذي جبلة.. ولم تلبث أن وصلت لتضرب حصارها لذي جبلة مطالبا بتنفيذ وصية الملك المكرم كخليفة له. سريعا ما أرسلت الملكة بدعوة أمراء حصون وقلاع التعكر وحب وقيضان وخدد والدملوة وصبر وعدن لجمع قبائلهم تحت قيادة أمير حصن التعكَر المفضل بن أبي البركات الذي أعلنته أميراً لأمرائها.

نصعد أسطح قصر ذي جبلة.. وعلى مدى أشهر نتابع أعمدة دخان إحراق بعض القرى وهدم القلاع والحصون .. ليفر من نجا من سكان تلك النواحي من بطش قبائل السلطان. تعددت الوساطات لإقناع الملكة بتنفيذ الوصية والتسليم بالسلطان سبأ ملكا.. الرفض القاطع كان ردها. أرسل من يطرح عليها الزواج منه.. لتضحك ساخرة من تلك الحيلة.

استمر الحصار لأشهر. ظلت الملكة على موقفها.. وفي صباح مشمس تفاجأ الجميع بانسحاب قبائل السلطان سبأ باتجاه الجبال الشمالية.. تنفس الجميع بعد هزيمة السلطان.. لكن المفاجأة كانت قاسية على الملكة حين وصل رسل القاهرة يطلبون مقابلة الملكة.. كان بمعيتهم أحد مساعدي السلطان سبأ.. ويعرف بابن الأصبهاني.. وفي حضرتها قُرِأت رسالة من مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله جاء فيها:

"وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ظل ظلالا مبينا" وقد زوجناك من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن مظفر الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار ذهباً عينا.. وخمسون ألفا أصنافا من تحف ولطائف وطيب وكساوى".

لترفع كفها عاليا وتقول لمن حضروا مجلسها "أما كتاب مولانا فأقول إني أُلقيَ إليَّ كتابٌ كريم إنه من مولاي أمير المؤمنين..وإنه باسم الله الرحمن الرحيم.. ولا أقول في أمر مولانا أيها الملا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون.. أما أنت يا ابن الاصبهاني فوالله ما جئت إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمرا فصبرٌ جميل.. والله المستعان على ما تصفون". ليتبين أن السلطان سبأ كان قد أرسل رسوله الأصبهاني إلى القاهرة.. طالبا من أمير المؤمنين تزويجه من سيدتي.. بينما ظلت مظاهر حصاره لذي جبلة كوسيلة لذر الرماد على العيون.

ليدخل السلطان سبأ مساء ذلك اليوم ذي جبلة يحفه وجهاء قبائل الجبال العالية.. أفسحت الملكة أحد الدور الكبيرة لضيافته.. ولأيام ظل يقدم ما اشترط عليه من أموال وهدايا.. إلا أنها ظلت ترفض .. ولا يزال يراضيها حتى قبلت بالزواج.. فأغدقت هي من ضيافات أضعاف ما قدم لها. وظل ينتظر بأن تسمح له بالدخول عليها أسابيع طوال وهي تمانع حتى تلك الليلة التي أوصلت إليه عروسه.

أسرد عليك حكايات عشتها .. وحكايات لها صلة بفراقنا.. ورغم تلاقينا أكثر من مرة .. إلا أن الحنين يظل أن أكون إلى جوارك".

زادت كلماتها من عتبي على نفسي.. ما دفع دمع عيني للانسياب.. أعاهد نفسي إن عادت لن أتركها .. وقد غفرت كل وشاياتها.

لففت كتيبها بشريطه الحريري.. تركت فضاء السطح ودخلت برجي منهك الروح.. محبطا.. سحبت كتاباً آخر.. مستعرضا عنوانه.. أقلب صفحاته.. لأدرك أنه ليس غريباً عليَّ .. ألتقط آخر.. لتعود تلك العناوين بذاكرتي إلى كتب المعلم التي اختفت بعد هدم الحانوت.. لحظتها دهشت متذكرا تلك الكتب التي مرت عليَّ عناوينها.. أنها الكتب التي وعدني اليامي بضبط سارقيها.. وإعادة بناء حانوت صنعاء.. أخافني ذلك الاكتشاف.. وسؤال يذوي في أعماقي: كيف وصلت هذه الكتب إلى قصر ذي جبلة ؟ وتلك المخطوطة التي أهديتها ذات يوم لليامي. صُعب عليَّ الأمر.. ولم أجد إجابة.

عكفت لأيام على قراءة إحداها.. أترك برج الصمت لأتمرغ بشمس السطح وقتا.. أعود بعدها أقضي أوقاتي في قراءة تلك الكتب.. وقد ذهبت بي بعيدا. لأجد ذاتي القديمة. وهكذا أقلب وقتي بين قراءتها وكتيب شريط الحرير الذي تبكيني حكاياته..تعيدني إلى لحظات كنت أظنني نسيتها.. أرى نفسي بعيون تدفعني لأرى قلبها يتنفس تلك الحكايات.

أتمدد لأفكر قليلا في حياتي الماضية فتجنح ذاكرتي مرة أخرى إلى أيام كانت هي إلى جواري في دار النسخ.. حينها كنت أستعيض بالأحلام بديلا عن عجزي.. متخيلا مشاركتي تنباك النشوة... ليبحث كل منا عن الآخر بين سحب دخان أخذنا باستنشاقه طيلة الليل.. لا أدري على ما كنا نقهقه.. نتحاضن بنشوة غمرت حواسنا.. تنهض حاملة دفها.. نقرات متتالية.. أراها تتمايل طربا.. أنهض.. أحتضنها في وجد وسعادة. أراقصها طيلة الليل حتى أعيتني قدماي لأهوي أرضا.. مكومين فوق بعضنا نقهقه عاليا.. تتقد رغبتي.. أهم بها.. تتملص بنعومة حتى أطراف الفراش.. أحملها بين ذراعي عاليا.. ناظرة بعينين تطفحان رغبة.. لأصحو من أحلامي بين فراش المرض أعاني عجزي ومرضي.

أتذكر بعد تركها لي ممددا على فراش المرض.. أن دار النسخ أمسى موحشا .. وأن جدرانه ضاقت بي.. قضيت بقية نهاري وطوال ليلي دون نوم .. خرجت مع آذان الفجر أحمل مرضي.. أسير وسط برد قارس وقد صممت على الهروب بعيدا.

لم تكن لي من طريق غير سفوح الجبال الجنوبية التي كنت أرى الريح تداعب أشجارها.. أتجنب من أراهم من المزارعين وعابري السبيل.. اختفت ذي جبلة وتلك الجبال التي كثيرا ما شاهدتها.. بدت قرى جبلية أخرى لا أعرف أسماءها ولم أرها مِن قبل. فقط أهرب بعيدا. سرت إلى أن وجدت محجة العابرين حتى وصلت مدينة الجند.. دخلت جامعها الكبير.. شاركت حلقات دراويشه وصلواتهم.. ظننت بأني في المكان الذي لن يتعرف عليَّ أحد فيه وأني سأظل إلى ما شئتُ. لكنني عدت إلى ذي جبلة بعد أن اقتادني عسكر حصن التعكَر.. فضلت الصمت على أسئلتهم.. وأتذكر بأني وقفت في حضرة مولاتي.. أشعر بعيون تتفحص عري نصفي الأعلى .. لم أرفع وجهي. همسات الجواري تحتفي بفشلي. ليعلو صوت يبشر بحضورها. ليعم الصمت. رفعت عيني ..كفها الحليبي تبعه صوتها.

- ظننت حين أبلغوني بغيابك أن يكون مرضك قد تاه بك.. لكن أن تصل إلى جامع الجند فهذا أمر مريب.. وأسألك ماذا كنت تنوي؟ ومن دفعك إلى ذلك. أسمعك؟

أحسست بترقب كل من في القاعة .. تعالى وجيب قلبي.. تشجعت:

- عطف مولاتي في أن أتحدث دون أن يسمعني أحد.

- ولِمَ ذلك؟

- لأبوح لك بكل شيء.

وسريعا ما ارتفع كفاها بتصفيقتين.. لتفرغ القاعة.. حتى من بقايا همسهن.. عدا اثنتين.

- أتسمحين لي أن أبدأ من أول الحكاية؟

- أسمعك.

- جلبني إليك مستشارك الراحل.. وكنا على اتفاق.. كان مستشارك قد وعدني بضبط من هدموا حانوت معلمي الكائن في سوق الوراقين بصنعاء وإعادة ما سرقوه من كتب. لكنه رحل دون أن يفي.

- أمر ذلك يسير.. وماذا بعد؟

- لم أتصور أن يكون قصر ذي جبلة حبسي .. ولم آتِ طمعا في شيء بقدر ما قادني قلبي للحاق بمن أعشق.. حلم أن أعيش يوما مع من أهوى.. لكنني لم أجد طريقا إليها ويوما بعد يوم يسومني العشق ألوان عذابه ولا من مغيث.

- وهل يدعوك العشق إلى الخيانة؟

- عفوا مولاتي إن كنت قد خنت فلم أخن إلا نفسي!

- كيف ذلك؟

- ضياع سنوات عمري وأنا أجري خلف أمل لم يتحقق.

صمتُ قليلا ثم أردفتُ: لأكتشف بأني أعيش دون أمل.. فما يبقيني في ذي جبلة؟ ولم يعد لحياتي أي معنى. موت قلبي هو السبب في رحيلي.. واليوم

الحياة والموت يتساويان لدي. وهذا أنا بين يديك اصنعي بي ما تريدين.. فلم يعد يهمني شيء.

- ومن أحدث ذلك النقب؟

لحظتها أدركت بأني في مأزق. وأن ما سمعته فارعة من هذيان نومي قد يكون دليلاً. خفضت صوتي أتوسل:

- أعترف في ظاهر ما قمت به خيانة.. لكني لم أكن أبطن شيئاً غير معرفة مصدر الصوت الذي جعلني لا أنام.. وثقي باني لم أفكر يوما بخيانتك.. هو الخوف ما دفعني لحفر ذلك النقب.. لم أكن أتصور أن تكون لريح حتى فتحت ذلك النقب.. ولم أتوقع أن يقودني ذلك إلى عفن كرهت نفسي بعده .

- وماذا تنتظر منا؟

- أن تغفري زلتي .. وتتركيني أرحل .

- من يعمل في خدمتنا يظل في شرف حمايتنا.

- الأمر لك .. وأتوق إلى ما يخلصني من عذابي.

صمتت.. وبعد حين رفعت كفيها بثلاث تصفيقات.. لتتدفق جموع الجواري إلى القاعة. ويعاود الهمس.. يعلو صوتها من جديد:

- هذه المرة سأغفر لك.. وإياك وتكرارها.

ولم تضف.. اصطحبني مجموعة جوار.. لم تهامسني شكوكي وهن يسلكن بي سلالم هابطات بي إلى دار النسخ.. كنت في شوق إلى غرفة شوذب. لم يكن لي إلا أن أجلس بين يديها.. أشكو لها بؤسي.. واضطراب حالي. تنظر من طرف عينيها وهي تدور وتدور.. تلك الابتسامة حول فمها الصغير تمسح ما بنفسي من عتب.. تغريني أن أبتسم. راقصتها حتى زال ما بنفسي من وجع.. أطير كريشة في فضاء واسع لا تحده جدران الغرفة.. حكيت لها شوقي إليها.. لم تغير من نظراتها.

اشتقت لألواني وريشي.. مكثت أياما أنقش وألوّن حولها بفرح العائد إلى حضن الأماني.

-١١-

أتمدد ناظرا إلى سقف البرج.. عائدا إلى سنوات مضت.. إلى ذلك اليوم الذي قرأت فيه آخر رسالة منها.. لأصاب بحنق اجتاحني وأنا أتوسل ردودها حين تدعوني أشهراً من الإنتظارات.. لحظتها كبلني حنقي إلى إبقاء اللفافة وإنهاء المراسلات بيننا.. لأحمل ندمي طوال سنوات حياتي.. كنت أظن بأن عدم ردي شجاعة ستؤدي إلى طرق أخرى. أتذكر أيام سنة ٤٨٠.. لأعاني نداء ظل يدعوني إليها. أسأل نفسي: لماذا عليَّ أن أعاني؟ لماذا هي لا تعاني؟ لأكتشف بعد سنين طويلة أنها لم تتوقف عن معاناتها. وهذا هو كتيبها بين يدي يجعلني أكثر ندما.. لأتمنى لو أنها لم تكشف بأنها من كانت تبادلني رسائل تلك اللفافة الغريبة. وأن من كان يكاتبني شوذب.

في شوق أحل الشريط الحريري.. أخرج.. أسير في سطح القصر مقلباً أوراق كتيبها.. أسابق ضوء الشمس قبل مغيبها.. أواصل البحث عن نفسي بين ثناياه.

"بين وقت وآخر ترسل الملكة هداياها من الجواري إلى أمراء الحصون والقلاع.. اليوم تأمرنا بإلباس الجارية بيلسانة التي أمسى اسمها العروس أفخر ثيابها وأجمل حليها. لتزف ليس كجارية.. من قصر العز إلى الدار المخصصة لنزول السلطان سبأ.. اعتلت العروس ظهر خيل معنقة.. تتراقص فوق بسط ملونة.. فرشت حتى دار العريس.. امتلأت الساحة

.....

زادت الصراعات والانقسامات داخل الساحة.. وأضحت الخطابة على منصتها مقننة بعد تغييرت طرأت على كافة لجانها: التنظيمية والمالية والأمنية والإعلامية والتموينية.. إلى آخر تلك اللجان.. لتبرز ظاهرة إقصاء من تبقى من التوجهات اليسارية والمستقلة.. وبذلك برز فرز خطير بين القوى اليمينية واليسارية من خلال حظر الخطابة إلا بأذن مسبق على المنصة. وكذلك توزيع الأطعمة والمال.. وملاحقة من يستهدفون بتصفيتهم أثناء المسيرات برصاص قناصة.. محملين قوات النظام قتلهم . لتنتشر شائعات مفادها أن معظم من يسقطون في المسيرات إنما يسقطون برصاص التيار الديني الذي كان بحاجة إلى مزيد من الدماء كي يستثير الرأي العالمي لصالح الثورة.. وبذلك استهدف الشباب المستقل وذوي الانتماءات اليسارية.

بالجواري.. لتتبختر خيل العروس فوق بسط وسجاجيد ملونة تحفها عشرات الخيالات. تسابقها حاملات المباخر والرايات البيض. تلك المسافة مسافة قاطعة في حياة الجارية العروس. صفوف من الحناجر الصادحة والقدود الراقصة.. حين أنزلناها من على صهوة الخيل.. رششنا فوقها قوارير ماء ورد وعطر هندي فواح.. ونُثر الزهور تحت أقدامها.. وصُفت صفوف البيض لتخطو عليهن.. كثيرا ما حلمنا أن نزف عرائس لكن كتلك الزفة لم تتخيلها جارية. سمعنا وعشنا أمراء يرتبون زفاتهم لبعض جواريهم.. لكنها لا ترقى إلى زفة العروس.. بدت ملكة تزف إلى سلطان. صعدنا بها درجات أفضت بنا إلى حجرة مضاءة بالمشاعل والمباخر..ثم حجرة أخرى فرشت بالطنافس وقد انتصفها سماط عامر بالأطعمة والفواكه المتنوعة.

السلطان كان متقدماً في العمر.. يبتسم وقد تدلت شفته المشرومة.. ينظر بعينين طافحتين بالرغبة. هامستني العروس وهي ترتجف: أرجوك البقاء.. أفزعني صوتها المتضرع. لكنا تركناها بين يديه.. وبقيت في حيرة من توسلها.. أنتظر خارج حجرة مجاورة طوال الليل . ولم يأتِ الفجر حتى سمعت صوتها يدعوني لإدخالها حجرة الاغتسال.. بينما كان السلطان يصلي صلاة الفجر لاهجاً بالشكر والثناء على ما وهبه الله من نِعَم.. ودعته العروس وقد تعالت أصوات الطبول وزوامل رجاله إيذانا بالرحيل. لنعود بها في زفة أخرى إلى القصر وسط غبش الفجر. من لحظتها أخبرتني بأنها استأذنت من الملكة أن أكون إلى جوارها حتى يقضي الله أمرا.

لم ينتهِ الأمر عند ذلك.. فقد أمست الجارية العروس في مكان الملكة كزوجة للسلطان سبأ .. كلما غادر تنتظره حتى عودته.. فما أن تُسمع الطبول وزوامل رجاله من جهة الشمال.. حتى نلبسها زينتها من حلي وثياب ثم نزفها في أبهى حلة.

كانت هي الملكة في حضوره. تحدثني: حين أكون بين يديه أبحث عن إحساسي بالسعادة فلا أجدها.. حتى تلك الزفة أورثتني غصة.. أنشغل

بالبحث عن ذاتي.. إحساسي دوما ناقص.. وإن عاملني السلطان بكل تبجيل .. وأعرف بأني جارية وإن زفتّني زفة الملوك.

ألحظها دوما تسرح كما لو كان هما ثقيلا يجثم بداخلها.. تلتقي نظراتنا.. ألحظ حزن ناظريها.. ودوما تقول لي: أبحث عن السعاة فلا أجدها. ظاهري أميرة وباطني أمة.

لم تكن العروس تشبه أحدا بين الجواري.. قليلة الكلام.. نادرا ما تفصح عما بخلدها.. حين تتلاقى نظراتنا أجد حيرة تطل من مخبئها .

-١٢-

مضت خمس سنوات منذ زُفت إلى السلطان سبأ.. تودعه لتعود تنتظر عودته.. وحين يعود ذي جبلة تزف إلى دار ضيافته حيث تُعد الولائم وتوزع الصدقات. تقضي ليلتها بين ذراعيه لتودعه بطبول الفجر.

إلى ذلك الفجر الذي اقتربت ترتجف وقد مالت بشرة وجهها إلى الاصفرار.. احتضنتها ظانَّةً بأن حمى أصابتها.. سألتها فهامستني مرتجفة: السلطان يعرف منذ أول ليلة بأني لست الملكة سيدة ! ويعرف بأني إحدى جواريها. كاتما ذلك حتى لا يشاع بخديعته. وما حيرني أنه ظل يعاملني كملكة.

ثم صرخت: ما أقساه على نفسه! خمس سنوات وهو يكتم ذلك.. مستمرا تبجيلي. لحظة بوحه أحسست بخجل أنساني وجودي.. زلزل كياني.. متذكرة عجرفتي في معاملته.. كما لو كان مجرد رجل عادي وأنا سيدته. وفوق ذلك كنت أفتعل الغضب.. بل وكثيرا ما تلفظت بكلمات التكبر كملكة.. يقابل ذلك بتودد.. يصفني بمليكته. حاولت بعد أن كشف سره أن أعتذر له لكني لم أستطع.. انتحبت بين يديه.

قالت بأنه لم يغير من معاملته وأنه طلب منها كتم ذلك السر. ثم حدثها عن رغبته في حكم جزيرة اليمن.. مبررا أن ذلك حقه تبعا لوصية الملك المكرم.. وأنها ستكون زوجة الملك إذا ما نجح.. كما أخذ يعِدُها بحياة رغيدة وهانئة.. وأنها ستكون في مقام ملكة. وبدورها تظهر سعادتها لما

يطرحه.. مظهرة حبورا بالغاً.. لتتطور رغبته ويوحي بضرورة التخلص من الملكة. واضعاً لها خطة للتخلص منها أثناء غيابه. ولم يكن ليشك بأنها تخبر سيدتي بكل ما يدور بينهما أولا بأول.. لتوجهها الملكة بأن تتودد إليه طالبة اصطحابها إلى صنعاء قبل ذلك.. شارطة السرية وعدم البوح بأن الملكة غادرت ذي جبلة.

دقت طبول الرحيل.. نفخت الأبواق وسط عتمة فجر ذي جبلة.. بزغت الشمس من على جبل ربي وكنا نعبر خضرة وديان السحول.. ليهرع لسماع صدى الطبول وجهاء تلك البلاد للسلام على السلطان.. مع صعود الشمس عرشها كنا نرتقي سفوح نقيل صيد.. ليستقبلنا أمراء قلاع وحصون تلك البلاد مقدمين هداياهم معلنين ولاءهم .. يلقي شعراء تلك النواحي قصائدهم بين يديه.. جازلا عطاياه.. وهكذا ما إن نحل على بلاد حتى يحج الناس إليه.. مطلقين عليه صفة الملك.. والبعض يصفه بملك ملوك جزيرة اليمن.. دون ذكر لسيدتي الملكة.

تحدثني دوما ما يُردِّد على مسامعها: أنت زوجتي. متخيلة نفسها ملكة.. تقارن بين عدة حيوات مفترضة: أن تكون ملكة زوجة ملك.. أو أن تعيش تحت أقدام سيدتها. كانت تلك الحيوات تتنازعها.. تستعرضها. ولأول مرة تشعر بأنها تستطيع أن تصنع قدرها . لتفضل أن تبقى تحت قدمي سيدتي..وهي الأقرب إلى نفسها. تهمس جازمة بأن سيدتي تعرف ما يدور بعيدا عنها.. بل وترى ما نصنع. ولذلك تشعر بالخوف من أي زلة حتى في تفكيرها.. ظانة أن لها جِناً مسخرين.. يتابعون جواريها أينما ذهبن. وأن ما يصلها يفوق رسائل جواريها من أصقاع وأطراف البلاد.

قضينا والعروس عدة أشهر في صنعاء.. إلى ذلك المساء حين هامستني: استعدي وبقية الجواري فقد حدثني عن نيته العودة إلى ذي جبلة بعد أيام قليلة. وكان أن اختارت الرحيل صباح يوم جمعة. خرجت مع الجواري إلى السوق لنبتاع بعددنا خيولاً وكساوي فرسان.. وأبقيت إحداهن لترافقها.

قبيل صلاة الجمعة لحقت بنا العروس مضطربة.. تستحثنا الإسراع بالخروج من صنعاء. سألتها مستفسرة: كيف كان صباح مولاي السلطان؟ لم ترد عليَّ وقد لمحت عينيها مغرورقة بالحزن.

لم ترد عدا نظراتها الشاردة.. خرجنا من صنعاء على ظهور جيادنا.. يحفنا الصمت.. كنت أحاول إخراجها من صمتها.. سرنا في أرض منبسطة.. نسرع الفكاك من أي تعقب.. كانت العروس قد تشرنقت بحزن خيم علينا.. حاولنا مساعدتها.. اتفقت وبقية الجواري على الاستمرار في معاملتها كملكة.. أن نطلق حكايات نسليها.. لكن صمتها كان أقوى.. بين فينة وأخرى ألمح عينين دامعتين.. عبرنا طريقا مختلفة عن الطريق المألوفة.. شاهدت بلاداً كثيرة لم أراها من قبل.. ولم تنطق حتى مشارف ذي جبلة كان الأمر صعبا!

- ولِمَ الحزن؟

- لا أعرف.. لكن كل شيء انتهى!

- كيف؟

- تعود أن يقضي وقتا في حوض كبير يغتسل قبل خروجه لصلاة الجمعة.. يتلذذ بالماء الدافئ.. كما يعشق أثناء ذلك ارتشاف نقيع العنب. ما إن دخل الحوض بضرب النساء والرجال.. لتتفرق المسيرة.. ولم أعرف في أي اتجاه سلكت الأستاذة.

وما إن اقتربت المسيرة من بوابة مبنى النائب العام حتى أطلق عسكر الفرقة أولى مدرع حراس البوابة الأعيرة النارية في الهواء. ثم باشروا

.....

لم أكن منتمياً إلى أي توجه.. ولم يعد لي استقرار في خيمة محددة.. بقيت أتنقل من خيمة إلى أخرى منتظرا كل صباح لأصرف وقتي بالمشاركة.. في مسيرات لا تنتهي.. نجوب شوارع صنعاء بصيحاتنا المدوية.

ومن جديد يضعني القدر وجها لوجه أمام الأستاذة.. حين لمحتني مشاركا في مسيرة تتجه إلى مقر النائب العام للمطالبة بإطلاق المحتجزين.. أمسكت بكفي تعاتبني في جرأة.. ثم أخذت تعرفني إلى من حولنا كأحد جرحى الثورة.. وتخبرهم بما عانيت من إهمال وتهميش كوني يساري الفكر!

حتى دعاني.. كان لطيفا.. كنا معا وسط الماء.. أخذ يدلك جسمي.. لحظات وسط الماء الدافئ حتى أخذ بمداعبتي ثم كان اللقاء الأخير.. خرجت بعدها لأجلب له ما يشربه من نقيع العنب. لم يخرج من حوضه الدافئ رغم قرب موعد صلاة الجمعة.. رأيت أطرافه تغوص.. ثم غطس جسمه.. والغريب أن بدنه لم يطفو. حاولت سحبه.. جحظت عيناه على اتساعهما.. ارتخى فكه.. قبلته على جبهته.. أخفيت وعاء النقيع.. خرجت محاولة إخفاء خوفي.. نبهت العسكر وحراس البوابة أن يستعدوا فالسلطان على وشك الخروج.. تاركة الجميع يستعد لمرافقة السلطان كعادته بقرع الطبول وإنشاد زوامل الحرب. بينما كنت هاربة نحوكن.

لأيام لم تجلس العروس عند قدمي سيدتي. وحين دعتها التزمت الصمت.. وسيدتي تتحدث: نحن في الحياة رسل عابرون ليس إلا.. فلا تشغلك إحدى محطاتها.. انظري دوما إلى الأمام.. واجعلي الغد شاغلك.. ولا تغرقك غرائزك لما دون ذلك. تسكت ناظرة إليها.. تعاود حديثها ضاحكة: بعض النساء كأنثى العنكبوت تلتهم زوجها بعد حفلة غرام ثم تحزن ما تبقى من الوقت"

أغلقت صفحاته.. عقدت شريطه الحريري.. سارحا في تلك الأحداث البعيدة.. تشدني كلمات فارعة إلى بيلسانة.. أو العروس. كما لو كانت تحكي عن نفسها.. أم أنها هي؟ سرت عائدا إلى برجي وقد انتشر رداء الليل وتزين بنجيمات خجلى.

-١٣-

تغمرني ظلمة الصمت.. تحلق ذاكرتي بعيدا بعيداً.. أرى أحداث ذلك الصباح البعيدة.. حين سمعت طرقا على باب دار النسخ.. سارعت لفتحه.. للحظات وقفت متخشبا وقد وقف ذو الساق الخشبية أمام الباب.. في البدء ظننته واهماً أو أن يكون ما أمامي شبحاً.. تأملته ممسكا بيراع تنباكه.. لم أكن أتصور أن يعود الأموات.. لم أجرؤ التقدم نحوه.. ابتسم وهو يتأملني:

- هيا احتضني؟

لم أستوعب أن يكون هو.. لكنه ظل فارداً ذراعيه بغبطة: هيا دعني أحتضنك.. ألم تشتاق إليّ؟!

كان ذلك هو صوته الذي لا أخطئه.. أيعقل أن يتكلم الأموات؟ أحسست بالأرض تميد تحت قدمي.. جثوت ولم أعد أميز ما أنا فيه.. أو ما يدور حولي. أفقت لأتيقن بأنه ذو الساق.. وقد احتضنني هلعا على ما حل بي.. كما لو كان يبحث عما يزيل شكي.. أتفرس ملامحه المتجعدة وشعلة البياض النقية.. محاولا استيعاب ما أنا فيه. وقد لف ذراعه حولي يسحب دخانه في هدوء.. ينفثه فاتحا فاهُ الأدرد:

- لقد علمت بعودتك.. وأتيت لأراك.. هل أنت بخير؟

- أنا بخير لكن رؤيتي لك آخر ما فكرت فيها.

- تبدو حالتك متعبة.

- لكنهم أخبروني بأنك ...

لم يدعني أكمل.

- من هم .. ولماذا أموت؟

- مثلما سمعت!

- ومن أين جاء علمك السيئ؟

- ذلك الغلام.

- ابني!

- ذلك الغلام ابنك ..كيف؟

- حكاية أحتفظ بها لنفسي .

- أريد سماعها.

- هو زلة شيطان.

- لا بد من أني في كابوس.

- لماذا كابوس.. سأحدثك عن حكاية غيابي. هيا اجلس لتشاركني التنباك.وأُسمعك ما لدي. ما أن جلست جواره حتى تبسمت تجاعيده مواصلاً حديثه:

صحيح أني فقدت الرغبة بالحياة بعد رحيل سيدي المكرم.. لكنك دون أن تشعر كنت أنت سببا في خروجي من أحزاني.. لقاءاتك الصباحية أخرجتني من محنتي.. وإن كانت تلك الرؤية المشؤمة قد جعلتني أكرهك.

- تكرهني ؟

- في حينها .. تمنيت لو لم تحكها لي.

- لا يهم .. لكن أحكِ لي أين كنت؟

- كلفتني مولاتي ومجموعة للصعود حصن التعكر.. وحراسته.. في البداية أغتظت.. أحدث نفسي وماذا يمكن لرجل بساق خشبية أن يصنع ؟ كانت مهمتي تنظيف القاعات من الغبار.. وإزالة ذبل الحمام من الممرات.. لكني وبعد أشهر من صعودنا اكتشفت بأن الحصن لا يزال مسكوناً.. وقد رأيت ساكنيه!

- من رأيت؟

- رأيت مولاي المكرم!

- المكرم؟

- نعم رأيته في الحصن.

- تهيؤات.

- لا.. بل حقيقة.. في البداية كنت أسمع همساً لكائنات لا أراها.. كانت شبيهة بهديل الحمام.. ثم ما لبث أن ارتفعت لتردد صداها جدران الممرات وسقوف القاعات.. في البداية كما قلت ظننتها تهيؤات.. الحصن تعشش في زواياه أسراب الحمام والعصافير. لتتحول فجرا بعد آخر تلك

الهمسات إلى ترانيم خافتة.. ظللت أتتبعها حتى تحولت إلى كلمات واضحة لأناس يصلون.. وهكذا لأشهر أستمع أصواتهم ولا أرى أحدا.. حتى ذلك الفجر حين خيل لي أني رأيت أشكالاً دخانية تتحرك من مكان إلى مكان.. دخان يتحرك هنا وهناك.. تقف صفا على إحدى القاعات.. ومرة بعد أخرى بدأت تلك الأشكال تزداد وضوحا حتى ظهرت لي بهيئات آدمية. يقف أحدهم وتقف خلفه صفوف.. يركع فيركعون.. يطيل السجود.. ينهض.. وهكذا حتى إذا ما اقترب ضوء الشمس تلاشى كل شيء.

لم يعد لي من عمل غير مراقبة ما يدور.. حتى ذلك الفجر حين وقفت جوار أحد الأعمدة.. لأرى وجه شاب شبيه بوجه مولاي المكرم.. لم أصدق ما أرى.. كان كما عرفته في شرخ شبابه.. ذلك الوجه وقد رافقته سنوات.. ظللت أراقبه لليالٍ طويلة في خوف ورهبة .. متعودا تلك الأصوات وتلك الهيئات التي تسكن قاعات الحصن وممراته.. لم أجرؤ على الاقتراب.. إلى أن حانت منه التفاتة.. لحظات لم أتوقعها.. لمحني.. رفع كفه كمن يمسح دمعة.. ثم ابتسم مشيرا أن أتقدم نحوه. وجدتُ قدميَّ تقودانني لأركع جواره.. لم يحدثني أو يلتفت إليَّ. ظل مواصلا صلواته حتى تلاشى مع بزوغ الشمس.. وقبيل نهوضي رأيت كأسا في موطن صلواته.. لا أعرف من أين ظهرت.. كان لمحتواها رائحة عطنة لم أجرؤ تذوقها.. حملت تلك الكأس معي.

- كأس؟

- نعم كأس شفافة!

- وهل لازالت معك؟

- نعم أحتفظ بها.

- ثم ماذا؟

- وهكذا أمسيت أنتظر تلك الأصوات وأشارك تلك الأرواح صلواتها. حتى ذلك الفجر حين رأيته قادماً وإلى جواره كائن آخر لم أرَه من قبل.. تأملته محتارا.. التفتَ إليَّ مبتسماً.. كان له ملامح المستشار اليامي.. ولم يمر

وقت حتى رأيت بينهم كائناً آخر كانت له ملامح الأمير محمد الذي يشبه أباه كثيرا.. ثم رأيت الملك الصغير علي. وهكذا فجراً بعد آخر ينظم آخرون بعضهم أعرفهم والبعض أراهم لأول مرة. أَلِفْتُ تلك الحياة.. بل وسعدت بها.

بعد تلاشيهم أقف وحيدا.. أظل متأملا الجدران من حولي.. أخرج إلى شرفة تطل على الجبال البعيدة والوديان الغائرة.. أرى قصر ذي جبلة. سنوات من السعادة إلى جوار مولاي المكرم هناك.. تمنيت أن أظل هناك إلى آخر يوم في عمري.. لكنها إرادة مولاتي.

حتى بعد أن نزلت لازلت أصيخ السمع عند كل فجر أينما أكون لأسمع تلك الصلوات.. أغمض عيني وأراهم يعبرون الممرات ليتجمعوا في إحدى قاعات الحصن. صفوفا راكعين.. وكثيرا ما يطيلون السجود.

- هل الكأس حقيقة؟

- أتعني ما أعطاني مولاي المكرم؟

- نعم.

- كيف لا تكون حقيقة؟

- هل تريني إياه؟

- ولماذا؟

- لأصدق ما تقول.. إذ كيف أن تكون كأسا حقيقة لكائن رحل عن دنيانا؟

- لا عليك. لا تهتم.. اعتبرني أهذر!

.....

شجعني عتابها.. مادفعني بالبحث عن خيمتها ذلك المساء.. صفوف من الخيام تمتد لأكثر من ثلاثة كيلو مترات.. كنت محرجا من السؤال عن موقع خيم النساء المعتصمات. في الليلة الثالثة استدليت على خيمة الندوات التابعة للتوجه اليساري.. قيل أنها من تدير أنشطتها. أطليت على جمع من النساء والرجال يقتعدون مقاعد صفت بعناية.. أخذت مقعدا في نهاية الصفوف.. وجوه الجميع باتجاه منصة اعتلاها شاب يلقي قصيدة غزل وإلى جواره الأستاذة تدير فقرات ذلك المساء.. وما إن تنهي حتى تقدم آخر.. ثم عازف غيتار .. لتنتهي بقراءات قصصية .

تركني ذلك الصباح منشرح الصدر.. وأضحت أوقاتي متوازنة بعض الشيء بعد عودة ذي الساق وجلساته.. يستعرض لي حكايات أيامه التي قضاها في الحصن.. وأتذكر بأني ظللت لصباحات غير مستوعب أن يكون من يجالسني هو ذو الساق. أعاود النظر إلى وجهه .. أتأمله لأتأكد من أنه هو.

يقول بأنه يأتي إليَّ دون أمر من أحد.. فلا أصدقه رغم أنه لم يعد سجاني كما كان في الماضي .. فقد أصبح يقرع الباب لأفتحه أنا من الداخل.. يجالسني أمام الباب.. أشاركه دخانه حتى شعر بوجد.. يحدثني وأشك أن تكون أحاديثه صادقة لكنني أنصت دوما حتى تصعد الشمس لتتعالى أصوات جواري البريد.. حينها يستأذنني ساحبا ساقه.. يبتعد مختفيا عند العطفة القريبة.

أسأله عما يصنع ببقية يومه؟ وأين يسكن؟ فيشير بيراعه نحو الجوار.

ذكرته يوما أن يفيّ بوعده.. أن يحكي لي عما كان قد بدأه في ذلك الصباح.. نظر في عيني مبتسماً في وداعه:

- حتما سأحكي لك يوما. وأخشى أن حكيت ألا تراني بعدها.. فلا تستعجل.

كان في صوته شيء من الصدق.. أم هي شراك ينصبها للإيقاع بي ؟ كنت أراه وقد شاخ كثيرا. وأعرف بأن الجميع هنا وشاة. تمنيت عليه أن يحدثني عن ذلك الغلام الذي ارتعب لظهوره في ذلك الصباح.. رد دون أن ينظر إلي: لاحقا. ثم نهض ومضى دون أن يلتفت إلي.

في الصباحات اللاحقة حدثني عن تلك العلاقة التي كانت تربط السلطان سبأ بالملك المكرم .. قال لي بأنه كان يعتبره أمير أمراء المملكة.. وأنه كان يعرف أسرار المكرم وزوجته الملكة.. وخاصة سر العلاقة التي ربطتها بمستشارها الشاعر اليامي.

-١٤-

يشدني كتيب الشريط الحريري إلى أن أترك أي كتاب.. يدعوني لحمله والخروج لوداع الشمس.. أسحب شريطه متلهفا.. ناظرا إلى تلك الجبال

الخضراء والوديان الداكنة.. نسيم الأصيل يدغدغ جسمي متكئا على جدار شفة السطح المطلة على أخدود الوادي.. أقلب الصفحات:

" بعد مضي أشهر على وفاة السلطان سبأ أفادت المراسلات بسقوط قلاع وحصون إمارته في يد المتغلب حاتم بن الغشيم الهمداني. الذي لم يكتفِ بل أخذ يحشد قبائله لحصار صنعاء.. حتى اجتاحها لتعمل فيها قبائله النهب والسلب والحرق لأيام.. معلنا نفسه أميرا على صنعاء وأعمالها.. رافضا ولاءه للملكة سيدة .. ولم يبق لابنه الأمير علي ابن السلطان سبأ غير حصن قيضان المطل على جبال صيد.

بعد أشهر قليلة تواردت الأخبار عن نية أمير قيضان تعويض ما فقده من قلاع وحصون بالتوسع جنوبا وفي نيته مهاجمة ذي جبلة.. لتدعو الملكة جميع جواريها ذات مساء تحدثهن حول الاستعداد لمواجهة الخطر القادم مختتمة حديثها بتوجيه كلامها إلى العروس: لم أعد أرى فيك الجارية التي عرفتك منذ حين.. بل وزيرتي المخلصة. لتهلل من حولها لتلك المفاجأة.. لم تعكس ملامحها أي ردة فعل.. فقط نظرت إلي مبتسمة.. لا أدري لماذا كنت أنا أيضا وغيري لا يرين فيها جارية.. فهي دائمة الابتسامة.. صامتة على الدوام.. كثيرة الحركة.. لا نجدها إلا مشغولة بمن حولها.. تنفذ ما تشير عليها الملكة بدقة وسرعة متناهية.. ودوما ما تشعر بنا.. بل هي الأقرب إلى جواري القصر.

أردفت الملكة كمن تحدث صديقة وليس جارية: ترين أطماع أمراء الحصون والقلاع لا تتوقف عند حد.. فصنعاء وأعمالها انسلخت من تحت أيدينا.

والمفضل أمير حصن التعكر يرى من موقعه أنه الأولى من غيره في الهيمنة والتسلط.. ووالينا على عدن يماطل في إيصال العوائد السنوية .. وأمير حصن الدملوة.. وصاحب حصن قيضان في مواقف متذبذبة. والنجاحي يتمدد شمالاً وجنوباً في التهائم غير قانع بما تحت يده من تهامة. ويتربص باستغلال أي ضعف لضم الجبال إلى سلطانه. صمتن جميعا.. وقد أمسكت الملكة بمعصمها تتأمل وجهها: أنت دوما في موقع ثقتي.. لا

أكلفك بشيء إلا وأنجزتِه على أحسن وجه.. من اليوم لا أريدك أن تفارقيني.. فأنت المشرفة على الجواري.. المسئولة عن رئيسات الجماعات. ثم التفتت إلى مَن حولها وقالت: المهمة صعبة وعليكن بطاعتها. ثم أشارت إلى العروس: فلا تخيبي ظني يوما.

منذ ذلك اليوم زاد صمتها.. وأظهرت نوعاً من الهدوء والرزانة. تقتنص لحظات السكون لتهامسني عن مخاوفها: كثيرا ما أنهض من نومي مختنقة الأنفاس.. وقد غرق بدني بعرق غزير.. تلاحقني صدى كلمات سيدتي: "لا تخيبي ظني يوما".. تلك الكلمات التي استقرت في أعماقي .. تذكرني ببعض ممن اختفين بعد أن خيبن ظنها.. أخاف أن تصدق وشاية واشية.

في مساء لاحق جلست سيدتي الملكة على مقعد الدرس.. ظلت صامتة حتى خلناها لن تنطق. بعد وقت بسملت وأثنت على سيد الخلق.. والآل والأئمة الميامين. ثم قالت: كلكن ذكرتُ لكن بأن مملكتنا تتربص بها أطماع المتربصين.. وقد فكرت كثيرا في أن نشترك جميعنا في حمايتها..

.....

رأتني من منصتها.. وما إن انتهت حتى أقبلت بابتسامة ساحرة.. تتهادى برشاقة قدها.. سألتني بمودة: شرفت.. هل أعجبتك الفقرات؟.ولم تنتظر ردي ممسكة بذراعي سائلة عن حالتي.. مكررة: نحن نودك ألا تودنا؟. مستفسرة عن سكني.. أوضحت لها بأني أسكن في حارة الصافية.. ضحكت.

- أقصد هنا في الساحة.

- أقضي لياليَّ متنقلا بين خيمة وأخرى!

- ولا يهمك .. يمكنك السكن جوارنا.. هناك خيمة يشغلها أصدقاء. عل الأقل نراك وقت ما نريد.. أم أنك لا تريد قربنا.

تكرر ابتسامة عذبة بطرف فمها. محركة رموش عينيها وهي تتحدث تجعلني أمامها كتلميذ بليد. لا أعرف إلا أني مددت يدي ممسكا بكفها الذي استكان دون مقاومة..و تشجعت:

- بل أود رؤيتك في كل وقت. وها أنا أبحث عنك حتى وجدتك.

زادت ابتسامتها بهاء وهي تضغط بكفها الآخر فوق كفي الأيسر.. ثم سحبتها تاركة دفئاً لذيذاً يسري فيَّ .. دنت :

- لم نشبع من رقصك بعد.

كلماتها دوما ملتبسة تجعلني في نشوة. رفعت كفها مشيرة لأحد الشباب: اصطحب صديقنا إلى حيث يبات الزملاء.. وأخبرهم أن يهتموا به.

هذه المملكة لم تقم إلا على جهودكن.. وهذا فضل من الله عليكن.. ومن أجل ذلك فكرت بفصل دعوة المذهب عن شؤون الدولة.. والليلة أكرر لكن بأني قررت تغيير بعض قواعد العمل. ثم أشارت إلى العروس بالنهوض.. آمرة الجميع بطاعتها . مردفة بصوت ضعيف على غير عادتها: هي مولاتكن من الليلة وهي المسئولة أمامي عن نشاطكن.. تساعدها رئيسات الجماعات.. ولها أن تنتخب من تعاونها من بينكن.. وهي المخولة بعقاب المخطئات ومكافأة المحسنات. وأنهت درس تلك الليلة بأمر الجميع طاعة العروس.

أقف جوار مولاتي العروس لتفاجئني بتطويقي بذراعيها.. تتصبب عرقا.. هامسة لي: وأنت كوني عونا لي لا تتركيني. ليتسرب شعور غامض لم أألفه من قبل. لحظتها زارني طيفك.. وكأنك تسألني هل تقتربين أم تبتعدين عني؟ نفس السؤال ظل يتردد طيلة صلوات تلك الليلة.. لأدعو الله أن يقربني منك.. وكنت أعرف ما أنا قادمة عليه.

حين يخلوا بنا الليل تمسك العروس بيدي كالمستنجدة:

- يسرح عقلي بعيدا وتلك العبارة "لا تخيبي ظني يوما" تلاحقني في صحوي ومنامي.. أشعر بقيد غير منظور يغلني. يزداد بعدها قلقي وإحساسي بمحاسبة نفسي عن كل تصرفاتي.

- خففي عليكِ.. ولا تخيفيني منك.. أنتِ لن تخيبي ظنها الكل معك.. ولا تحمليني فوق قدرتي .

- لن أقول لكِ بأنك أختي.. بل أكثر من ذلك.. واليوم حمولتي ثقلت.. وأنا بحاجة إلى من يعينني.. وأراك أقرب الجواري إلي.. لم أقلها بقدر ما أردت الاستنجاد بك.. فهل تكوني صادقة معي؟

- سأكون.

بدأ قلق مولاتي يخيفني. وأخاف من نفسي حين أفكر فيك.. ذلك التفكير الذي أخشى أن يجرني إلى ارتكاب حماقة تفضحني وبذلك تكون نهايتي ونهايتك!

في تلك الليالي دعت مولاتي رئيسات الجماعات إلى حضرة الملكة.. لتعرض على الملكة عما يخططن له.. وأولى الخطوات معرفة ما يدور في أنحاء البلاد.. كانت الملكة تستمع إلى ما يطرح من رئيسات الجماعات.. واحدة تلو الأخرى لتوضح مولاتي بأن الخطوة اللاحقة ستحدد بناءً على ضوء ما تنتج عنها الرسائل. لم تعلق الملكة قبل أن ننصرف إلا بخمس كلمات: سأنتظر أن تبدأن فلا تتأخرن.

بعد خروجنا كلفتني مولاتي بجمع رسائل جواري الحصون وحواشي الأمراء .. واختصار ما ورد فيها.. لتكوين تصور عن أحوال البلاد وتوجهات أمراء وقادة القلاع والحصون. وخلال سبعة أيام عرضت مولاتي على الملكة ما توصلنا إليه وما نفكر بعمله لمعالجة اعوجاج بعض أمراء إماراتها وتخاذل بعضهم. أبدت استحسانها للأمر .. وطلبت إرسال المزيد من الجواري كهدايا باسمها إلى أمراء الإمارات التي تخلو مجالسهم من العيون. في تلك الأيام حمدتُ احتجازك لفافتي.. خشيت لو أننا ظللنا نكتب لبعضنا لانكشفنا وحل علينا العقاب. وأن تلك اللفافة ستغريني أو تغريك بارتكاب حماقات أخرى.. وحينها قد نصنع هلاكنا.

تكرار همس مولاتي العروس حول مخاوفها جعلني أخاف من كل شيء..حين تقول لا أريد أن يأتي يوما أقف فيه في موقف المدانة. ولذلك أخذت أعد نفسي بألا أترك الغرائز أو العاطفة تسيرني. كنت أسمعها لتحضر أنت وتحتل تفكيري.. لتمثل الخطر الذي ينبض به قلبي.. وحينها عاهدت نفسي بالا أمنح إحداهن الفرصة لتشمت بي.. ولا أصل بنفسي إلى أن أقف أمام موقف المتهمة.

تدمع عيناي لخيالات تجتاحني .. ويهامسني الأمل: ستعيشين يوما معه..

.....

بالفعل كانت الخيمة في الجوار.. يمكنني سماع مكبر صوت خيمة الندوات. فراش صف على جانبي الخيمة.. لم يكن من أحد غير أحدهم لف بأغطيته أمام تلفاز صغير عُلق في المنتصف.

وإليه ستكون نهاية المطاف. ومن أجل ذلك الأمل أزلت فكرة إرسال ما أكتبه إليك. لا أريد أن يقع في يد إحداهن.. ولن أتصرف بما أشك فيه. فكنت دوما أخفيه بين طيات ملابسي.. يتماس مع جسمي .

لم أعِ أن سيدتي الملكة قد زودت مولاتي بتعاليمها السرية.. تلجأ إليها إذا ما سُدت الطرق أو تعقدت الأمور. لتهامسني بأن سيدتي الملكة زودتها.. منهمكة على قراءتها لتجد بأنها وصايا سيدتي أسماء بنت شهاب.. وعلى هامشها ملاحظات أخرى.. أضافتها الملكة الحرة من واقع تجربة سنينها.. وقد اختلفت اختلافاً كاملاً عن وصايا أسماء. لتجد ما يفيدها في تلك التعاليم.. ومنها: "خير وسيلة لإدارة البلاد معرفة ما يدور في كل حصن وقلعة في أنحاء البلاد.. وكذلك قدرات كل أمير وبما يفكر.. وعدم تجاهل التفاصيل مهما كانت صغيرة". ولذلك أمرتنا مولاتي العروس بجمع ما يصلنا من رسائل وفصلها حسب أهميتها.. كما أمرتنا بتوجيه جوارينا بذكر التفاصيل الصغيرة لحياة كل أمير.. وما هي إلا أشهر حتى كان لدينا أدق التفصيل عما يدور في كل إمارة.

يوما بعد يوم لاحظت مقدار التغيرات التي أحدثتها تعاليم الهامش على نفسية مولاتي العروس.. بعد أن استعادت ثقتها بنفسها ولم تعد كما كانت تشكو.. لتدور عجلة انشغالاتنا.. حين بدأنا بتقييم وضع كل أمير. ابتداء من الأمير الهمداني المتغلب على صنعاء. ثم صاحب حصن قيضان الأمير علي بن سبأ.. وأمير حصن التعكر المفضل بن أبي البركات.. وهكذا بقية أمراء الحصون والقلاع البعيدة. وأمست نواحي البلاد أمامنا مكشوفة بفضل تلك المراسلات. لتدعو مولاتي العروس رئيسات الجماعات لتطرح عليهن سؤالا: بمن نبدأ؟ هل بمن يناصب مولاتي العداء؟ أم بمن ينتظر الفرصة للانقضاض كأمير التعكر المفضل صاحب النفوذ الأكبر.. أم بالمماطل في ولائه كأمراء عدن والنجاحي الذي يتطلع لضم الجبال العالية إلى إمارته.. أم بأمير قيضان الذي أعلن خلع طاعته؟

كانت الرؤية غائمة.. فبعد تبادل الرأي مع رئيسات الجماعات.. اتضح أن الخطر يحدق من كل اتجاه.. ولكون ذي جبلة لا توجد تحت إمرتها جيوش فان الرأي ظل متضارباً.. لتعود العروس إلى تعاليم الهامش.. لتجد العلاج

الناجع: "لإضعاف ذوي الأطماع من أمراء البلاد.. ومن يمثلون تهديداً مباشراً.. دفعهم وإغراؤهم بشن حروب على بعضهم حتى الإنهاك والسقوط ".. وعلى ضوء تلك التعليمات.. اتخذت مولاتي قرار البداية بأمير حصن التعكر الذي يرى من نفسه مَلِكا فوق الجميع.. وذلك بدفعه لمحاربة أمير قلعة قيضان علي بن سبأ الذي خلع طاعته عن سيدتي وأخذ يخطط بتعويض خسارته التمدد باتجاه ذي جبلة.

باشرت مولاتي بكتابة دعوة باسم الملكة للأمير المفضل بحشد قبائله.. بضم حصن قيضان وما إليه من بلاد.. وكأن المفضل كان يتطلع لتلك الدعوة حين أخذ بمراسلة قادة إماراته لحشد قبائلهم.. وفي الجهة الأخرى أوعزت لجواري سيدتي في حصن قيضان تشجيع الأمير علي على التوسع جنوبا. ولم تمض أسابيع حتى كانت القبائل تزحف من الجهتين.. لتصطدم في منحدرات جبل بعدان. في بداية الحرب كانت الأخبار تفيد بأن أمير قيضان يحقق انتصارات في الدفاع عن حصونه لتنقلب الآية بتوارد الأخبار عن سقوط قلاعه.. ثم حصن قيضان فجأة.. وتتالى الرسائل بسقوط بقية حصون علي بن سبأ وقلاعه تباعا تحت قبضة المفضل.. وانهزم مستنجدا بأمراء الجبال المتاخمة لتهامة غربا.

كان الأمر غريبا بعض الشيء لسقوط حصون صاحب قيضان دون قتال حقيقي. بدا الأمر غريباً.. وسريعا ما وصلتنا رسائل تبرر ذلك الانهيار بعد إصابة الأمير علي بن سبأ بطعنة رمح كادت تنهي حياته. ليفر وتفر قبائله منهزمة.

وبتلك النتيجة تعاظم نفوذ وقوة أمير التعكر. وأصبح يمثل خطرا وشيكاً على ذي جبلة بعد انتصاره. لكنها الأيام لا تستقر على حال فهذه الأخبار تفيد بعد انقضاء ثلاثة أشهر أن الأمير علي عاد على رأس جيش من قبائل الجبال الغربية لاستعادة قلاعه وحصونه . وخلال أسابيع استعاد الأمير علي جميع حصونه وقلاعه.. ليفر المفضل بدوره منهزما إلى التعكر. ولم تمر أشهر حتى أعلن أمير قيضان استعداده لملاحقه المفضل.

جمعتنا مولاتي العروس لتدارس الأمر.. في الوقت الذي رفض المفضل الاستجابة لرسائل قصر ذي جبلة معاودة الحرب.. وقد انشغل بتحصين التعكر.

لترسل مولاتي جاريتين ممن يجدن التطبيب.. ويدخلن خلسة كمداويات إلى حريم حصن قيضان.. ليعرفن بأن الأمير لا يزال يعاني من آلام داخلية بعد أن التأمت جراح تلك الطعنة.. وبدورهن عرضن حكمتهن على حريم الأمير. شرحن قدرتهن على مداواته. وأجدن بعقاقيرهن تخفيف آلامه .. لكنهن لم يستطعن قتله حين كانت عيون حاشيته مسلطة على كل حركاتهن. كان الوقت يمر والقبائل تتجمع استعدادا للزحف جنوبا. في الوقت الذي استطعن شراء من تقوم بالمهمة. ومن ثم غادرن الحصن .. ولم تمر أيام حتى وصلت أخبار نعي الأمير علي.. لينهض المفضل مستغلا تلك الظروف ويزحف ضاما حصن قيضان الذي سقط سريعا ثم تتالت بقية الحصون وقلاع تلك الجبال. ليمتد سلطانه شمالا. وبذلك اتسع نفوذه وتضاعف خطره.. وأمست ذي جبلة تنتظر هجومه في أي لحظة".

أغلقت كتيبها بعد أن حل الظلام.. لفحة باردة طردتني نحو البرج. فارعة تحكي طوال الصفحات أحداثاً كنت قد عشتها في تلك الأيام.. وإن كانت بعض التفاصيل أجهلها.. خاصة ما يدور خلف تلك الجدران العالية.. لأكتشف بأن لكل من حولي أكثر من وجه. فالجارية فارعة تعيش واقعها بكل رغبة.. منتظرة أن يأتي يوم لتعيش معي.. وكأنها ترى بأن لكل منا أكثر من عمر.. أو أن أحلامنا تصور لغد لا ينضب. أخذت ألف الشريط الحريري حول الكتيب لأعيده بين الكتب.

-١٦-

مع الفجر أخرج من خلوتي أجول في سطح القصر الفسيح.. أشعر بأن ذلك الأفق الأخضر يجلي ناظري.. وتلك النسمات الباردة تعطر رئتي.. ولشد ما تدهشني تلك الطيور التي تحلق دون حركة. أقضي أوقاتاً أراقبها.. أو أنها تقف لتراقبني. أمتلئ بأفق أعشقه.. ذلك النقاء الممزوج بزرقة السماء ثم أعود إلى حجرة برج الصمت. أغمض عيني جلالا لسكون يمخر بي..

تحملني الذاكرة بعيدا بعيدا إلى تلك الأيام التي وفد على ساحة الملكة سيدة الأمير منصور بن فاتك النجاحي.. مستغيثا من ظلم عمه عبد الواحد الذي أستأثر بإمارة زبيد. وقد نزل بحاشية كبيرة.. طالبا نصرتها لاستعادة إمارته .

تلك الأيام البعيدة يطرق باب دار النسخ ذو الساق في موعده.. أفتح الباب.. أجلس جواره على الدكة الخارجية.. أحدثه عن رغبتي بالتعرف على من وفدوا على ذي جبلة.. فينصحني عدم الإقدام.. فأسأله: ألا يشدك صخب لياليهم المليئة بالرقص والغناء؟ ينظر إلي بنظرات عجلى ثم يهز رأسه بالنفي متعجبا.

في البداية لم أكن لأجرؤ الاقتراب من دار ضيافة النجاحي.. رغم نداء تلك الطبول التي تدوي أصواتها طيلة الليل.. ويوما بعد يوم كان نداؤها يحرك قلبي للزيارة.. وبعد تردد وجدت قدميَّ تقودانني نحو ساحتهم.

مقام الأمير ابن فاتك دار من عدة طوابق والكثير من القاعات الواسعة.. إلا أنه اتخذ البستان للدار مكانا لياليه بعد أن نصب خيمة كبيرة. يجلس في الصدر وقد فُرشت حتى أطرافها.. مائدة مُلئت بأطعمة وفاكهة متنوعة.. كان المُسكِرُ حاضرا.. والأمير ثمل على الدوام. والمتاح من تنباك ذي جبلة ينشر الوجد والنشوة. الأمير منصور ابن فاتك ذو سحنة هندية.. جل عبيده وجواريه من البيض. يحيون الليالي بالغناء والرقص.

وكلما حللت على لياليه يعاملني كما لو كنت أميرا.. تتصاعد سحب الدخان.. يدخل الجميع في نشوة.. يرقصون حتى قرب الفجر.. ليال من الأنس والنشوة خلتها لن تنتهي.

أمست لياليا بين سماع الغناء والرقص.. ثم مطارحة الشعر والأدب. لأكتشف امتلاكي مساحات في الأدب ومعارف غزيرة.. ودوما ما يصفني بالأديب.

أتذكر بأني كنت سعيدا بليالي النجاحي.. لم تعش ذي جبلة ليلة من لياليه منذ تأسست.. وسعيداً بأن أجد من يعاملني كصديق.. وذلك يذكرني باليامي الذي كانت صداقته فخاً أوقعني فيها.

-١٧-

وأتذكر أنه بعد هروبي الفاشل بعدة أسابيع.. هبطت فارعة مع جواري البريد.. لم أكن قد نسيت وشايتها بما كنت أهذيه.. ولذلك كنت في صراع مع نفسي.. وأصبح لدي قناعة أن من في قصر ذي جبلة شبكة من الوشايات.. قد يظُنَّ بأن ما يقمن به لا علاقة له بالوشاية بل هو ضرب من ضروب الأمانة.. ويذهبن إلى ما هو أبعد من ذلك حين يعتقدن بأنه عمل يؤجرن عليه من الله عز وجل.

- سيدتي تكلفك بتدريسنا النقش ورسم الحرف. أتذكر تلك اللحظة حين مدت فارعة رقاقة من مولاتي تحدد ما عليَّ فعله.. كانت عيناي معلقتين على وجهها وقد تقدمت دونهن لمخاطبتي.. كُن أربع وهي الخامسة.. استنتجت أن مولاتي تعني بتعليمهن أن يكون لديها البديل إذا ما فكرت بالفرار مرة أخرى. كن جميعهن يجدن الكتابة بشكل حسن وقد تميزت فارعة برشاقة حروفها.. وكأني بكل حرف شبيه بصاحبه.

- جميعكن تكتبن بشكل جيد.. خاصة أنت.

مشيرا إليها.

- نود أن تعلمنا سحرك!

- أي سحر؟

.....

ظهيرة اليوم التالي أرسلتْ من يصطحبني إليها.. ودوما ما تكون وسط عدد من الفتيات والفتيان: اليوم أنت ضيفنا على الفطور.. ثم نذهب إلى مقر الحزب ألا تريد أن تكون حزبيا؟

أكملنا فطورنا.. ثم توجهت بي إلى مقر الحزب.. لتعرفني على من وجدتهم من أعضائه.. وكان ذلك الرجل ذو الشعر المصبوغ بعناية في انتظارها.. عرفتني إليه وعرفت أنه قيادي مهم.. أضحيت منذ ذلك النهار عضوا. وأضحى من يعتني بصباغة رأسه يهاتفني بين فينة وأخرى.. كمن يبحث عن شيء.. حدثتها حول اتصالاته فقالت ضاحكة: هو يغار من كل شيء!

- أنت تعلم.

لم تفارق عينيها البسمةُ طوال درس اليوم الأول.. تختلس النظرات بين فينة وأخرى. وهكذا يهبطن صباح كل يوم بمخلاة البريد.. يمكثن حتى أذان الظهيرة ثم ينصرفن صاعدات. يجلسن بأدب كمن يرقبن بعضهن البعض.. حتى ذات العينين الكحلاوين اكتفت بإرسال ابتسامات ثغرها. بينما كان يعتمل عتب كبير بداخلي. ولأيام ترسل لغة عينيها.

- كلنا لسيدتي.

كان ردها على عتبي.. حين استغليت تأخرها عن زميلاتها لحظات صعودهن بعد انتهاء الدرس.

- لكنكِ كدتِ أن تقضي علي.

ردت بخفر:

- لو تعلم ما أحمله لك؟

تلك الكلمات كان لها وقع غريب.. أزالت من قلبي كل عتب.. كما أن ألاعيبها السابقة لم أعد أحقدها. زادت لهفتي إليها.. وطوال الدرس أنظر متابعا لها.. متأملا وجهها.. أصابعها الشمعية وقد عانقت يراعها.. أسأل نفسي. عيناها تمارس لغة تتذوقها عيناي لتمس شغاف قلبي حتى أشعر بما يحرقه.. ليحتدم حوار مع نفسي. أتعلم بما أكنه لها. كنت أود أن أقتص من أيام مرضي حين اكتفيت بخيالاتي.

يتأجج خوف أن يلحظن ما بيننا. كمن تشعر بما يقلقني اكتفت بابتسامات خاطفة تزيل تجهمي.. ولحظات تطيل النظر لكأنها تلهو بخوفي.. أسال نفسي: هل أهرب بخرابي إليها؟

تراوح بأسئلتها حول الدروس.. تأتيني برقوقها.. أختلس متأملا أطراف ذراعيها كما لو كنت أراها لأول مرة.. تشير إلى أحرف رسمتها بأساليب متداخلة.. تطالبني بالكشف عما أخبئ من أسرار الخطوط والزخرف..

كنت كثيرا ما أشك أنها تخفي شيئا.. لماذا تحضر شوذب كلما حضرت هي؟ تضطرم بداخلي أسئلة لا أجد لها تفسيراً كلما التقت عينانا.

- لماذا وشيت بهذياني؟

يتورد وجهها .. وتصطخب نظراتها.. لا أصدق ما يحدث وأنا أرقب فمها.. وقد باعدت بين شفتيها لتنطق حروف كلماتها في وله:

- ما تسميه وشاية هي طاعة.. ثم ما يدريك بمَ هذيت؟

أردد: طاعة.. طاعة! لقد صدق حدسي وعليَّ أن أتعايش مع وضع مقلوب.. تبدو مولاتي بمثابة الرب.. والجميع يتقرب لإرضائها بكل شيء.

أجالس نفسي طوال الوقت.. أستحضرها.. ماذا أريده من هذه الجارية؟ بل ماذا تريده مني؟ هل أبحث عن شوذب فيها.. أم ما أقوم به خيانة لها؟

أتعرى في خلوتي.. تعيب السنوات على بدني تقادمها. أسأل ذاتي: كم تبقى من العمر وقد غزا البياض مفرقي .

وأتذكر بأني كنت أهم أن أحدث ذا الساق حين يأتي طارقا بابي بهمومي.. أن أستغل سؤاله عن حالي. شرودي أثناء مجالسته.. عزوفي عن الحديث.. أفضل الصمت. ليقوم بدور المُنجم من يوحي بأنه يعرف كل شيء. لكنه يتركني ويذهب بعيدا بحكاياته عن نساء جميلات. نساء مختلفات لا يشبهن نساء هذه الأيام. حكايات مؤثرة.. لعلاقات عابرة.. لتأتي إحداهن بعد حين وتضع جنينا مدعية بأنه ابنه.. هو كان يعرف بأنه ابنه.. لكنه لا يعترف بذلك.. يضمها المكرم إلى جواري القصر.. ويشب ذلك الطفل حاقدا على رجل أنكر أبوته. فأدركُ حينها سبب حقد ذلك الغلام عليه.

أطلبه الحديث عن حياته قبل ذي جبلة.. يبتسم وقد أدرك لعبتي: أنت تريدني السير بعيدا أليس كذلك؟ هززت رأسي بعلامة الموافقة ثم أغمضت عينيَّ خجلا.. ليسرح متحدثا تحت سطوة نشوة دخان يراعه. أزف ذلك الصباح في حكايات عشق وحكايات يحلم بأن يعيشها يوما. لينهض على طريقه اليومي. أسرع وقد ملأني الدخان غبطة.. أقفلت الباب.. أدخل

غرفة شوذب.. أحمل ألواني.. أرفع يراع نقشي.. أدور راقصا متخيلا وقد احتضنتني في نشوة لا تنتهي. أكتم دهشتي وأنا أراها تحلق راقصة.. تمد كفها.. تذهلني بنقش زخارف براقة في فضاء عرفتها.. زخارف وكلمات.. توقفت أنا عن الدوران تحت ضحكاتها.. ألتقط أطول ريشة لدي ثم أعود للرقص.. أحاول تقليدها أن أنقش زخارفي على الهواء وأنا أدور. لكنها تغير من دورانها. أراها تجلس على غمامة نقشتها توا رافعة ساقيها.. تستدير بخصرها نصف استدارة.. تبرز ردفيها كراقصة تبتكر ألاعيب تخصها.. تمط أسفلها .. تبرز صدرا مشدودا. يلهث قلبي لحركاتها.. أو هكذا كنت أراها.. توقفت عن الرقص وفضلت أن أظل واقفا.. أتابع ما تصنع بتركيز. تنظر إلي مبتسمة.. تهبط من غيمتها تطوق رقبتي وأخرى بخاصرتي.. نشوتي لم تدم.. وجدت نفسي أضحك عاليا وأنا أقف أمام جدران شوذب. أهامسها فلا تجيب.

في أحد أيام دروسي.. تعمدت التأخير.

- ماذا تصنع بنفسك؟

- عاودني مرض.. بحاجة إلى من يؤنسني؟

تتأوه ماطة كلماتها:

- كنت بصحبتك أياما فماذا صنعت؟

أمسكت بأصابع كفاها.

- كنت في مهمة الوشاية بي.. ثم أني كنت مريضاً لا أقوى حتى على الكلام.

- لكن لقطع المسافات هربا.

لتسحب كفها من بين يدي في خجل تاركة نظراتها تجوس المكان في غيابها. أجلس ونافذتي متسائلا: لا زال غموضها يحيرني.. تارة أشعر بها حبيبة. وأخرى خطراً داهماً.. ومرة تكون أقرب ما تكون إلي.. وأخرى أبعد كائن.

"هذه أنا آتيك خلسة".. أسمع ذلك الهمس بين الصحو والمنام.. أحاول فتح عيني فتزداد اظلاماً.. أعتدل على فراشي.. أصيخ السمع. ليتكرر الهمس بعد برهة "هل أنت هنا؟ هذه أنا جئت لأجالسك" كان صوتاً أعرفه يشبه صوت شوذب.. لا بل هو صوت الجارية.. أنهضُ من على دكتي. أكتم أنفاسي.. يتكرر صوتها وسط الظلام.. خطوت مادا ذراعي في شبق محموم.. كما لو لامست صدر ناهد. رائحة زكية أشعلت روحي.. سحبتها بلطف وأنا أرتجف.. أجلستها جواري.. ضممتها. بالكاد التقطت نبض قلبي غير مصدق.. جسدي ينتفض بحمى غريبة.. تدفعني لتعويض ما فات من سنين عمري.. ضممت كفها كنبض متقد. ملهوفاً عاودتُ ضمها. يبحث فمي عن وجهها. تدفع صدري بلطف لتتوارى في ظلام المكان .. حيرة أطبقت عليَّ. زاد لهاث شبقي.. أخطو مادا ذراعي باحثا عنها.. تحسست الجدران الباردة.. جست الزوايا البعيدة.. لا أحد.. الباب السفلي مغلق.. العلوي كذلك.. عدت أبحث في الظلام.. لا أحد.. جلست إلى نافذتي أرقب نجيمات السماء. كانت تلك الأحاسيس بعد ليلة أعارني فيها ذو الساق دخان يراعه. ليأتيني صباحا.

.....

في ذلك المساء قدمت لي مظروفا كبيرا.. أنظر إلى وجهها مستفسرا: فضه أم أنك لا تجيد الفض! دهشت للمفاجأة حين وجدت نسخة من أوراق جوذر وشوذب.. لم تتركني لدهشتي : أتتذكر تلك الليلة التي أعرتني أوراقك . هززت رأسي.. لتضيف: نسختها حين أدركت روعتها.. وأعتذر أني لم أستأذنك .

- بل جميل ما صنعت.

- ويمكننا من الليلة أن ندرج لك في برنامج خيمة الندوات فقرة لما ستقرأه علينا.

- وهم.. ألن يلاحقوني؟

- لا عليك.. خيمتنا لا تقع تحت سلطتهم.. ثم لا تنسى بأنك أمسيت عضوا في الحزب.

- لكنهم يكتمون الأنفاس.

- لقد تبدل الأمر وأضحى لكل منبره.

- أمتأكدة؟

- ألا ترى تعدد التحالفات.. وقد تحولت الساحة إلى ساحات.. وكل يعرف كيف يحمي نفسه من سفههم .

- هاه.. ماذا صنعت بليلتك؟ هل شربت الدخان وحيدا؟

أنظر إليه بحذر صامت.. لا أعرف لماذا حضر طيف شوذب تلك اللحظة. لأسأل نفسي: هل أخونها! لكنها مشاعر مختلفة.. أبدو غريبا إلى نفسي حين يزورني طيفها. أم أن ما يجتاحني إزاء تلك الجارية مجرد عشق عابر لا يشبه حب شوذب.. أم أني أخادع نفسي؟ هل هناك نساء للعاطفة النقية.. ونساء للعشق؟ لكن ما الفرق؟ لماذا تحضر شوذب كلما وقفتُ أمام تلك الجارية؟

كمن يصحو من نومه سمعت صوت ذي الساق يسألني عما حل.. ماداً مشرب يراعه.. لكني اضطررت إلى أن أحكي له حلماً.. نعم حلم قلت له كان هذا حلم البارحة فلم ينطق بكلمة. فقط نهض غاضبا: لا أريد أحلامك.. أنت تعرف بأني أكرهها.. بل وأكرهك.. مضى مبتعدا يجرجر قدمه الخشبية بنزق لم أعهده.

يروق له أن يقوم بدور الناصح المجرب. أستمع إلى صوته هازا رأسي بالموافقة. ولا يعرف سبب استرداد توازن روحي .. وأني بدأت أعشق ذي جبلة ولم يعد مكانا موحشا.. وأن حياة الليل التي بدأت أعيشها هي الحياة التي خلقنا من أجل أن نعيشها.

ما إن يداهمني النوم حتى تأتي ملتحفةً ظلام الليل .. يطربني همسها.. ملامسات أصابعها.. دفء جسمها وقد غطست بين أغطيتي. أستنشق رائحة تنباك يثير فيَّ نشوة ممزوجة برغبة دفينة.. نمضغ أغصان القات سويا.. أثرثر فرحا.. تكتفي بهنهنة صوتها.. لا ترفعه إلا فيما ندر.. أحدثها منتشياً عن صداقتي بذي الساق وعما حكى لي من حكاياته مع النساء.. وعن حكايته مع شبح الملك المكرم في حصن التعكر.. وتلك الكأس الملكية التي بحوزته. ومن أنه وعدني بأن يحدثني عن قضايا تهمني. لم أترك شيئاً من منادمة ذي الساق إلا وذكرته لها.

تعتصر كفي.. كمن يحثني على مزيد من الحكايات.. تجوس أصابعها في مواطن عدة من جسمي. تغمسني بين نشوة ذلك الدخان ومستحلب القات.. تمسك بمعصمي.. تضعها حيث تريد.. تتماس شهوتانا.. تصلني سموات

ظلمة لذيذة. تذوب وتذهب عني بعد أن أفرغت جمر دمي. يصمت كل شيء ويبتلعني نوم عذب.. أسمع قهقهات عالية.. ثم تبتعد.. ينسحب كل شيء حتى الصمت.. لأصحو عند الصباح أبحث عنها بين أغطيتي.. أجد بقايا رائحتها.. دفء جسمها وتلك السوائل العطنة. أحاول استحضارها. ليلة بعد أخرى ترسَّخ لديَّ ظنٌّ بأنها تمارس عليَّ متعة ناقصة.. ولم يعد هناك غد أكثر متعة. لكني أنتظر ظلامها الليلي بلهفة غامرة. حتى تلك الليلة التي لم تأتِ بعدها. في الوقت الذي لم تعد تهبط مع جواري البريد اللواتي استمررن عدة أيام دونها.. لأقرر إنهاء أيام الدروس.

ظل الأمل قائماً بعودتها مرة أخرى. لكنها لم تفعل. ضاق بي المكان ولم يعد لي من سلوى غير مجالسة ذي الساق نهارا والذهاب ليلا إلى مجلس النجاحي.. كان ذو الساق يرضخ حين أرجوه إطالة البقاء. أشاركه دخانه ومضغ قاته حتى تحملني نشوة لذيذة إليها فلا أعرف أأنا حاضرٌ أم غائب.

ذكرى تلك الأيام تشعرني بالزهو بعد وهن جسمي.. كما الإحساس بأن أجمل سنين عمري مضت.. أستمد من أمسي حرارة أفتقدها. ومن انشغالي بالنسخ.. كما أدرب عقلي على حياة أخرى. ولذلك أعود لسحب كتيبها بشوق.. أفك أربطة الحرير.. أتمدد:

"في تلك الأيام كانت مولاتي تأخذني في مناقشاتها مع رئيسات الجماعات لما يدور وما يجب فعله. وكان أشد ما تواجهه ذي جبلة خطر المفضل.. بعد أن أضحت إمارته تمتد جنوبا إلى أطراف المخلاف وشمالا يحاذي أعمال صنعاء.. بعد أن ضم حصون وقلاع الأمير علي بن سبأ.. وما كانت تأتي به رسائل الجواري من خفايا ما يخطط فعله ينذر بخطر محدق.. وأمسى يحرض سرا أمراء البلاد على إعلان خلع طاعة الملكة.. وأصبحت ذي جبلة نقطة وسط إماراته الواسعة.

ظلت مولاتي العروس ليال تبحث عن مخرج ليهديها كتيب التعاليم السرية "يصاب الأمير المنتصر بطمع التوسع.. ولذلك يستجيب لنداء الحرب.. ويصبح قابلا للتورط في حروب متتالية قد تستهلك ما لديه من قوة".

جمعت رئيسات الجماعات وتوجهن إلى مجلس الملكة الحرة.. تحدثن وكُلٌ أدلَتْ بدلوها والملكة تستمع دون تعليق. لتشير على العروس بالحديث: وهذا الأمير النجاحي منصور بن فاتك منذ أشهر يستجدي نصرتك على عمه عبد الواحد! لتتجه العيون تتفرس وجه العروس في تعجب.. لتصمت حتى أشارت عليها الملكة مرة أخرى بمواصلة الحديث. لتواصل: ولدينا قوة يمكننا أن ننصره بتوجيهها للمحاربة معه.. في الوقت الذي نبعد خطرها عن ذي جبلة. ابتسمت الملكة وقالت عليك بتنفيذ ما تفكرين به .

خرجنا من حضرة الملكة.. لترسل مولاتي العروس رسائل سرية إلى من يدفعن المفضل على محاربة أمير تهامة من جواري قصره.. وأوصتهن بتعظيم وتهويل قوته.. ودفعه لمزيد من التوسع حتى يمتلك البحر. ثم وجهت باسم سيدتي الملكة رسالة تدعوه فيها لحشد قبائله لمحاربة نجاحي زبيد. ولم يتأخر وكأنه كان ينتظر ذلك.. باشر بإشعال النيران في أعالي الجبال دعوة لتجمع قبائله.. ثم وجه دعواته لحلفائه بإعلان الحرب والتوجه غربا.

وأذكرك هنا بتلك الأيام التي كانت الأقدار قد نسجت لنا موعدا.. فبعد محاولة هروبك أمرت الملكة باختيار مجموعة من الجواري للجلوس إليك في دروس الخط والنقش.. وانتخبت مولاتي العروس أربعاً وضمتني إليهن. أمسيت في تلك الليلة على موعد مع الشوق.. ليلة لم أنم فيها.. رأيتك في أول صباح فكبحت جماح نفسي كي لا أنفضح أمام زميلاتي. ولأول مرة أدرك بأنك تحمل نفس الشوق.. أو هكذا كنت أترجم نظرات عينيك.. لكنها اندفاعاتك أفسدت تلك اللحظات.. بل كدت بتهورك أن تكشف كل شيء. ففي الوقت الذي كنت أفكر أن أجد وسيلة لنجلس معا منفردين.. كانت تصرفاتك قد جعلت إحداهن تشي بما يدور.. ما دفعني أستبق لأن أشكو ما ادعيته من تحرشاتك بي.. مقترحة عدم ذهابي معهن.. وبذلك حرمتني من رؤيتك.. ومن محاولتي أن ألقاك في جلسة على انفراد كي أخبرك وأفصح لك بأني من كانت تكتب إليك.

ومرة أخرى أراك حين دعت الملكة الأمير منصور إلى مجلسها.. لتستمع إليه.. حضرت بصفتك كاتبها .. لتدخل قاعة لم تطأها قدماك.. هي قاعة

تخصصها لكبار زوارها.. كنا صفوفاً من الجواري وقد تزينا بأروع ثيابنا وحلينا بما يليق بالمقام.. وأجزم بأنك كنت مبهوراً فقد رأيتك ترفع ناظريك في بداية ظهورك ثم أنخت عيونك لترى خطوات من يرافقن الأمير النجاحي إلى حيث سيجلس.. وكما هي سيدتي الملكة ترفع كفها.. مرحبة بالأمير الذي حمد موقفها وأثنى على كرم ضيافتها متعهدا لها بعهده لها ووفائه مادام حيا.. وكذا تعهده بدفع ربع خراج إمارة زبيد إذا ما عاد أميرا عليها.. وأن يوالي من والاها ويعادي من عاداها .. لتأمرك بتدوين ما يقال.. داعية له بالسداد والتوفيق.

لم تدم في حضرتها إلا لحيظات.. كنت أتمنى أن ترفع وجهك لتراني في أجمل حللي.. لكنك لم تفعل .. بعد أن رفعت سيدتي كفها إشارة انتهاء المقابلة.

نهضت أنت خلف النجاحي تحفكم الجواري من كل جانب حتى كنتما خارج القصر. هي الأقدار ما تجعلنا دوما لعبة لها.. أو أنها تخبئ لنا الكثير من النعيم".

ما إن أرى صفحات كتيبها تقل بعد كل قراءة حتى يمسني شيء من الجزع.. كنت أشعر حين أقرأ ما كتبت بأني أقرأ نفسي. وأرى حاضري في أمسي. لأسمع نداء يدعوني إلى محاولة الهروب مرة أخرى.. وكانت فكرة أن أغادر خلسة مع من سيغادر إلى زبيد استحوذت على عقلي.. أو أن أطلب من ذي الساق مساعدتي في الفرار في أي وجهه يراها.

شددت على قلبي حين أخرج لمشاركته جلسة الصباح.. رتبت ما سأطلبه منه.. لكنه أخذ يهدر..تركته يهذر وفيَّ شعور من شيء يؤرقه. لم أقاطعه أو أنبهه إلى أني سمعت تلك الحكايات .. يضع سبابته على شفتيه وكأنه يستبق مقاطعة محتملة.. فأستجيب بمواصلة صمتي.. يكرر لي حكايات سمعتها منه. يذكر أن سبأ كان بئر أسرار الملك المكرم ومنها أسرار زوجته سيدة. أتركه يحكي لأغرق في نشوة تنباكه.. عن حكاية تحريم سيدة لزوجها المكرم سنوات. وعن تلك العلاقة الملتبسة ومستشارها اليامي.. أهز رأسي علامة المتابعة محاولا أن أجد فسحة كي أسأله. لكنه

يتوغل في حكاياته. أو أن دخانه جعلني أتصور ما ليس موجوداً.. ينتشي هو الأخر ماطاً صوته.. يزيد من هز جسمه وهو يحكي ما يعتبره أسرارا لا يجوز البوح بها. أنصت إليه وقد غرقتُ أكثر في نشوة دخانه حتى شعرت بتعطل حواسي .. ولم أعد أميز من حديثه سوى طنين مضحك.. حتى أني أرى ملامحه وقد تغيرت كثيرا.

تمنيت لو أني لم أشاركه دخان يراعه في ذلك النهار.. أسمعه يردد أسماء: شوذب وسيدة .. المكرم.. اليامي.. الكأس. وأسماء أخرى لم أعد أتذكرها. لا أعرف لماذا كانت تلك الأسماء تثير ضحكي.. ولا لماذا كنت أضحك.. ومع قرب أذان الظهيرة نهض يحتضنني بقوة.. وهو يردد: هل سمعتني؟ محتضنا رأسي بين كفيه.. يهزني وهو يهذر.. ناظرا في عيني كثيرا.. مختتما: هذا أنا أوفيت بوعدي وحكيت لك ما كان يجب أن تعرفه.. ربنا يرعاك.

صحوت من نشوتي أحاول تذكر ما دار.. خرجت أهيم على وجهي باحثا عنه في كل اتجاه كي يحكي لي .. أسأل العابرين.. الجميع يحركون رؤوسهم.. ثم يشير كل بالنفي . يتكرر في أعماقي سؤال: هل أوفى بوعده حقا وحكى ما كان عليه أن يحكيه منذ سنين؟ أم أنه تعمد إغراقي بنشوة دخانه ليوهمني بوفائه بوعده؟ لأيام أخرج نهاراً أبحث علَّي أراه.. أحدهم أشار عليَّ أن أهبط شلال الوادي حيث رآه مع الفجر يغتسل.. وآخر أشار بأنه رآه عند أطرف الغابة. وثالث قال أنه صعد باتجاه جبل التعكر.. وهكذا وجدت الجميع يؤكد وجوده. صعدت الجبل.. دخلت الأحراش.. هبطت شلال الوادي.. لم أجد له أثراً.

-١٩-

لم تمضِ أيام حتى قُرعت طبول الحرب.. وقد جمع المفضل قبائله وما وصلت من قبائل عدن بقيادة واليها "زريع بن العباس" وعمه مسعود بن الكرم الهمداني.. وكذلك قبائل المخلاف والمعافر وقبائل قيضان والشعر.

وقد تجمعت في وادي ذي جبلة.. لينفخ نفير السير غربا. مدمرا كل ما يصادفه لإرهاب القبائل المناصرة للنجاحي.. يعمل النار في القرى

والمزارع.. يردم الآبار. ينهب المواشي والممتلكات .. حتى وصل أطراف زبيد.ولذلك أطلق الناس عليه أبي النار.

في آخر مساء للأمير النجاحي.. ذهبت لمسامرته وأتذكر بأني رأيت تلك الجارية بين جواري مجلسه.. عرفت لاحقا بأنها قد أهديت له.. تخلل تفكيري حزن غامض وقد تعلقت عيناي بها.. كان مساء ممتلئا بالغناء وسحب الدخان والرقص.. إلا أن تلك الجارية جعلت الجميع في دهشة.. تسبح وهي تدور في أرجاء المكان.. وحين تقف تهتز كريشة حتى يتراءى أن ريحا تحركها.. ترسل نظراتها بين فينة وأخرى. تقترب مبتسمة كمن تودع قلبا يهواها.. لحظتها شعرت باليتم حين عرفت بأنها سترحل معهم.. زادت رغبتي أن أرحل مع الراحلين.. ودعني باسما:

- نرحب بك معنا.

صافحني مودعا.

لم أنم ليلتها منتظرا وهج الفجر.. التحقت بركب الأمير النجاحي خلسة.. ليرحب بي: كنت أحس بأنك ستكون معنا. ثم أمر من حوله بإعطائي أحد خيوله. خرجنا تحت غلالة داكنة من الفجر.. اتجه بنا الدليل نحو سفوح الشمال الغربي لجبال وراف.. ثم أخذ الركب بالهبوط نحو قفار تمتد حتى سلاسل جبال متراصة كأسنة الرماح غربا.. قطعنا بطول ذلك النهار وديانا موحشة حيث تغزل الزوابع خيوطها لتصل السماء.. ومع غروب الشمس أنخنا على سفح أحد الجبال. لنشعل النيران وندق طبول الرقص.. لتطرز سواد الليل أصوات المغنى.. لم أرَ تلك الجارية.. علمت أنهن وحريم

.....

انتظمت مسيرات المواجهات يوميا .. دوما نحاول اقتحام بيت الرئيس.. واختراق أسوار دار الرئاسة.. وحصار مجلس النواب والوزراء.. وعدة منشئات منها مبنى التلفزيون وبعض الوزارات. ليستمر التصعيد المدعوم بغطاء أفراد وآليات الفرقة أولى مدرع ليسقط المزيد من القتلى والجرحى ويتجاوز الرقم العشرة آلاف بين قتيل وجريح في عموم أنحاء الجمهورية.. نعود وقد سقط منا عدد من الشهداء.. وكم كان حزني على استشهاد صديقي ذلك الضابط الذي اخترقت عنقه رصاصة ليتوفاه الله.. تذكرت بأنه كان يحذرني منهم ليكون الضحية.. هرولت مفجوعا وحين وصلت منعت من رؤيته .. ليأتيني أحدهم متمتماً: أدعُ للشهيد بالثبات ! ليختلط الأمر على الجميع فاتجاه الإصابات دوما من الخلف .

الأمير في معزل. مع نجيمات الفجر شددنا الرحال.. لنتوغل بين جبال صخرية ترتفع بنا عاليا.. لم نصادف قي طريقنا بشراً.. تقترب قطعان (الرباح) تسابقها أصواتها ثم تختفي لنسمع صدى (قويعها) ترددها جروف الجبال الملساء. تهزنا الريح على رفوف صخرية ضيقة.. نشرف على أعماق من أطراف أخدود صخري ينتهي بنهر أسود عميق.. وجذور أشجار معلقة على الجروف. فوق رؤوسنا يبدو شريط أزرق لا يشبه أي سماء. تستمر خطانا على تلك الرفوف.. وصدى أصواتنا يتردد.

نمر وسط جبال سكانها عراة.. يظهرون من فوهات مغارات في جماعات ثم يتوارون.. جروف غطتها فوهات الكهوف.. رياح سريعة تصدر صفيرا مدويا.. يضيق الأخدود ويكاد ينطبق.. تتحرك جدائل الجذور المدلاة على واجهتي الجروف لتيارات الريح.. دخلنا فوهة مغارة تفضي إلى متاهة واسعة في قلب الصخر. تتسع وترتفع سقوفها عاليا.. يعبرها صفير رياح.. نصادف شلالات تتدفق في أنحائها لتغور مياهه بين أخاديد هابطة.. لم نصدق دليلنا حين كان يحدثنا من أننا نسير في الطريق الصحيح.. ننيخ دوابنا. ونشعل نارا عالية.. ليرقص البعض رغم إرهاق الطريق.. كان صدى طبولنا قد أيقظ الكثير من كائنات المغارة.. سكان لا يشبهون أي مخلوقات رأيتها في حياتي.. عشرات الرؤوس الضامرة تتأملنا.. عيون ضيقة.. قال دليلنا بأن سكان مغارات تلك المتاهات مسالمون لكنهم لا يقتربون من الغرباء.. ولذلك يظهرون في حذر.. وسريعا ما يتوارون.. يعيشون على الصيد وجمع بذور وأغصان الأشجار.

خرجنا من تلك المتاهة لنرى سحب أسراب الطيور تصعد بفجر جديد. أخذت الطريق تنحدر بنا مخلفين قمم الجبال عبر سفوح ووديان خضراء.. مجاري سيول وغدران.. مخترقين غويبات تتمدد غربا.. حتى بدت لنا سهول تهامة. بحرارتها تزداد كلما هبطنا.. ننيخ الركب مع نهاية النهار متنسمين أنفاس الليل. نشعل الحطب لإعداد ما سنتناوله.. ينتصب عمود الرقص أمام الأمير منصور.. تقترب السماء بعناقيد نجومها المتدليه..تدحرجت على خد الأمير منصور دمعة لامعة.. أمسكت بكتفه:

- ما الخطب؟

- رائحة دياري أشجتني.. فقد اقتربنا.

مشيرا باتجاه الغرب.. رفع صوته منشدا.. ليحلق الجميع حوله مرددين. نهض يتمايل راقصاً.. هازاً سيفه في سماء العتمة.

سار الركب بنا على ضفاف وادٍ عريض.. وقد غابت الجبال.. ظل الأمير يهزج بقصائد تثير المشاعر والابتسامة تزين ملامحه.. أمر فرسانه التقدم في صفوف متتابعة.. قبيل غروب الشمس أدركنا مخيم الأمير المفضل الذي أخذ موقعه على مقربة من أسوار المدينة.. بددنا ليلنا بإذكاء لهب النيران المشتعلة.

قبيل فجر اليوم التالي توجهت القبائل لمهاجمة زبيد بقيادة المفضل.. وقد أخذ الأمير زريع وعمه مسعود ميمنة المهاجمين.. و جيش المخلاف في الميسرة.

مع المساء عرفنا بأن والي عدن زريع وعمه مسعود قد قتلا أمام أسوار زبيد.. بعد محاولة اقتحام أبوابها.. وعلى مدى أيام حاول المفضل اقتحام أسوار المدينة إلا أن المدافعين كانوا أكثر صمودا. بعد ذلك غير خطته ليضرب حصاره.. ليمر ما يزيد عن الشهرين دون أن تظهر آثار ذلك الحصار.. حينها بدأ المفضل يفكر بالعودة من حيث أتى.. ليسارع الأمير منصور بإرسال من يشتري حراس إحدى البوابات.. ومع لحظات انبلاج فجر يوم صيفي كانت قبائل المفضل قد بدأت بالتسرب داخل زبيد.. حتى إذا ما أشرقت الشمس دبت الفوضى بين المدافعين.. لتعيث قبائل المفضل في المدينة قتلا وتخريبا.. ما دفع الأمير عبد الواحد النجاحي للفرار باتجاه البحر تاركاً المدينة تواجه مصيرها. ليعلن الأمير المفضل إباحة المدينة لأربعة أيام مكافأة لقبائله المنتصرة.. نهبت أسواقها وسلبت دورها.. وأحرقت دور من قاوموا.. وسبيت نساؤها. ليدخلها المفضل بن أبي البركات في خامس يوم منتشيا بنصره.. تهرس حوافر خيله رؤوس الأسرى. تحفه أعمدة الدخان وصراخ الثكالى.

كنت في ذلك اليوم إلى جوار الأمير منصور لحظات دخوله على مجلس المفضل يبارك له الانتصار ويطالبه بتسليمه إمارته.. لينهض المفضل

غاضبا: ماجئنا إلا لننقذ زبيد من دنس العبيد. آمرا عساكره اقتياد النجاحي ومن معه.. لنودع جميعنا في حبس قلعة الحكم. لم يدم الأمر أسابيع ثلاثة حتى فُتحت الأبواب وحمل الأمير منصور على الأعناق.. لتبتهج المدنية وتبايعه واليا من قبل الملكة الحرة على زبيد.

-٢٠-

طاب لي المقام.. وأضحت لي دار وخدم يقومون على خدمتي.. وما كان يخفف الغربة حضوري مجلس الأمير حيث يتنوع السمر من شعر وغناء ورقص.. أنتظر ظهور من أنتظرها ومن كانت السبب في مغادرتي لذي جبلة . أكتم سري خوف أن تكون ضمن محظيات الأمير. يسألني عن شواغلي فأذهب بالحديث بعيدا.. أحدثه عن سنوات عمري في قصر ذي جبلة وعن الحياة فيه. أكملت سنتي الأولى كاتبا للأمير النجاحي.

- أخذت منها وعدا ألا تؤذيك.

يحدثني وقد بدا الحزن على محياه.. ليحل صقيع غريب مس قلبي.. مُركزاً على عينيه:

- من تعني؟

- الملكة الحرة طلبتك.

- لم أفهم!

- ستغادرنا إلى ذي جبلة.

- أتعرف ما يعني ذلك؟

- لا تخف لقد وعدتني.

.....

التزمت خيمتي بعد مقتل صديقي الضابط.. ليس خوفا.. بل كفرا بما يصنعون.. أخرج بعض الليالي لأقرأ بعض أوراقي في خيمة الندوات.. ولم أعد أخرج في المسيرات.. انتشر الخوف من رصاص الغدر التي تأتي بغتة.. والبعض هجر الساحة.. أتخيلني أزف شهيدا على الأعناق.. يعلقون صوري في جدار الساحة ليزداد رصيدهم.

- أتركني أفر.

- ليس من الأخلاق أن أتركك.

-حاول معها مرة أخرى.

- عرضت عليها أن أفتديك. لكن رسولها عاود برسالة تعاتبني وتتهمني بالمماطلة.. ولما لها من أفضال وافقت.

صمتُ وقد غمرني ذهول.. أبحث عن أخطاء تظن مولاتي بأني ارتكبتها؟

غادروا بي عبر سهول واسعة جنوبا.. تمنيت لو أنهم عبروا بي طريق تلك الجبال التي عبرناها عند قدومنا.. ربما استطعت إقناعهم تركي هناك بين سكان المغارات.

لم تمض ليال حتى كنت في حضرة الملكة الحرة.. وقفت بينما دائرة الجواري وجوه متجهمة.. عيون تتفحصني.. ارتفع صوت إحداهن: أنتم في حضرة سيدتي الملكة الحرة سيدة. لم أميز بقية الكلمات لرعب اجتاح حواسي. رفعت وجهي لصمت خيم على الجميع.. ظل كفها المرفوع لبرهة. بعدها ارتفع صوت بارد.

- كل ما قلته وما كُنته في زبيد لدي!

صمتُ أنتظر بقية صوتها.. وهالني صمت من في القاعة. أردفتْ: اقترفت في الماضي عدة أخطاء وسامحناك. حاولت الهروب في الماضي وغفرنا لك.. وهذا أنت تكرر معصيتك هذه المرة.. تغادر خلسة. بل وتتحدث بأخبار ذي جبلة وما كان ينبغي لك ذلك.. تعتقد بأنك أفشيت أسرارنا وأنت الجاهل بما حولك.. إذ إن مثلك لا يعي ما يدور.. ورغم ذلك ثرثرت كثيرا.

واصلت صمتي.. أمرتني بالحديث. لم أجد ما أقوله.. ليرتفع صوتها: هيا قُدنه لينال جزاء ما أقترف.

ارتجفتُ رعبا ورهبة وهن يهبطن بي في صمت صاخب.. متخيلا عقابي في تلك السراديب الموحلة.. لكنهن هبطن بي سلالم حجرية أعرفها..

دهشت حين أغلقن عليَّ دار النسخ حيث سكني. أسال نفسي وأنا أتلمس جدرانه غير مستوعب: كيف أعادنني إلى داري؟ أم أن عقابي سيحل هنا؟. لم أهدأ.. تذكرت تلك النافذة وليالي تسللي منها.. تلمست قضبانها.. ابتسمت هامسا أستطيع الهروب والنجاة من الموت. هززت كالمجنون تلك القضبان.. باحثا عن قضيب يتحرك.. أمسكت به حاولت تحريكه.. فاجأني ثباته.. كررت المحاولة بعدة سُبل.. شككت فيما أصنع.. جربت قضيب مجاور.. دون فائدة.. مررت أهز جميع قضبان النافذة. هرولت كالمجنون نحو الباب الذي رفض الاستجابة لمحاولاتي.

عدت محاولاً في قضبان النافذة.. هل حقا أني كنت أتسلل؟ أي قضيب كان يتحرك إذاً؟ أم أن حركته كانت تحت عنايتها؟ وتسللي تحت رقابتها؟ أسأل نفسي وقد اهتز بدني رعبا مما أنا فيه.. سافرت ذاكرتي إلى روائح ومناظر أسراب الجرذان الجائعة.. خارت قواي.. هويت أرضا.. لتنسال دموعي ساخنة.. أتمتم: هل سيكون ذلك المكان نهايتي! حيث الريح العفنة تزأر وسط وحل رطب وأكوام عظام نخرة. استقرت ذاكرتي في ذلك النهار حين سمعت عواءً مخيفاً.. محاولاً تحديد اتجاهه.. أجوس بمسامعي في الجدار الملاصق للقصر.. ثم أخذت أحفر طوال النهار حتى أحدثت ثغرة.. وليتني لم أفعل.. لحظتها اندفعت رياح باردة ذات رائحة متعفنة.. صفير يعلو وينخفض من أعماق عتمة مخيفة.. استمررت حتى كان نقبا.. رأيت ظلمة سراديب.. أدخلت رأسي.. حشرت جسمي حتى خصري.. أتحقق أطيل النظر.. أرض تلمع بسواد رطوبتها.. رأيت ضوءا مبعثرا بالكاد أميز أعمدة وجدراناً حجرية سوداء بعيدة.. زادت الرياح قوة وعفونة. صفوف عقود عالية.. أسراب خفافيش. ضوء يتسرب من بعيد.. أمعنت النظر نحو الضوء.. وحل على وجه أحجار زلقة.. في البداية ظننت تلك العفونة عفونة المياه المنسابة على الأرض.. لكني رأيت أسراب جرذان حول أكوام قاتمة.. رددت الجدران صرختي.. ضجت تفر مذعورة.. بينما صفير الريح يعلو وينخفض ليصمت حتى أظن بأنه قد توقف ليعود أكثر رعبا.. نظرت نحو الضوء.. اتضحت لي كومة قريبة بأنها بقايا آدمية.. تجمدت أطرافي لحظة تمييزي لبقايا كتل متحللة.. تعبث بها جرذان ضخمة.. زواحف وحشرات.. ظللت لا أقوى على الحركة

مرتجفا حين ميزت عظام وبقايا جماجم.. رياح شديدة عاودت تعوي.. مرعوبا أحاول سحب نفسي .. وكأن النقب ضاق.. أو أن صدري تضخم.. لاهثا أحاول وقتاً طويلاً.. جُرِحت أضلاعي وذراعاي.. عدت أقف أمام النقب منهكاً.. أعدت أحجاره كما كانت. عدت حجرتي أرتجف وأتقيأ بشدة.. وتلك الروائح سكنت رئتي.. أحسست بدوار.. تقيأت كما لم أتقيأ في حياتي.. برودة ورعشة تنخر مفاصلي.. العفن يلاحقني.. يحتل غرف الدار.. فراشي.. لم يعد لي رغبة في طعام أو شراب. بين فينة وأخرى أتقيأ دون طعام.. جواري البريد هلعن مما أنا فيه. زارني حكيم سيدتي الحرة.. طرح علي أسئلته.. لم أخبره بما رأيت.. تركته ينظر في عيني.. يقلب لساني. يضغط على سقف بطني متعجبا. خبأت كل ما عشته؟ وحين سألتني فارعة لم أتفوه.. لكنها تحدثني عن هذياني نائما.. لتشي بهلوساتي.

أتذكر تلك اللحظات أن ملامحها تغيرت وهي تشير إلى حديثي نائما.. اختفت ابتسامتها.. كما كانت عيناها تنظران بنظرات فزعة. صمت كل شيء بيننا وبدأت ألوم نفسي على هلوساتي.. حتى أصابعها تخشبت.. مرخية فكها الأسفل وهي تتأملني.. ثم قالت: أصوات الريح تزداد وضوحا مع فصل الشتاء ويسمعها الجميع. لم أرد عليها. كانت تتحدث كمن تريد إخفاء ما تفكر به.. واكتشفت أنها لا تختلف عمن سواها من سكان القصر. في تلك الليلة حاولتْ أن تبدو ودودة.. أمست مقرفصة عند قدمي.

لم يزرني النوم ليلتها.. أترصد أصوات خوف خلف الجدران.

أعاود محاولاتي مع قضبان النافذة ليلا. أنظر إلى فضاء مرصع بالنجوم.. يومض أحدها يساير نبض قلبي.

يسرح عقلي مستذكراً أياماً مضت. كثيرة هي الذكريات.. وكثيرة هي الأسئلة: هل كان اليامي سليب الإرادة.. وهو يقودني إلى هذا المصير؟ أسئلة لم أجد لها أجوبة. أسير طوال الوقت ذهابا وإيابا من حجرة إلى أخرى.. وما إن أكمل حتى أبدأ من جديد. يفر تفكيري بعيدا.. يستغرق ذلك وقتاً حتى أعود به إلى واقعي وكأني أدور بين أجرام متباعدة. ألجأ راكعا أمام جدار شوذب أناجيها باكيا.. لم تعد بحاجة لمزيد من النقوش.. أنا من

كنت بحاجة إلى عنايتها.. ناجيتها كمخلصة.. مدت كفها مضيئة الوجه.. ضمتني إلى حضنها أغمضت عيني وشعور بالأمان يجتاحني.

غير مصدق ما أنا فيه.. لتغرب شموس وتأتي ليال.. وهكذا أودع النجوم من نافذتي ليلاً.. وأستأذن حركة الطيور نهاراً بالرحيل. غير متوقع بأني سأراها لاحقاً.

-٢١-

أحلم وقد خرجت من محبسي.. أسير منصتا.. أسمع صرخات حارسات الأبراج يتوزعن في الليل.. أتخيلني وقد اتجهت نحو صخرة الأحراش.. بتمهل حذر أصعدها.. أتمدد عليها.. أشغل ليلي بتتبع نجوم السماء.. يظهر القمر بدراً.. أتابع رحلته مخترقا ركام السحب.. أنتظر صعوده سرة السماء.. أراه يتدلى.. ثم تحجبه سحب سوداء.. أتذكر كلمات شوشانة ليلة ضرب وشمي: "ستنتصر لك قوى الغيب.. شريطة ألا تدع الخوف يسكنك.. تخلص من الخوف.. ذلك الإحساس الذي يجعل الإنسان كائناً خاملاً.. عليك دوما أن تشعر بالقوة من قيمةٍ هي أنت". أنزع جراب كفي وصوتها يتردد.. أرفعه عاليا نحو وجه البدر. أنتظر تجاوب الأرواح الكونية. أشكو لها ما أنا فيه. أمرر إصبعي على الوشم.. أرفع كفي باتجاه السماء.. تنقشع السحب رويدا رويدا.. يظهر وجه البدر.. يهبط.. أستسلم لسحر اقترابه.. يلامس دائرة السماء.. تتوهج.. يعبرها مقتربا من جبال ذي جبلة.. يصبغ الوجود بسناه الآسر.أتخيلني أقاوم الشعور بالخوف.. أستحضر شجاعة الإحساس بالقوة. أقف على صخرتي مشيرا بكفي مرة أخرى إلى السماء.. شعور ينتظرني لأقترب منه.. أطرد الإحساس بالخوف.. أستحضر قوة لا أعرف مكنونها.. أسمع صوت شوشانة: "من قيمةٍ هي أنت" شعور من وجد نفسه.. من يكتشف سرا عظيما بداخله.

أرى نفسي محلقا على ظهر البدر.. أعاود رفع وشم كفي عاليا متمنيا أن يطير بي إلى أغوار الكون البعيد.. يحلق عاليا في ملكوت السموات.. تغلق السحب عيون الضوء.. يظلم الوجود.. لم أعد أرى من حولي شيئاً.. أصابعي تتشبث وذلك البدر يعارك صعود عتبات لا أراها.

ضجيج ريح من كل اتجاه. أيقنت الهلاك وقد انتزعتني تيارات باردة.. أهوي وأهوي في فضاء مظلم.. أرتطم بأرض لا أراها.. أصحو لأجدني ممدداً بين الأرض والسماء.. أتلمس ما حولي أشعر بأني أهوي من جديد.. لا شيء غير الظلام.. أتحسس وشم كفي مرات.. أتلمس سياج قضبان النافذة.. أخرج كفي من بينها.. أوجه الوشم نحو فراغ مظلم.. نحو نجوم تناثرت بعيدا.. لم يطل بي الوقت حتى ظهر غسق المشرق بصفرة الذهب.. هالة قارصة.. صمت يمهر الأنحاء.. بعد وقت تسلل وهج يصبغ الوجود.. أفكر فيما كنت فيه وتلك الهالة تملأ الأفاق.. أو أني لم أطر وقد تكون أضغاث أحلام. رويدا رويدا تكاثر الضوء. لم أستسلم لإحساس جسمي بالإرهاق.. أذهب بذكرياتي إلى أيام ذي الساق.. حين كنت أنتظر طرقات كفه على الباب.. حيث تحملنا نشوة دخانه بعيدا.. أغمض عيني.. أراه جالسا يحكي حكاياته المكررة.. نمضغ أغصان القات.. ننسج خيوط ثرثرتنا المتواصلة. يحكي لي عن حروب السلطان سبأ في تهامة.. وعن قلاع بني المظفر.. وآل الزواحي. عن أسرار الملكة وعلاقتها بذلك القزم اليامي .. أستمع إليه كمن يستمع إلى طرائف. لكن ذا الساق لم يعد يطرق الباب.. ولا تلك الجواري يهبطن ببريدهن.. فقط أجالس نقش شوذبي على جدار غرفتها أشعر بأن لها روحاً وقلباً يحسان بي. سعيدا بحضورها.. نظراتها وهي تدور في رقصة لا تنتهي.. أحمد العدم أن العقاب لم ينلني.. أو أنه في الطريق يزحف بأنيابه الصغيرة على بطء. وأتمنى أن يتذكرني النسيان.

أهرب من تلك الذكريات الموحشة.. أعود لواقعي.. إلى حياتي الجديدة على سطح القصر.. أعيش مع وحدتي وتلك الأفكار التي تتوالد مع قراءتي لتلك الكتب المعادة من حانوت صنعاء فقد أمست وجودي.. وأضحت تفاصيلها طريقاً لم أعرفها من قبل.. فلم أعد كما كُنت باحثا عن رب.. بعد اعتقادي بالعدم الذي يبتلع كل شيء.. فقط هو من يمكن أن يكون ربا أوحدا مسيطرا.. أقوى مما ابتكرَه البشر من أرباب.. هو الحقيقة المطلقة والوحيدة.

أصحو من ذكريات الأمس.. التي أجد نفسي فيها تائها مع مؤذن الفجر.. أخرج من حجرتي إلى سطح القصر وسط برودة قارسة.. قبة السماء تملؤها ثريات مشتعلة.. أتلمس رطوبة الندى على حواف أحجار حمى السطح.. أدفع روحي أن تصلي لبهجة ما أرى. تشتد برودة المكان.. أعود أدراجي لدفء برج الصمت. ألتقط كتيبها.. أتمدد ملتحفاً بأغطيتي.. أسحب شريطه الحريري على مهل.. أنتظر مزيداً من الضوء.. أفتح دفتيه على مؤشر آخر صفحة قرأتها:

"بعد وداع الملكة للنجاحي.. تحرك ركبه فجر اليوم الثاني.. وكنت أنا ضمن جواري أهدتهن سيدتي كعيون عليه.. فوجئت بسماع من يخبرني بأنك قد التحقت مرافقا للأمير النجاحي في عودته إلى بلاده.. لم أكن أعرف طبيعة مرافقتك له.. هل بعلم سيدتي الملكة.. أم أنها إحدى حماقاتك؟. ظللت أبحث عن طريقة ألتقيك بها. لكن فصل الحريم طوال الطريق حجبك عني.. عرفت حين وصلنا بأنك التحقت خلسة. لذلك تزايد قلقي عليك. ثم أخذ تفكيري يتجه نحو البحث عن طريقة لإنقاذك من مصير أسود. فما صنعته لا يغتفر. حاولت أن أراك حتى أنصحك بالهرب من زبيد إلى بلاد لا تصل إليها يد سيدتي. ثم سألت نفسي لماذا لا أهرب معك وأضم حمقي إلى حمقك؟ أقلب الأمر ليل نهار. أتحين فرصة ألتقيك فيها .. لكن الأحداث تسارعت على عكس ما كنت أتوقعه.. ولم يستقر النجاحي على كرسيه حتى اختفت إحدى زميلاتنا من الجواري المهداة من سيدتي. ليتسرب خبر أن إحدى رسائلها إلى سيدتي قد وصلت إلى يدي النجاحي.. مرت أيام قلقة.. ليأمر النجاحي بالتخلص من بقية جواري سيدتي ببيعهن لأحد النخاسين بثمن بخس.. وكنت أنا إحداهن. وما إن علمت سيدتي

.....

وصل والدي من القرية.. كان برفقة أحد الزملاء.. يسألوني عما أًصنع بأيامي؟ لم أستطع الدفاع عن الثورة.. كان أبي من يصرخ في وجهي: الثورة لم تأت بعد.. وأن ما يدور إنما صراع بين أجنحة المتسلطين. محاولا إقناعي بالعودة إلى القرية.. أن أعود حتى تنجلي الأمور وتتضح الرؤية. تعهدت له بأني سألحق بهم .. قال لي إنَّ أمي وأخوتي وأخواتي في شوق إلي.. وأني طولت الغياب. ودعته عائداً إلى القرية وأنا أعده أن الحق به.. بينما كنت أواعد نفسي الوفاء بعهدي.

حتى أرسلت من يشترينا.

وبعد عودتي حدثتني مولاتي العروس أن سيدتي ظلت منذ مغادرتك تذكرها باستعادتك.. ليس لشيء.. إلا لمعاقبتك.. لكن أخبار انتصارات المفضل أقلقتهن وشغلتهن عن كل شيء.. ففي الوقت الذي كُن على يقين من هزيمته.. إذا بأخبار انتصاراته تصل تباعا.. لتمتد سيطرته على أكثر بلاد جزيرة اليمن.. وأضحى نفوذه يمتد من التعكر المطل على ذي جبلة حتى عدن والمعافر ونواحي المخلاف إلى قرب صنعاء.. وإلى بحر زبيد. وباتت عودته تؤرق قصر ذي جبلة.

أعيت الحيلة مولاتي العروس وذي جبلة تنتظر الخطر القادم.. عادت باحثة في التعاليم السرية عن مخرج.. لتجد إحدى تعاليم الهامش.. التي تقول: "إن أعيتك الحيلة لقهر طغيان عدو بقوته.. ابحثي عن وسيلة لهزيمته في عقر داره.. من حيث لا يتوقع..فدوما الإنسان عبد غرائزه".. دلتها تلك الوصية إلى هزيمة المفضل قبل عودته. حيث أوعزت إلى فقهاء سنة كان لهم ثأر معه باقتحام حصن التعكَر.

وسريعا ما استجاب الفقهاء ليتحالفوا مع قبائل بني الزر الخولانيين على مهاجمة الحصن.. وخلال أيام كانوا قد وثبوا عليه.. وقتلوا من قاوم من حراسه.. كما أجهزوا على نائب المفضل. لتصل أخبار سقوط حصنه إلى مسامعه.. وعلى الفور نفض المفضل يده من زبيد وعاد ظانا بأن قوته ستخضعهم في يوم وآخر.. وما إن وصل حتى حاول اقتحام الحصن.. لكن مقاومة بني الزر الخولانيين كانت قوية.. وهكذا عاود اقتحامه لكن الفشل كان حليفه .. لجأ بعدها إلى ضرب الحصار.. وما هي إلا أسابيع حتى تسربت أخبار عن نية بني الزر والفقهاء الاستسلام بعد نفاذ مياه الشرب.. تلقت مولاتي ذلك الخبر المفجع لتشاور سيدتي الملكة.. مبطنة تنفيذ إحدى تعاليم الهامش: "المال.. والخمر.. والنساء.. من أكثر هزائم الرجال". عارضة عليها إرسال إحدى الجواري لإيعاز بني الزر الخولانيين عدم الاستسلام وإظهار سراري ونساء المفضل على الأسطح في عرض راقص. باركتها الملكة. ولم يأتِ صباح اليوم التالي حتى ظهرن في أبهى حللهن. يتمايلن على ضرب الدفوف التي تسمع في الأنحاء.. لم يصدق

المفضل ما يراه.. في بادئ الأمر صرخ فيمن حوله: الهجوم..الهجوم .. لكن صرخاته ذهبت دون صدى.. ليسقط مغميا عليه.. ولم تمضِ سحابة ذلك النهار حتى فارق الحياة قهرا.

تنفست ذي جبلة الصعداء لرحيله.. في الوقت الذي رفعت بيارق الحزن على أسطح القصر ونفخت الأبواق وأشعلت النيران في قمم الجبال حزنا على رحيل المفضل.. واستقبل قصر ذي جبلة العزاء في وفاة أمير أمرائها. ليتنفس قصر ذي جبلة السعادة ويعود نفوذه يمتد على معظم إمارات جزيرة اليمن.

بدورها قامت العروس بتكليف ولاة وأمراء جدد باسم سيدتي الملكة على قلاع وحصون المفضل. فتم تولية أمراء من أهل الدعوة على حصون المخلاف وقلاع البلاد الأخرى.. وحصن التعكر لفتح بن مفتاح وهو أحد موالي سيدتي الملكة. كما ولت مسلم بن الزر على حصن خدد.. وأسعد الحميري على حصن تعز وصبر وهكذا بقية الحصون والقلاع.

أستقر أمر البلاد بعد ذلك.. وانتهت أخطار ظلت تهدد ذي جبلة على مدى سنوات.. وانتهت الفتن الداخلية. ونشطت حركة التجارة بين أجزاء البلاد.. وازدادت عائدات قصر ذي جبلة.

عاودت سيدتي الأمر لمولاتي بسرعة استعادتك.. وبدورها راسلت النجاحي تأمره بذلك..إلا أنه ظل يماطل.. لترسل إليه رسالة تعاتبه مبطنة بالتهديد! حينها سارع بإرسالك على جناح السرعة. وكم كان حزني وأنا أراك تقف في حضرة سيدتي مرتجفا كسيرا.. بينما صوتها الهادئ يوبخك.. عرفت لحظتها بأن نهايتك أزفت وأن حلمي لن يرى شمس صباح الغد.

-٢٢-

في تلك الليلة انزويت بعيدا عن صلواتهن الطويلة.. أبحث يائسة دامعة العينين عن وسيلة لإنقاذك. زارتني حكاياتك. رسائلك.. لقاءاتنا.. عتبك وحنقك الدائم.. وشاياتي بك. ولحظات الليل تذوب بين يدي.. بكيت ليلتها

وأنا أفكر يائسة.. لتواتيني فكرة مع بداية الثلث الأخير من الليل.. لمَ لا ألجأ لمولاتي؟ لم يكن

الأمر هينا عليَّ.. مع ذلك مضيت.. ركعت عند قدميها كما تفعل هي أمام سيدتي.. حدثتها عن الرحمة.. وعن أمور تهمنا أكبر من كاتب بائس. كانت تستمع إلي في صمت.. قبلت ركبتيها متضرعة. لترفع وجهي بهدوء رأيت دمعة على خدها:

.....

كانت الأستاذة كريمة حين اصطحبتني في رحلة خارج صنعاء.. لم نكن بمفردنا.. رحلة مختلطة على أربع سيارات إحداهن سيارتها.. توجهت بنا إلى منطقة الأهجر على بعد مائة كيلو غرب صنعاء.. قرى متناثر على منحدرات غطتها أشجار باسقة.. تعرف المكان جيدا.. شلال يتدفق من شجة جبال عالية.. لم تتركني للحظة.. وكأن تلك الرحلة من أجلي.. حين أضحينا وحيدين بعد أن صعد من معنا التلال المحيطة.. دعتني للجلوس تحت شجرة وارفة الضلال .سألتني:

- ألا تشعر بنا؟

- بلى.. لكن حزنا يحاصرني لمقتل صديقي!

- سنلحق بمن رحلوا يوما.. فلم الحزن عليهم؟ دعك من الحزن وعش لحظتك.

لحظتها تيقنت مما تعني بكلماتها.. وكلام سابق في لقاءات ماضية .

- أشعر بك .. لكن.

- إذا لماذا نتقرب منك فتبتعد عنا؟

- ليس ذلك .

- أم تراني كبيرة؟

- لا حول.. فقط قلت لكِ أنا حزين لفقد صديقي.

- ونحن ألسنا أصدقاءك ؟ ثم يا صديقي كلنا مشاريع شهداء.. لكنا ندعوك لنحتفي معا بكل يوم جديد.

- أنت متزوجة.. ولديك أطفالك.

- تلك حكاية . وهل أنت متزوج؟

- لا...

- كيف؟

لم ترد عليَّ.. لكنها أشارت بأن أتركها. أعرفها فهي لا تهرج.. وقفتُ صامتاً ناظراً إليها أن توضح أكثر.. لكنها كررت إشارتها أن أتركها.. لم أنم حتى رأيت شروق الشمس.. تمنيت أن ترى بدورك ذلك الشروق.

- قُضي الأمر!

سقط قلبي لتلك الكلمات.. نظرت إلى وجهها محتارة لابتسامة علت وجهها.. سألتها في تضرع.

- هل فارق الحياة ؟

- لا.. بل سيرى شروق الشمس.

بعد ذلك اليوم لاحظ جميع جواري القصر سوء معاملة سيدتي للعروس.. سألتها فلم تخبرني عن سبب ذلك.. حاولت فهم ما يدور لكنها لاذت بالصمت.. كأن الجواري ينتظرن حدوث شيء ما يغير من قصر ذي جبلة. نراها تستدعى العروس في اليوم لأكثر من مرة.. تسألها أمام الجميع عن كل صغيرة وكبيرة.. عما يخصها وما لا يخصها.. كمن تتشكك بها. كلنا يعرف بأن الجواري يراقبن بعضهن البعض.. وكل يرفع بما يعرف وما يدور.. نتساءل هل من وشاية.. أو زلة. ظلت العروس على صمتها.. أمام عنت الملكة وتوبيخها على تقصير لم تقترفه.. تطالبها المزيد من الجهد. شعر الجميع بأنها تمهد لعقاب ستنزله بها.. وبدأ الجميع يتجنبها. لتعيش بيننا كالمنبوذة. لم نكن نعلم أسباب ذلك. إلى ذلك المساء.. اكتظت القاعة بصفوف دوائر الجواري المتعاقبة.. لتقاد أنت إلى حضرة الملكة.. هي المرة الأولى التي تقف أمامك دون أن تعطيك ظهرها.. بينما ظللت منكس الرأس وعيناك على الأرض.. تمنيت أن ترفعها ولو للحظة لترى وجه سديتي.. لكنك لم تفعل. أضواء المشاعل بصعوبة تنفذ بين سحب الدخان.. أمرتك مولاتي العروس أن تركع.. كانت هي من تمسك بذراع وشمكك.. بينما الملكة دنت تتأمله. وأظنك تتذكر حين ارتفع صوتها بالتهليل.. لتردد القاعة خلفها. أُحرِق المزيد من البخور وتعالت سحب حجبت كل شيء لنتحول إلى أشباح وسط سحب الدخان.. ظللت أنت راكعا.. وقد صُبَّ فوق رأسك دلو دم تيوس بيضاء ذبحت على نطع.. بينما أصوات صلواتهن وأدعية طويلة لم تنتهِ.. أمرت سيدتي بإعادتك إلى محبسك. وأمرت بالعناية بك. عرفت لا حقا أن سر كل ما حدث سببه وجود ذلك الوشم على كفك.

ومنذ تلك الليلة عادت لمولاتي العروس مكانتها لدى الملكة.. بل ولم تعد الملكة تأتي لحضور صلوات جواريها الليلية إلا فيما ندر.. لتعود العروس إلى ماضي عهدها.. بينما سيدتي تفرغت لقضايا الدعوة. بعد ازدياد الصراع بين دعاة النزارية والمستعلية في مصر.. ما ألقى بأثره على الدعوة في جزيرة اليمن.. ليصل الدعاة تباعا من الطرفين إلى ذي جبلة كل يريد استمالة الملكة.. لكنها كانت قد حسمت أمرها وأعلنت بأنها مستعلية الدعوة. لتوجه العروس بإحداث تعديلات في دروس تربية الجواري.. ثم اقتُطع وقتٌ من الصلوات الليلية الجماعية لإنشاد المدائح التي تشيد بالمستعلية.

وهكذا يوما بعد يوم تعتكف سيدتي لشؤون دعوة المذهب المستعلي ومتابعة الدعاة في عموم جزيرة اليمن.. ولسنوات لم يعد للجواري أي صلة مباشرة بالملكة. وأمست توصف مولاتي العروس في لقاءات رئيسات الجماعات بالملكة. وإن غضبت ممن يصفونها بذلك.

انشغلنا بمتابعة كل ما يخص رسائل وأخبار أمراء وولاة الحصون والقلاع.. وخصصت مولاتي وقتا مع رئيسات الجماعات لمناقشة أوضاع الإمارات.. ذلك ما أدخل عليهن نوعاً من السرور بعيدا عن الرتابة.. وأخذت بتعديل الدروس النهارية المخصصة بحفظ الشعر والأدب.. وأدب المنادمة وفنون الغناء والرقص ومتع السرير والتبرج والدلال. مع بقاء الليل للصلوات والمدائح ودروس الدين. ولم يمضِ وقت حتى كان كل شيء قد تغير في القصر.

وقد حرصت على إرسال جوارٍ ذوات حسن أخاذ من صغيرات السن كهدايا باسم الملكة.. وخففت من الاعتماد على كبيرات السن اللواتي أرسلت بعضهن كعيون جوالة بين أفراد العامة. لتتبع ما يدور في نواحي البلاد بأساليب جديدة.. فلم تكن تغيب عنا لا صغيرة وكبيرة.

ولم يكن أمر الفصل بين الدعوة الدينية والإدارة أمراً سهلاً فجميع الأمراء والسلاطين هم من أهل الدعوة.. فالجيش من الدعاة المنتشرين في جميع نواحي البلاد هم رديف لجيش من الجواري يعملن ضمن حواشي الأمراء

والسلاطين في قصورهم ومخادعهم.. وإن كان كل جيش لا يلتقي بالآخر أو يحتك به فكل له ساحته وله مهامه لينتج الأمر إلى استتباب طاعة جميع الأمراء والسلاطين لسيدتي. وإن أمسى خطر انتشار النزارية يؤرقها.. ففي الوقت الذي استمال بعض دعاة النزارية والي عدن إلى دعوتهم محاولين نشرها في بقية إمارات جزيرة اليمن. لتدرك سيدتي بأن عليها أن تكرس كل وقتها لذلك الهم. وهكذا كانت تدير جميع الجواري داخل القصر وخارجه. في الوقت الذي لا يعرف من خارج القصر إلا أن سيدتي الملكة هي من تسير أمور الدولة.

-٢٣-

يذكرني حرص الملكة عليك في حبسك.. بحرصها على مستشارها اليامي الذي كان الشخص الأثير لديها على مدى سنوات. ولعنايتها به كان الوحيد من الرجال الذي يجالسها وجها لوجه.. بل إنه يدخل إليها في أي وقت يشاء. لكن غضبها عليه أرسله إلى ميدان القتال.. وهو القاضي والشاعر القزم. ويعرف الجميع بأنها أرسلت من يقتفي أثره ويقتله أمام أسوار زبيد سنة٤٧٩ أثناء القتال بين النجاحيين والسلطان سبأ.

وهذا أنا أذكرك بمقتله رغم مرور أكثر من خمسة وعشرين سنة على رحيله.. إلا أن العلاقة الغامضة.. وتراكم الأسرار تدفع المرء إلى التساؤل. لا أريد أن أتحدث في المسار لكن غيابك يغريني على نبش الماضي.. وأستغفر الله.. إن قلت سيدتي كانت توده.. بينما كان هو يود بيلسانة.. وهي لا تبادل أحداً ودها. لم تكن سيدتي في البداية تعلم بعشقه للبيلسانة.. إلى أن انكشف سره لها ذات يوم.. وحينها وقعت الملكة في حيرة.. لتتأكد بأن بيلسانة لم تكن تبادله الود أو أنها من وشت به. لتعاند سيدتي هواها وتقرر التخلص منه بإرساله بعيدا ليموت بطلاً.. لتعلن حزنها على أفضل مستشاريها.. مستحسنة بعض الشعراء حين صدروا مراثيهم عن شجاعته وإخلاصه لملكته. ولا أذيعك سرا حين تعرف بأن الكتاب الذي أهديته إلى اليامي أنت ذات يوم قد أهداه بدوره للبيلسانة عربون محبة .. متمنيا أن يلين قلبها له.

وكنت أخشى عليك وقد أمسيت في دائرة اهتمام سيدتي.. وأخشى ما أخشاه أن يعاود غضبها المفاجئ ذات يوم عليك.. بعد هذه الرعاية الغريبة التي أمسيت منعماً بها في حبسك.

وأذكر دوما عقابها الذي هبط بذي الساق الذي حدثتَني وكتبتَ عن حكاياته.. وأعترف لك بأني كنت سبب موته.. فبعد أن حكيت لي عن حكايته مع تلك الكأس التي حكى لك عنها.. لم أكن أتصور أن يختفي بسبب ما تحدثت به إلى مولاتي العروس.. حدثتها من باب أداء الواجب وبدورها رفعت ما سمعتْ إلى الملكة بفحوى تلك الحكاية.. ولم أكن أتوقع أن تنهض من توها وتأمر بسرعة اقتياد ذلك التعيس بتهمة سرقة الكأس الذي قالت أنه اختفى من أحد رفوف حجرتها. في تلك اللحظات تأكد لي أن هناك كأساً.. وأن إحدى الجواري قد سرقته.. فلا رجل يدخل القصر كما تعرف.. ولم يحصل عليها من ميت.. وعرفت لاحقا أن تلك الكأس تعود إلى زمن الملك علي محمد الصليحي.. وقد انتقلت إلى المكرم ثم ابنه الصغير فزوجته الملكة.. والجميع يحرصون عليها كحرصهم على أرواحهم. ومع ما لقي صديقك ذو الساق من عقاب.. كنت أنت لا محالة ستلحق به عقابا من سيدتي التي لاعقاب لها غير الموت.

-٢٤-

بفضل همة العروس استقرت أوضاع المملكة لسنوات.. ولم يعد هناك ما يهدد قصر ذي جبلة.. تدفقت العائدات.. حتى كانت المفاجأة بعد سنوات حين أعلن والي التعكر "مفتاح" وهو أحد موالي سيدتي شق عصى الطاعة.. وقتل جواري مهداة إليه.. ثم آخذا بتحصين الحصن ضد أي هجوم.. ظلت مولاتي لأيام تعمل على استرداد طاعته.. تارة بالمراسلات وأخرى بإرسال الرسُل .. مذكرة بثقتها به.. تلك المحاولات زادته عتوا ورفضا. ولم يكتفِ بل إنه أخذ بمراسلة بعض الأمراء داعيا إلى انتهاج نهجه.. وآخرين يدعوهم إلى التحالف معه. حاولت العروس حل تلك المعضلة كون التعكر يعتبر حامية القصر لإطلالته عليه. وبعد عناء أهدتها إحدى تعاليم الهامش إلى طريق الخلاص منه.. كانت وسيلة ليس فيها معارك أو حصار.. باشرت بتنفيذها باستدعاء أمير حصن خدد عمران بن

الزر سرا وأقنعته القيام بحيلة التقدم لخطبة ابنة أمير التعكر لأحد أبنائه.. واعدة إياه بعد التخلص من مفتاح أن تضمه إلى إمارته. وسريعا ما انطلت الحيلة على أمير التعكر.. ليفتح أبواب الحصن لعدد كبير من جواري ذي جبلة كنساء لأهل العريس.. ليفاجأ مفتاح بتطويقه بالجواري وذبحه على الفور.. وبذلك تمت السيطرة على الحصن وتمنح ولايته لعمران ابن الزر الخولاني.

ولسنوات استمرت مولاتي العروس بترسيخ نفوذ سيدتي حتى عمت أرجاء جزيرة اليمن.. وكان آخرها إعلان أمير صنعاء الهمداني طاعته بتسليمه عائدات سنوية لذي جبلة.. ولم يتم ذلك إلا بعد إهدائه عدة جوارٍ كانت إحداهن باهرة الحسن.. استطاعت أن تملك شغاف قلبه وتسيره كما تهوى.

في إحدى ليالي سنة ٥١٠ فاجأتنا سيدتي بحضورها درس المساء بعد انقطاع طويل. وقف الجميع في صمت مهيب.. العيون تتفرس وجهها بعد غياب سنوات بدت غريبة لمن حولها.. هرمت ملامحها ومالت بشرتها الشقراء إلى بياض مشوب بصفرة. جلست على كرسي الدرس بادئة حديثها بذكر الله والصلاة على أطهر الخلق.. مثنية على الأئمة الأنوار.. ذاكرة واجب الوفاء والحفاظ على العهود.. موجهة خطابها إلى العروس.. واصفةٌ إياها بالملكة.. لتتجه أنظار الجميع للعروس الواقفة بوجوم غريب. وقد اكتست ملامحها الذهول. في بداية حديث سيدتي التبس الأمر على الجميع.. لتكرر باستهزاء ظاهر: أود سماع صوت الملكة العروس. بدت العروس للناظرات صماء لا تعي ما يدور حولها.. أردفت سيدتي:
وتتذكرن بأني خلعت عليها يوما صفة مولاتكن.. وأوصيتكن بطاعتها.. بعد أن كلفتها الإشراف على شؤونكن. ولم أعِ أنها أصبحت ملكة.. وها أنا أسارع بالحضور لسماعها.

اتجهت أنظارهن مرة أخرى إلى العروس.. التي خطت نحو سيدتي جاثية عند قدميها.. يهتز بدنها منتحبة لكنها زجرتها: لا أريد دموعا.. أنتظر أن أسمعك ويسمعك الجميع.

توقعتُ أن تتكلم أفواه القاعة لتشير إلى أن العروس لم تطلب من أحد وصفها بالملكة.. ولم تكن لها رغبة في ذلك.. بل أنها توعدت من يتفوهن بذلك. لكن لا أحد منهن جرأت. أو قد تكون سيدتي وراء من كُنَّ يصفنها بتلك الصفة حتى تعرف ماذا يدور في قلب العروس. فكرت أن أرفع صوتي لأوضح ما يدور. لكن خوفي من المجهول منعني. فضلت متابعة ما يدور بقلب جرحه الخوف.

عاد صوت سيدتي ليبدد الترقب بينما العروس جاثية: سأترككن.. فقط أردت بعودتي أن أقول لكن أني ما زلت الملكة. وسأرى ما يكون.. ولن تكون الملكة العروس الوحيدة في العقاب بل سيطال عدداً منكن.

سارت خارج القاعة تتبعها جواريها. ليتداخل همس ملأ القاعة.

على مدى أيام أقفلت سيدتي الدور العلوي على نفسها. حاولت العروس الدخول عليها دون طائل.. منكفئة على نفسها كمن أنذرت لله صوما.. مولاتي في حالة ذهول.. الجميع في حيرة مما تحدثت به سيدتي. ظللت إلى جوار العروس أحاول إخراجها مما هي فيه.. ليتسلل صوتها كسيرا:

- هل سمعتِها تردد: ها قد خيبتِ ظني؟

استغللت خروجها من شرنقة الصمت:

- لم أسمعها.

- لكني سمعت تلك الكلمات بين كلماتها.. ثم ما ذا عليَّ فعله؟

- أن تحدثيها بالواقع.

- لكنها تعرف.. بل وتعرف ما لا نعرف! لا أريدك أن تتركيني للأفكار القبيحة الضاجة بداخلي.. ولا للرعب البارد الذي يذبح أوردتي. لم أعد أخشى العقاب.. ولا يهمني الموت.. فكلنا طعامه. لكن ما يعذبني أن تظن بي الظنون بعد كل هذه السنين.. وهي تعرف كم أحبها.. لكن أن تصيخ السمع للوشاية.

اتكأت تدمع صامتة ثم أشارت عليَّ بالذهاب وألا أفارق الجواري ومعرفة ما يفكرن به.

في الليلة التالية توجهت العروس إلى قاعة رئيسات الجماعات بعد علمها إضمارهن أمرا.. فتحت عليهن الباب.. وقفن لهول مفاجأة حضورها.. وما زادهن رعبا حين حدثتهن عما أضمرنه.. ليتلفتن ناظرات في وجوه بعضهن البعض بنظرات اتهام.

- لم يحدثني أحد من بينكن بما تنوين فعله.. ولا أعلم الغيب.. فقط استنتجت أن يكون لكن الموقف مما حصل.. ولا أعلم تفصيله.. ولم آتِ إليكن لأهددكن بأي عقاب.. بل لأشارككن ما تفكرن به.

برز من بينهن صوت قوي:

- نود أن تكوني معنا فيما قررنا.

- معكن.. لكن أود معرفة ماذا قررتن؟

- أن نتخلص من سيدتي الملكة.

- فقط أريد أن أسألكن.. من ستتولى الحكم بعد الملكة.. أن تقتلني وعدد من الجواري لا يهم! لكن أن نفقد الملكة فمن سيقبل بغيرها.. الأمراء والولاة بل وعامة الناس.. سيتساءلون كيف تتولى أمرهم جارية؟ هل فكرتن بذلك؟

ارتفع صوت آخر:

- هل أنتِ صادقة فيما تقولين؟

.....

أستمر تصعيد المسيرات حتى يوم ثلاثة يونيو ٢٠١١ حين فوجئت صنعاء بدوي انفجار داخل دار الرئاسة.. أعقبها تصاعد أعمدة دخان.. ليتبين أن مسجد النهدين قد فُجر أثناء أداء صلاة الجمعة وفيه الرئيس وكبار أركان سلطته. ظن الجميع أنه قتل.. لكن صوته جاء بعد ساعات من الانفجار "مادمتم بخير فأنا بخير" عبر أجهزة الإعلام.. ليُنقل على الفور في طائرة خاصة إلى السعودية. زاد الشارع غلياناً وزاد عنف قوات السلطة ضد المسيرات.

- أنا منكن وما يهمكن يهمني. وإن كنتن قد قررتن أمرا ولا تردن مشاركتي فلا بأس.. فقط أريدكن أن لا تندمن غداً على خطوة اليوم.. أعلم بأنكن توقرن سيدتي.. وتحملن تجاهي نوعاً من التقدير.. وما تفكرن به هو بهدف حماية ذي جبلة. لكن كيف سيكون الأمر إذا علم الناس؟

- نعلم وفاءك وحبك لها.. وقد قررنا أمرا.. ولك الخيار في أن تكوني معها.

- فصلي لي الأمر.

- الملكة تقادم بها العمر وسترحل آجلا أم عاجلا.. ولم يعد يهمها أمرنا.. فقد سمعناها وهي تهدد إنزال العقاب بالجميع. ثم إن علينا أن نتدبر الأمر. فهل أنت معنا أو علينا. في حالة رفضك لما قررناه ستنالين نفس مصيرها.

- أود أن تفكرن فيما قلته لكن مرة.

صمتت تنتظر أصواتهن.. لتلتقط لغة عيونهن.. مضيفة: لا تقتلن سيدتي.. بل فلنعزلها ونمنعها من اتخاذ أي قرار.. وتتولين أنتن باسمها سلطان شؤون الدولة. وهذا أسلم لحماية ذي جبلة. بقتلها سينهار كل شيء.. وسيبيح أمراء المناطق لأنفسهم دماءنا.

صمتت ليشتعل الهمس بينهن.. ولم يأت كلامها بما ترجوه. ليرتفع صوت إحداهن:

- أنت تحاولين كسب الوقت حتى تدبرين أمرا.. عليك أن تختاري أن تكوني معنا أو ضدنا. لم تكمل حين نهضت أخرى:

- أنا مع رأي مولاتي العروس فيما قالته.. نحن لا نريد إلا حماية أنفسنا بالحفاظ على نظام الدولة. بأي شكل.

انقسمن بعد ذلك.. لترتفع أصواتهن في شجار عقيم.. إحداهن اتجهت نحوي رافعة يديها مهددة.. وهي تهذر بكلمات جارحة.

انفض حضورهن لينقسم قصر ذي جبلة إلى فريقين كُلٌّ يتوجس خيفة من الآخر. لتفاجئنا سيدتي الملكة بإرسال من يدعو العروس ورئيسات

الجماعات إلى حضرتها.. ذهبن مرتبكات: دفعني لدعوتكن ما دار بينكن.. لم أتوقع عقوقكن.. ولم أتردد على قراري بمعاقبتكن.. تذكرن بأني لا زلت الملكة.. وقادرة على فعل ضعف ما فعلته طيلة سنوات عمري. سأعمل جاهدة للحفاظ على ذي جبلة وعظمة ما أنجزتنه.. لن أسمح لكن بتدمير هذا الصرح الكبير. فإن قسوت يوما فإنما من أجل الحفاظ على سلطانكن.. الجميع يتحينون الفرصة للانقضاض على ذي جبلة.. الجميع يريد استعادتها إلى حظيرته. أنا الملكة ومن حقي حماية المملكة بعقاب أراه ناجعا .

مع غروب شمس ذلك النهار أمرت سيدتي احتجاز رئيسات الجماعات في حجرة تجاور جناحها بالطابق الثالث ووضعت عليهن حراسة مجموعة من الجواري. دعت العروس ولا أحد يعرف ما يدور بينهن.. حين خرجت حدثتني: كانت سيدتي تجلس أمام إحدى النوافذ المطلة على جبل التعكر.. كنت راكعة جوارها دون حركة.. ظلت تنظر إلى ظلام الخارج دون أن تلتفت إليَّ. ثم قالت:

- كنت أظنك أكثر وفاء.. لكنك ككل الجواري.

أمسكت بكفها ألثمه باكية.

- أن أسمع صوتك مرة أخرى.. فهذا النعيم.. لا يهمني أن أكون كيفما أكون.. ما يهمني رضاك.

ثم رفعت سيدتي نبرة صوتها : يجب أن تعي.. بأن لك الرغبة في أن يصفنك بالملكة.. ولا يعني ذلك أن يكون الفرد قاسيا على غيره.. أو أن يعود ذلك بالنفع عليه.. وعليه أن ينتهج القوة والقسوة من أجل الجميع.. والاقتدار في الحفاظ على النظام.. تظهرين الجلد.. ألا تعرفين أن الله يحب المؤمن القوي.. وأنا ضمن من أحبهم الله!

-٢٥-

كانت كلماتها مضطربة.. لم تكن هي سيدتي التي عرفتها.. وقد عادت تشيح بوجهها بعيدا وانخفض صوتها كمن تتحدث إلى نفسها: تزورني

الأحلام كل ليلة وأراك دوما إلى جواري..أرى نفسي على مائدة طعام عامرة بما لذ وطاب.. والمكرم في أفضل حالاته.. التفتُّ إليه لحظتها خائفة.. لكنه يبتسم مقربا إياي إلى جواره يضمني بذراعيه.. تمر لحظات وأنا أتأمله ليدخل علينا أولادي محمد وعلي في أجمل حللهم.. حينها تسيطر علي حيرة متذكرة بأنهم قد ماتوا.. أجادل نفسي.. ثم تغشاني السعادة وأنا أراهم أمامي أحياء. يتحركون ببشاشة وحبور حولي. أصحو بعدها لأدرك بأني كنت في حلم كاذب.. وأنهم في رحاب الله. وهكذا تتكرر تلك الأحلام لأراهم مرحبين بي كملكة بينهم.. والجميع يبجلني. بينما أنتن ترفضنني ..أي جحود ألقاه.. سأعاقبكن جميعاً وأبدأ بك.

استمعتُ إليها وأنا أواري مدامعي التي فاضت بحرارة.. لتتسلل أصابعها ماسحة وجهي.. أعاود تأمل ملامح وجهها العنابي وقد شاعت ابتسامتها المحببة بالرضا.. تحتضن رأسي في حين أجهش باكية بصوت عال.

لم تسألني عن بكائي.. فقط تهز رأسي على صدرها. وتقول: سأستمر في قسوتي.. لا يهمني دموعك.. سأحافظ على الدولة.. وسأعاقب من ترفض ذلك..اليوم أدركت بأن قصر ذي جبلة في محنة وأنتن تختلفن.. فكيف سيكون غدكن.. جزيرة اليمن مملكتنا جميعا. وعليَّ حمايتها. لن أتكل على أحد. ثم زفرت بتنهيدة.. ليعاود صوتها الذي عرفته منذ وعيت: هناك كأس آل الصليحي أسأل نفسي لماذا نحافظ عليه.. لا أود أن يمسه أحد.. ولم أجده في مكانه قبل ليال عرفت بأن إحداكن تتآمر على آل الصليحي. قال سيدي الملك علي الصليحي يوم نفقده ينتهي كل شيء.. هو ليس كأسا من زجاج وإن بدا كذلك.. فقد صنعته بروق السماء.. حيث استخرجه الملك علي الصليحي قبل ثمانين سنة بعد صاعقة سماوية في ليلة ماطرة ضربت قمة جبل مسار. من يرتشف منه يرى نقش الرمز الأعظم على قاعدته. هو نفس الرمز الذي أريتِني على كف ذلك الناسخ.

وبعد أن أقفلت الباب خلفي.. سمعت صراخاً لا يشبه صراخها: أنا الملكة وسأعاقبكن جميعاً. أسمعها مواصلة بكائي وصراخها مستمر.

أكملت العروس كلامها دامعة. لحقت برئيسات الجماعات والمعلمات.. دار نقاش اختلفن على بعضه واتفقن على بعضه.. ثم توجهن نحو جناح الملكة في الطابق الثالث.. دخلن حجرة نومها ليصمت الصراخ بعد برهة من دخولهن.. ليتعالى نحيب جماعي.

جاء ذلك الفجر القريب وقصر ذي جبلة قد تغير.. جثمان سيدتي مسجي وقد لف بأكفان بيضاء.. جموع الجواري ينتحبن في قاعة الصلاة. كنت بصحبة مولاتي العروس التي بلعت لسانها ولم يعد لها من صوت. حين رفعت إحدى المعلمات صوتها: العروس مولاتنا كما أرادت سيدتي الملكة الحرة.. فضجت القاعة بالتهليل والتكبير.. ليصعدنها كرسي الدرس.

وهي التي تجيد الخطابة.. تحدثت كما لم تتحدث جارية قبلها.. في وداع سيدتها..لتفاجئ الجميع برفضها أن تحل محل الملكة.. راضخة لارتفاع صراخ القاعة مشترطة السرية التامة.. متوعدة بمن تتفوه أو تستسهل الأمر.. ثم أقسمت أنها ستمضي في حماية قصر ذي جبلة وتسير فيما سارت فيه الراحلة.. داعية الجميع إلى التلاحم والتكامل لأن الأمر حياة أو موت.

ثم حانت منها التفاتة إلي بينما القاعة تصطخب نحيبا وتهليلاً لتهمس في أذني: اذهبي على الفور حاملة مفاتيح حبس ذلك التعيس.. انقليه إلى برج السطح الذي كان معتكفي.. زيني حجرة البرج بأثاث نظيف.. ولا تنسي أن تحملي كسوة جديدة إليه.. وصندوق الكتب الذي في حجرتي.. اعتني به واخدميه.

وأصدقك القول أني لم أستوعب ولم أتوقع ذلك منها في ظروف لا يمكن أن يجمع الفرد منا عقله ليفكر كيف ينصف غيره.. مولاتي لم تكن جارية عادية. خرجتُ تحملُ قلبيَ مشاعرُ أرواحٍ لا أراها.

وهذه أنا أكمل ما كتبته إليك خلال سنين.. فهل وجدتني شوذبك التي تبحث عنها؟ وهذه أنا أتوق إلى اللقاء بك.. لأسمع مشاعرك نحوي بعد أن عرفت بأني لست من عنيت في رسائلك.. لأقول لك بعد ذلك ما يجب علينا فعله.. وقد يكون الوقت أفضل الآن لنلتقي ونفكر معا ".

بتلك الأسطر المؤثرة أنهت كتيبها..لأعيد لفه بشريطه الحريرـ.. أقلبه بين يدي بعد أن انشغلت لأيام بالبحث عني بين أسطره.. وحتى آخر كلمة كنت أظنني قد وجدتني لكنها الحقيقة التي تدعوني للبحث عن فارعة التي افتقدتها. أعدت كتيبها إلى موضعه.. خرجت سطح القصر.. تثيرني زرقة السماء.. وتلك الخضرة المترامية. كانت الشمس حارة يتفصد بدني عرقا غزيرا.

.....

استمر برنامج مخيم الندوات.. واستمرت قراءاتي للجمهور من أوراق جوذر.. بعد أسابيع كلفتني الأستاذة ضمن فريق إدارة الندوات.. يراني الجميع رقاصا بامتياز رغم تلك القراءات.. ودوما يطلب مني افتتاح فقرات الرقص.. ليتبعني بقية الشباب والشابات.. وأظل أتمنى مشاركة الأستاذة.. أهم بطلبها لكني أتراجع.. أشعر باحترام وإجلال لها في نفسي. حتى تلك الليلة حين رأيت في عينيها عتباً.. اقتربت منها مددت يدي بدعوتها للمشاركة.. لترفع كفها بتردد.. ثم سحبتها معتذرة لتلتفت عيون الجميع إليها.. ويتعالى تصفيقهم وصفيرهم يدعوها للمشاركة. سارت عدة خطوات.. ثم عادت إلى مكانها رافضة.

أروى

٥٣٢

الأيـام الأخـــيرة:

اثنتان وعشرون سنة من العزلة.. عشتها في شقاء ذهني ممتع.. تعرفت خلالها إلى امتلاك قدرة التحدث إلى الموتى.. مع بداية كل ليلة يتضاعف إحساسي بذلك. أنهض من تمددي مضاعفاً إظلام عينيَّ بإطباق جفنيهما.. مخضعا جسمي للسكون التام.. أصل بأنفاسي إلى أدناها.. أحفز مسامعي لمتابعة أصوات تأتي من بعيد.. من أعماق الكون. أصوات ليست كالأصوات.. يتزايد سماعها كلما أنصت. أقف بهدوء وسط البرج.. أخطو ببطء متتبعا نداء الليل.. أخرج.. أقف في منتصف سطح القصر ناظرا إلى فضاء يملأه وميض ومجرات.. أحس بملامسة هلام همسها.. أغمض عيني.. يغمرني إحساس تسرب كائنات لا تُرى إلى أوردتي.. أشعر بضوضاء في شراييني.. لهاثها.. بعد حين تستقر وتهدأ.. أفتح عيني متكئا على جدار أطراف السطح.. تبهرني تداخل النجوم البعيدة.. يتناغم نبضها مع نبض قلبي.. أتابع حوارها.. تهبط راقصة حتى تلامس أطراف السطح.. أنهض إليها. أجد نفسي أغرق في تأملها.. تتكوم على الجدار الحامي للسطح.. تومض بصمت وسكون.. أشعر بأنها أرواح تعرفني.. أخرج صوتي لمنادمتها.. يسافر بعيدا إلى عوالم بعيدة.. يطول بي الحديث وأنا أرى تنفس وميضها.. تدعوني دون صوت لمشاركتها الوميض. ننهض معا يلتحم ضوؤها بضوء داخلي.. تتمازج أصوات شبيهة وشوشة شلالات عالية.. أنسى نفسي.. أحدثها بكل ما أعرفه منذ طفولتي وأسمع همهماتها.. ومع نهاية الثلث الأخير من الليل تطفو بأضوائه عالياً.. تبتعد محلقة من حيث أتت.. أجد نفسي وحيدا.. أنهض بخطوات يملأها الحبور أطوف أطراف السطح الواسع حتى تبدأ هالة الفجر بالظهور خلف جبال ريمان.. أعود لحظتها جوف برجي.. تلفت مسامعي أزيز زهور مضيئة

على أغصان شجيرتي..أداعب أغصانها المتسلقة التي غطت جزءاً كبيراً من جدران الصمت.

اليـــوم الأول:

بدني يهتز لمضغ السنين.. أقف أمام نفسي لمرات فلا أعرفها.. أبحث عن ملامح كنتها.. أسمع نداء صبي يقبع بداخلي.. أنصت.. أدعوه أن يطل.. لكنه يخذلني. ولذلك تعاملني الجواري كهرم.. بل إن بعضهن يتجنبني.. وأخريات يتأففن.. وقلة يشفقن علي.. أمقتهن جميعاً. الهرمات بملامح مستهلكة.. يردن مني معاملتهن كصبايا.. حقير إن تواطأت مع تصابيهن.. يرين أن من حقهن أن أدللهن كما لو كنت جداً لهن.. غير معترفات ببلوغهن أرذل العمر. كثيرا ما كنت أقارن عمري بمولاتي أروى التي أجزم بأن الموت قد نسينا معاً.

في ذلك الفجر الذي سمعت فيه ضجيج عزرائيل.. هي تلك الأصوات التي تصاحب حضوره دوما إلى قصر ذي جبلة.. نافخات الأبواق وبيارق الفقد اصطفّفَن بمحاذاة أطراف سطح القصر. حناجرهن الحزينة تردد التهليل. تأكد ظني بأنه قد حل بيننا.

أدرت ناظري بعيدا.. الجبال المحيطة تبتسم بخضرة مشوبة بغمرة داكنة.. سفوح تسترخي على أطرافها هالة الفجر.. أشجار الغابة المجاورة تتماوج بألوان بللها مطر البارحة.. أودية يسكنها الضباب.. منظر مغاير لما يعيشه قصر ذي جبلة.

اقتربت من الشرفة.. صخب الجواري يملأ الساحات الأمامية.. القادمات كالنمل يغطين طرقات منحدرات الأودية. وأنين يتصاعد من خلف جدران مجعدة. عدت برجي أقلب تارة رقوق الكتب التي رافقني منذ سنين. وتارة أتأمل سقف البرج الذي يزداد تجهماً. قلق يصاحبني.

ذلك الصباح كان طويلا.. حتى أن طيوري مارسن ما يمارسنه كل صباح. وقفت بمحاذاة أطرف السطح.. شعور بأن كل شيء يهتز. صعدن بخطوات باهتة أمام وهج الأفق.. حسبتهن أرواح نجوم ذابلة وقد تخلفت

عن رفيقاتها.. تهيأت لسماعهن. كُنَّ ثلاث جوارٍ. لا أعرف لماذا طال الصمت لحظات وقوفهن أمامي.. ظننت بأنهن نسين ما عليهن قوله. حتى أني كنت أسمع شهيقهن وزفيرهن. تنفست النحيب إحداهن.. طافت بي عدة أسئلة لم أبُح بأحَدِها. لتبادر إحداهن باكية:أرجو يا سيدي مرافقتنا.. استدرن عائدات. كان علي أن أتبعهن في صمت. هبطنا سلالم القصر.. قاعات تمضغ ترانيم خافتة.. دخان عطري.. اخترقن ممرات متداخلة حتى قاعة امتلأت بعويل يردد نحيب دون حركة.. دائرة مجامر تتنفس أعمدة زرقاء حزينة.. صفوف جوارٍ تلتصق بالجدران بأصوات باكية.. وقفت لوقوفهن أمام تل من أغصان ريحان.. يعلوه جثمان عار.. لم أكن أعرف ما علي فعله.. فقط ترتجف أطرافي وقد أخذت دموعي تنهمر. موقن بانتهاء كل شيء.. بحزن خرج صوت إحداهن وهي تمسح دمعها: سيدتي أروى تقرؤك السلام.. أوصت لك بهذا. مشيرة إلى صندوق وضع جوار تل الريحان. ركعت جوارها. فتحته بأصابع راجفة.. تنفس الصندوق رائحة غامضة.. امتلاء برقوق رُصت بعناية. التقطتْ رقاقة ومدتها إليَّ: أوصت سيدتي أن تقرأ هذه بصوت يسمعك الجميع. رفعت الجارية ذراعها .. ليعم الصمت أنحاء القاعة مشيرة عليَّ: اقرأ. رفعت ناظري لم يعد من أحد على كرسي الملكة.. ولا كفها الحليبي .

رفعت صوتي "بسم ذي الجلال والصلاة والسلام على خير الأنام.. والآل والأئمة الأطهار.

.....

تلك الليلة اعتذرتُ لإحراجها كثيرا.. ظانا بأنها لا تجيد الرقص.. لكنها همست مبتسمة: سأعلمك يوما كيف ترقص!

- متى يكون ذلك؟

- بعيداً عن عيونهم.

- وأين؟

- حدد اليوم ..وعليَّ المكان.

- غدا.

- فليكن.. إذا أنت ضيفي غدا.

هذه وصاياي يقرؤها داعي القلم. أولاها أن يتلو وصاياي وصية وصية أمام الجميع وقد كُتبن بخط زعفراني. ثانيها.. أن ينقش على بدني وشم الرمز الأعظم.. وهو خير من يعلم مواطنها: وسط الظهر.. سنة الكبد.. بين العينين. ثالثها أن يلف بدني بمجموعة من الوصايا كُتبن بمداد أخضر. رابعها. أن يحتفظ داعي القلم بها دون ذلك من رقوق بصندوقها.

خامسها أن يسير على رأس من يحملني إلى المسجد. سادسها أن يؤم المصليات عليَّ. سابعها أن ينزل قبري ليوسدني لحدي!".

أكملت تلك الرقاقة.. ليرتفع همس أعماقي.. ويعم صخب الموت. والفقد.. لحظتها شعرت بأني وحيد في حياة منتهية. أعادني صوت تلك الجارية.. مشيرة بمواصلة قراءة اللفائف تحت نظرات حيرى.

الوصية الأولى.. وهبت الملكة أروى فيها كل ما تملك من حلي ومقتنيات ثمينة قربانا إلى إمامها الطيب رجاءً في ثواب الله وأملاً في رضوانه.. ولأن تكون يوم الفزع الأكبر من الآمنين.. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. مكلفة جواريها بإيصال ما ذكرته إلى باب الإمام الطيب ويأخذن عليه الخط الشريف الإمامي بوصول ذلك.

لفافة أخرى أن أوقفت صوافي واسعة من الأطيان لرعي الماشية.. وأخرى خصص ريعها لصيانة مسجدها.. وسواقي مياه ذي جبلة.. وأخيرة أوصت بأن تدفن في منزل متصل بمسجدها الذي أنشأته على منحدر الوادي كمسجد جامع لذي جبلة.

رفعت وجهي.. لتقف بي تلك الجارية أمام جثمان تل الريحان ببشرته البيضاء كبشرة طفل.. ووجه منكفئ. شعور يغرقني بنهاية كل شيء؟ ماذا تعني سنوات عمري.. أو سنوات عمر جثمان مولاتي.. وما يعني كل من حولي. تساؤلات تعبرني وتمضي لتأتي غيرها.

جوارٍ يقفن حاملات أواني كحل وإبر. يرافقنني بأصوات شجية.. حددت مركزَ شكل الوشم وسط ظهرها.. غرزت بداية زاويته الأولى أسفل الرقبة.. منتصف المسافة بين الكتفين.. والثانية أسفل لوح الكتف.. والثالثة

أسفل اللوح المقابل.. وهكذا كانت رأس الزاوية الرابعة بين الآليتين ثم زاويتيه الأخيرتين متوازيين على الكليتين.. أخذ مني جهدا ووقتا حتى انتهيت منه. أكملت تلوينه بالأحمر القاني.. لتمتد عدة أكف تصلح وضع الجثمان لأواجه وجها متجهما كأني أعرفه أو رأيته من قبل.. لا يشبه أحدا.. ذا بشرة فاقعة البياض.. جفنين رقيقين.. فماً صغيراً متغضنً. شعرت بمس بارد يلفح وجهي. ومفاصلي تخور.. حاولت أن أتماسك لشعور بتمايل ما حولي.. كل شيء يدور.. جثوت لأرى السقف ينقلب.. تحاملت متشبثا بأذرعهن.. عدت أتأمل وجهها.. لم تعد تهمني إن كانت هي أو لم تكن..ولا تلك الأسماء: سيدة.. شوذب.. فندة.. شوشانة.. عطش. أو أي أسم مر أستخدمها.

نسيت ما حولي لتعود ذاكرتي إلى أيام حانوت المعلم.. يوم كنت وشوذب في زمن مضى.. نسير معا في أزقة صنعاء.. نتنفس مساجدها نلتحف دفئها وروائح عُبادها.. تدهشنا زخارف أحزمتها.. أحرف محاريبها. محتضنا كفها الصغير.. نسير متجاورين نلج دهشة مساجد صغيرة. أعادني أنين صلواتهن.. مددت أصابعي تلاحقني ملامح وجهها.. للحظات ذهبت بعيني باحثا عن مركز النقش. بكف مرتعش مسحت فوق سرتها.. حول ثدييها الساكنين. وضعت أصبعي على سنة الكبد.. التقطت إبرة لأنقش..لأصل الزاوية العليا على البلعوم والثانية والثالثة خلف ثدييها الصغيرين من جهة الإبط.. والرابعة على العانة.. والأخيرتين تتوازيان على أطراف البطن فوق الكليتين. انهمكت مواصلاً النقش مع تزايد ترانيم القاعة حزنا.. يرددن تراتيل لا تشبه أي تراتيل.. وكلما زادت سحب البخور كثافة ارتفعت أصواتهن لتنعدم الرؤية. أعادت تلك الأجواء وعيي بما أنا فيه.. وأخذ النقش الثالث والأخير على وجهها وقتاً كبيرا.. فرغم محدودية مساحته إلا أنه أخذ وقتاً..وأنا أتابع تغيرات ملامح وجهها بين فينة وأخرى.. ولم أكمل نقش ما عليه حتى مر وجهها بأطوار حياتها منذ طفولتها وحتى تلك اللحظات.. لم أكن أعرف كم من الوقت مضى.. يقال يوماً أو يومين.. أو أنها لحظات. استويت واقفا وسط ذلك الهول من المشاعر.. لأكتشف بأني لم أعد أنا.

تذكرت ثالث وصاياها.. لففت جسدها بمطويات كتبن باللون الأخضر.. وقد امتدت عدة أكف تصلح من وضعها. أعادني نشيج دموع الجواري إلى وعيٍ سلبَهُ ذلك الوجه. عيناي معلقتان تتأملان أصواتهن.. غمرتني دموع ساخنة. كاتماً ضجيج نحيبي. كفكفتُ دموعي. كنت أود أن أصرخ عالياً..أن أعاتب جثمانا أبيض.

دمعت كما لم أدمع طوال عمري. ثم عدت أطيل النظر لأرى وجها غريبا لا أعرفه.. ولم أره من قبل. بالكاد يشبه وجه امرأة أصابها قبح مفاجئ.. أنهضنني.. وقفت متحاملا على مشاعري.. سحبنني في طوافهن حول تل الريحان.. وعيناي ترقبان ذلك الوجه المخضب.. أفواههن تتعالى بصلوات حلزونية. أدور وسط صلواتهن دون شعور. بعد حين خطوت لأشاركهن حمل تل الريحان وسط صراخ جنوني.. هابطات سلالم إلى الساحة المائجة بالوجوه والأنين.. شققن طريقهن حتى مسجدها عند ضفاف الوادي..امتلأ المسجد وصرحه الكبير وفاض ليغطي المنحدرات بالنساء. سادسها.. وقفت أمام صفوفهن.. يمين تل الريحان مستذكرا ما كنت قد حفظته يوما من صلوات المعلم.. ركعتُ.. أطلت السجود.. وقد سجدن جميعهن! داهمتني أحاسيس متداخلة: هي تستحق أن أسجد لها. أعادني بعد حين نواح صلواتهن وقد ارتفعت أصداؤها. حملنها عبر باب جانبي حتى فوهة بئر عميقة وسط حجرة مربعة. وقد شكلن حوله دائرة تعج بأهازيجهن الوداعية.. يتمايلن منتشيات بصلواتهن.. لتزداد حركاتهن الراقصة مع ارتفاع ترانيمهن الدائرية.. حتى بلغت أعينهن أقصى نشوة.. حينها أخذ صف الجواري يدور دون توقف. ترتفع الأصوات من الأعماق ممزوجة بالأنين والعويل.. أهلن من أغصان تل الريحان حتى امتلأ الأنين.

سابعها.. أنزلنني بأذرعهن..غاطساً في قبرها.. على أغصان الريحان الهشة.. أحتضنها كما لو كانت صبية نحيلة.. دسستها في لحدٍ غائر. أوسدتها بحجر أبيض ندي بدموعي.. تلمستها للحظات.. تسرب تحت قدميَّ أنين لأكتشف كان للريحان صوت زكي .. تلوت مسبحتها الطويلة جوارها.. حبات البخور.. وكثيرا من أشيائها نثرت فوق جثمانها. تضج

أصواتهن بالصلوات.. ليصعدن بي متشبثا بأصابعهن.. مواصِلات تغطيتها بأغصان الريحان.

وقفت جانبا.. زادت غربتي .. لم أعد أفهم ما يدور.. تلك الوجوه غريبة.. كما لو أني أعيش كابوساً. فجأة اجتاحني عدم إحساسي بمن حولي. داهمتني مشاعر قديمة.. بأن شيئاً بداخلي قد مات وليس من وسدتها للتو.. شيء لا أعرف كنهه.. أو أنها ليست مشاعري.. كل ما يحيط بي لا يعنيني. هربت بذاكرتي باحثاً عني إلى زمن المعلم.. أمي.. شوذب الصبية الصغيرة.. روائح أزقة صنعاء المتعرجة.. خُطانا وتشابك أكفنا.. ابتسامتها البريئة.. نظراتها المتعاقبة.

أسأل نفسي: هل ذاك أنا الذي كنت؟وذلك الكائن في سنوات الظلمة.. بحثي الطويل في أرجاء جزيرة اليمن.. يتكرر السؤال عمن أكون؟ وعن ماهية ما حولي.. وسنواتي في ذي جبلة.. أيهم أنا ؟ أين يكمن اليقين؟

جامدا في ذهول تحاصرني سحائب تراتيلهن. أحسست ببلل دموعي على شعر خدي.. ركعت متشبثا ببقايا ظنون. سقطت متهاويا لتمتد أذرعهن . تمسكت.. اتكأت على رجفات ساقي.. لأشاركهن صلواتهن.

اليـوم الثـانــي:

في اليوم الثاني لرحيلها وجدت نفسي ممددا على السطح أمام باب برج الصمت.. إلى جواري صندوقها.. سكينة إلا من صوت الريح تهز أوراق شجيرتي المتشبثة بجدار البرج. أسترجع ما عشته من تراتيل ودفن وصلوات.. أسأل نفسي: هل حقا ماتت هي؟. ما رأيته كان واقعا.. أم أن عقلي أصابته التهيؤات.

صمت مريب يلون السطح.. لم أعد أسمع أصوات النائحات. بينما دوي يستقر داخلي. هرم يجتاحني.. عدت أبحث أمسي في صندوقها.. لم يكن كبيرا كما كنت قد رأيته.. فتحته.. رائحة الموت تسكنه.. مجموعة من الرقوق..لا شيء غير الرققوق تحدثني بأن ما عشته في الأمس ليس وهماً. تحاملت على تعبي سحبته إلى الداخل.. اتكأت عليه أرضا. أخذتني سنة من

النوم.. أو أنني نمت يومي.. أو بضعة أيام.. لا أعرف إلا أني صحوت متوسدا الصندوق. جوع يعبث بأمعائي. أنتظر أن تصعد إحداهن بطعامي كما كان. لم أجد ما أغوي به حاجتي.. تلك الطيور تنتظر فتاتها.. تصدر أصواتا رحيمة.. فتحت صندوقها.. رقوق فوق بعضها غير مرتبة.. أخرجتها.. صففتها فوق بعض.. حاولت تصفح بعضها.. لم تكن متسلسلة كما لو أنها تعني مواضيع مختلفة.. لاحظت دقة رسم حروفها.. بحثت عن علاقة بين تلك الصفحات. عن أرقام.. تواريخ في متونها.. صلة دالة بين صفحة وأخرى.. بعد جهد اهتديت إلى ما يربط بين بعض صفحاتها..

الجمل المشتركة بين نهاية صفحة وبداية أخرى.. لأقرأ:

"بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على خير من وطأ البرية وعلى عترته الأطهار.. وعلى الأئمة من ينبوع النبوة. وأعوذ بالله من مكر الشيطان الرجيم.. وأستعين برحمن رحيم قوي متين.. وبالرسول الأعظم وسره الأكتم.. وآله أصحاب الدرب الأنسب .

في البدء.. أعود بذاكرتي إلى يوم من أيام سنة ٥١٣ حين وجدت نفسي عارية بلا اسم بين سائر الجواري. يومها كانت سيدتي الملكة الحرة سيدة قدس الله روحها مع النبيين والصالحين قد رحلت عن الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية.. وأضحى قصر ذي جبلة يقف أمام عواصف وأنواء.. ولا أنكر بأني كنت أحلم دوما أن أكون سيدته.. لكنها أحلام ليست إلا.. مع استقرار عقيدة في نفسي أن سيدتي الحرة لن تموت ..وإن ماتت سيبعثها الله يوم البعث سيدة كما هي على سائر خلائقه.. هي من لا تفنى ولا تبلى!

.....

غير مصدق أني على موعد معها .. أخذت بإعداد نفسي.. أن نكون دون الآخرين.. فكرت كيف أكون معها.. سأقدم لها هدية بسيطة.. أن أبدو ودودا.. لكن أين سنكون معا؟ لكنها قالت المكان عليها. كنت أعد ساعات الليل وأتمناه أن يُطوى دون قلق. متخيلا ذلك الوجه القمحي بين كفي.. وتلك العينين دائمة الإغماض أمام عيني.. لا يهم فارق السن.. فأنا جد منجذب إليها.

وبعد رحيلها كُنت بلا اسم أو هكذا أرادت لي.. لتتغلب عليَّ صفة "مولاتي" التي تدعوني بها الجواري منذ حين.. والتي أمرت سيدتي يوما أن أدعى به.. ولم أعد أسمع أحدا ينطق أو يدعوني بآخر أسمائي "العروس" نُسي ذلك الاسم الذي كُن يخلنَه واقعاً .. في الوقت الذي لم أستسغه يوما.. رغم استمرار من حولي إطلاقه عليَّ بزهوٍ دائم.. كنوع من أنوع التدليل. أما صفة مولاتي فيشعرني بالسعادة والذي تحول إلى ما يشبه الاسم.. فكان يتملكني.

منذ الأيام الأولى لرحيلها شعرت بسكون روحها في جسدي.. كما لو أنها لم ترحل من حياتي.. أتصرف كأنها موجودة.. المراسلات أمهرها بختمها.. كُنت روحها التي تقوم مقامها.

مع مرور الوقت كان يطرأ على نفسي فراغ مر.. وبدأت أفقد إحساساً بالحزن والفرح.. الحزن الذي كان يجب أن يستقر بقلبي وعقلي لفراقها ويظهر في حركاتي وسكناتي.. ذلك الذي كان يزورني فيما مضى إذا ما اقترفت ذنباً.. لم يعد بعد رحيلها موجوداً.. وتلك السعادة والفرح والسرور الذي كنت أتوقعه بعد أن أصبحت في مكان سيدتي لم أحس به أو أتذوقه ولو في لحظات خلوتي.. هو الآخر مات.. وجدت روحي تقف على مسافة واحدة بين الحزن والفرح. وكثيرا ما احتجت للدموع.. أن أبكي كما كنت أصنع بنفسي حين تضيق بي الدنيا.. أن أتألم.. أن يسكنني ذلك الحزن الذي كان رفيقي.. لكنه كان دوما بعيد المنال. ومرات كثيرة يفرح من حولي لحدث ما.. أحاول مشاركتهم.. تخذلني أحاسيسي. في البداية ظننت ذلك أمراً طارئاً.. لكنه امتد لأصبح كائناً بلا أحاسيس. أدركت بفقدهما معنى أن يموت فينا أهم لذائذ الحياة.. أن يراك من حولك تتحرك وتتكلم.. تأكل وتشرب لكنهم لا يلاحظون أنك لم تعد تبتسم ولا يرون دمعة تتدحرج على خدك مثل أي واحد منهم. كنت دوما أسأل نفسي: أهو الموت الذي أراه ولا يراه غيري؟

وبدأ الخوف والقلق يحتل حواسي وبدني.. القلق الذي يظهر ضعفي وارتباكي. ما جعلتني تلك الأحاسيس ضعيفة في داخلي.. لكني أظهر دوما

بأني قوية أمام الجميع.. بملامح دون معنى.. أرفع صوتي الذي لم يكن لي فيما سبق.. ولا أفصح عن مخاوفي أو أظهر قلقي".

انتهيت من تلك الصفحات.. وأنا جد مشتت.. كانت هي الصفحات التي استطعت ترتيبها! شدتني غرائبية تلك الروح.. أخذت أفحص بشوق لمعرفة المزيد عنها. أبحث.. أزاوج بين الصفحات.. تكملة السطر الأخير.

في الليلة الثالثة لرحيلها احتوى الكون سكون مخيف.. شعرت كأن لا مسامع لي. استمر ذلك الإحساس المحير.. واستمر صمت القصر.. ولم يعد من أصوات أسفل القصر.

اليـوم الثـالـث:

وحيداً دون طعام.. إحساس محير يزيدني قلقا. ألتقط كتاباً في قلق.. لا أستطيع القراءة.. أضعه جانبا.. أخرج من البرج. شجيرتي تزهو على الجدار.. تقاوم هبوب الريح.. جبال الأفق رابضة كعادتها في دعة.. سفوح وأودية تتداخل في تآلف أزلي. أشجار غابة السفوح العليا هانئة برياح فروعها.. أطللت على الساحات الأمامية.. خالية إلا من رياح تكنس بقايا أقدام الأمس.. وقفت محتارا أمام ذلك الهدوء.. لا أعرف ما علي فعله.. في خوف وترقب فكرت بهبوط السلالم.. تجرأت لأول مرة هبوطها بأنفاس متقطعة.. ممرات الدور العلوي يحتلها سكون غير مألوف.. خطوت بحذر قاعاته المتجاورة.. جناح الملكة.. قاعات لقاءات علية القوم لا أحد! مضيت هابطاً في رعب الدور.. سلالم أخرى.. سرت وجلا.. لا أحد.. ستائر تداعبها رياح النوافذ.. خواء غريب.. هي المرة الأولى التي أتجول في أدوار القصر كما أشاء.. أدخل أمكنة غريبة.. وأخرى أعرفها.. هابطاً سلالم سفلية حتى الدور الأرضي.. أطوف قاعة الصلاة الكبيرة.. جدران قاتمة.. روائح عطنة.. شبكة ممرات معتمة.. هدوء بروائح لا تطاق ذكرتني بذلك النقب الذي أطللت منه ذات يوم على سراديب الجرذان.

بحثت عن باب يفضي بي إلى الخارج.. ساحة فارغة.. أبراج صامتة.. ملهوفا علّي ألمح أحداً.. سرت حتى صخرة أطراف الغابة العالية.. ظللت

أدور حولها.. حول جدران المباني حتى بدأ ضوء النهار بالانحسار.. سؤال يهزني: كيف ذلك؟ أم أن شيئاً يتلاعب بحواسي؟.

قضيت ليلتي أهيم باحثاً عن جواب.. بين أبراج الحراسة.. مرابط الخيل.. الدور الملحقة.. مخازن الغلال.. مسجدها.. جثوت جوار قبرها الطري.. شاهدها الذي خط على شاهده: مقام السيدة الحرة أروى سيدة ملوك اليمن.. عظمية المسترشدين.. ذخيرة الدين.. عمدة الإسلام.. كافلة أوليائه الميامين. مكثت أناجيها دون صدى.

اليوم الرابع:

مع ضوء الصباح عُدت أدراجي صاعداً.. يحملني صدى حيرتي.. أسمع خوف قلبي وحشرجة أنفاسي. أُمنِّي نفسي بأن ما أراه وهم سببه جوعي. ابتسمت لشجيرتي المزهوة بأزهارها الصغيرة.. وتلك الطيور التي تحجل حولي كما لو كانت تواسيني. ارتميت على فراشي منهك القوى.. أراقب خفقان أجنحتها يملأ فضاء البرج.. يسكنني رعب من الغد.. أفكر وأفكر حتى احتواني خدر لذيذ شبيه بالنوم.. تمنيت لو لم أصحُ.. وأنه أمتد إلى الأبد. كان الليل قد حل.. لبستُ ظلمة حيرتي . متمعناً عتمة السقف.. ثم نهضت خارج البرج أدثر روحي بجلال الكون.. لمعان نجوم ألفتُ صمتها وألِفتْ حديثي. هدوء يصطحب عقلي لمجالسة ذكريات الأمس.. ذاهبا إلى ذلك النهار البعيد الذي طردت فيه الجارية فارعة.. يسكنني عتاب منذ لحظتها. لا أعرف لماذا كنت أنتظر عودتها.. إطلالتها مرة أخرى.. أن تعود ليفاجئني حضورها. لكنها لم تكرر ما كانت تفعله. أتذكر بأن جواري البريد كُن يتعجبن لنظراتي الفاحصة.. لم يكنَّ يعرفن بأني أبحث عنها في عيونهن.. في ثنايا ابتساماتهن. مع مرور الوقت تضاءل أمل ظهورها.. ثم ذوى.

ومن يومها أوزع وقتي بين قراءة تلك الكتب التي كانت هي من حملتهن في آخر لقاء إليَّ. لأكتشف بأنهن كتب حانوت صنعاء المسروقات.. لا أكرر قراءتهن حبا في القراءة بل هربا من فراغ كاد يقضي علي. ثم الجلوس إلى عقلي.. وتارة قلبي.

وأتذكر أني استأنست عصافير وغربان وحمائم.. لم يختَرنني.. بل أنا من تحايلت عليهن.. بدايةً بنثر فتات الخبز على شفة جدار السطح.. ليتكاثر هبوطهن وعراكهن.. ومن إن ينتهين حتى يحلقن عاليا.. أضحت لهن مواعيد مع فُتاتي.. أرقب هبوطهن وتحليقهن.

مع موسم الأمطار تنبت على زوايا السطح نباتات ما تلبث أن تذوي وتجف.. تبذرها الطيور من زبلها.. وهكذا سنة بعد أخرى. لكنها الطيور تكاثرت.. أبقى على شفة السطح بعد تحليقها أراقبها عاليا وأميز كلاً منها بحركاته الطائرة.. أعاود نثر فتات الخبز على السطح وأمام باب البرج.. يوما بعد يوم تقترب ثم تحلق بعيدا.. تنضم طيور جديدة وتختفي أخرى.. كانت تلك الطيور تتقيد بمواعيدها الصباحية.. ثم أخذ بعضها يتجرأ مقترباً ليقف على عتبات باب البرج منتظرا فتاته.. ومع الأيام أصحو لأجدهن متجمعات .. أفتت لهن ما أحتفظ به من خبزي.. أضع لهن وعاء الماء.. سنة بعد أخرى حتى كان بعضها ينسل باحثا على أرضية البرج ما يلتقطه.. لا أعرف متى لكنني مع الأيام وجدت بعضهن يشاركني برجي وقد بنت أعشاشها على أرففه و فتحاته الداخلية..ولم يعد برج الصمت يخصني. أمد ذراعي ليتقافز بعضها دون وجل.. لم يكن يزعجني منها إلا مخلفاتها التي تنثرها كيفما تشاء.

نَمتْ نباتات أخرى مع هطول أمطار مواسم متلاحقة.. كانت إحداها مختلفة.. فبعد أن ذبلت جميعها بقيت تقاوم.. تمد أذرعها كعمياء باحثةً عما تتكئ عليه.. سارعت بنقلها إلى وعاء ملأته تراباً وخليط مخلفات الطيور.. وضعته على يمين باب البرج.. أتابعها صباحا ومساء.. تنمو لها

.....

لم تأتِ الساعة الحادية عشر حتى جاء من يدعوني: الأستاذة تنتظرك لنخرج معا. فوجئت أننا لم نكن بمفردنا ونحن نتناول طعام الغداء.. كنت أود سؤالها.. تبادل غيض نظراتي مبتسمة.. خمنت بأننا سننطلق بعيدا عنهم بعد تناول طعام الغداء حسب وعدها.. لكنهم كانوا معنا في سوق القات.. تبتسم وهي تتابع وجومي وكأنها تقرأ ما يعتمل بداخلي.. توجهنا معا بعد ذلك إلى أحد أحياء صنعاء.. فيلّا لمحت على سورها لوحة تشير إلى أنها مقر لمنظمة حقوقية تخص الدفاع عن حقوق النساء.. مدخل تزين أطرافه شجيرات مزهرة.. صالة واسعة ضمت في جانبها طاولة اجتماعات ومقاعد نظيفة. صور جماعية لفتيات يحملن شهادات تتوسطهن الأستاذة.. وصورة أخرى خارج الوطن تظهر الأستاذة وسط خليط من جنسيات مختلفة.. صور متعددة لأنشطة المنظمة ومشاركة الأستاذة.

أصابع رقيقة.. أخذت تتشبث بأحجار الجدار.. بل وما لبثت أن تسلقته.. زادت نضارتها وتفرعت أغصانها.. ولم تمر أشهر حتى غطت أحجار أحد زوايا الباب.. بزغت لها زهور صغيرة.. دهشت لألوانها.. بدايةً بنفسجية غامقة.. لتتحول مع مرور الأيام إلى السواد اللامع . وهكذا أصبح وقتي يزدحم.. أوزعه بين القراءة ومراقبة تلك الطيور والعناية بالمتسلقة. ثم أسكن شطراً من الليل إلى ذلك الوجود الغامض من حولي.. أنادم الأرواح حين تهبط على شكل نجوم. هكذا سارت حياتي على مدى سنوات برج الصمت. حتى ذلك الصباح الذي دعتني مولاتي إلى حضرتها.. رافعة كفها.

- هل من كدر في حياة عزلة البرج؟

- لك الشكر.. أعيش في دعة وهدوء.

- يهمني سعادتك فقد خدمتنا كثيراً.

لم أتوقع أن أسمع في حضرة الملكة ذلك الكلام الجميل.. شعرت بإرتباك.. لأكتشف أن ذلك كان مقدمة لتكليفي بالسفر.

- دعوتك لأكلفك بحمل رسالة إلى أمير المؤمنين في القاهرة. فأنت خير مؤتمن.

لا زلت أتذكر تلك الرحلة الطويلة إلى مصر.. والمصاعب العالقة في ذهني.. خرجت وخمسة من الفرسان نقطع براري وقفار أستغرقتنا أياماً طوال حتى ركبنا البحر.. وتسافر بنا المراكب أياماً من سنة ٥١٤. عادت من أيام ففيها كدنا نلفض ارواحنا عرض البحر.. ولم نصل إلى بر مصر إلا أشباحاً متهالكة.. وما إن وصلنا مصر حتى سكنني رعب العودة وتلك المعاناة على مركب تتقاذفها الأمواج ويحملنا الدوار طوال الوقت.. ورفض النفس للأكل والشراب. حتى أمسيت شبحاً مسناً.. ولذلك كنت أخشى بعد مصر أن تخرجني مولاتي من دعتي وسكوني في مهمة أخرى.

اليــوم الخـامـس:

ينقطع خيط ذاكرة الأمس البعيد لأعود إلى جوعي وخوفي.. وسط سكون هالة الأفق وانبلاج ضوء فجر يوم جديد.. أنسحب من برد أشبع جسمي.. إلى دفء البرج.. ألتقط ما صففت من صفحات الصندوق.. أغوص متمددا تحت أغطيتي. مواصلا قراءة مولاتي الراحلة:

"ويوما بعد يوم كان ذلك الأمر يستقر في طبعي .. أقاوم القلق بالتجهم.. أستبدل موت الحزن والفرح بنشاط لا يتوقف.. اسم العروس يبتعد يوما بعد يوم حتى نسيه الجميع.. ولم تعد من تتفوه به.. وإن سمعته من إحداهن يبدو لا يعنيني أو دون روح .. مقابل ذلك كانت روح سيدتي قد استقرت داخلي.. حتى أمسيت أنا غريبة أمامها.. روح تتملكني. تقودني صامتة.

تلك الليلة وقفت كعادتي في قاعة الدرس.. أتأمل صفوف أعمدة القاعة التي بدت كأني أراها لأول مرة.. أسأل نفسي: هل كانت سيدتي تتأملها كما أنا الآن.. أقواس سقوف عالية. تتدلى منها أعمدة رشيقة.. مسارج الضوء تهتز فوق وجوه الواقفات أمامي صفاً صفاً.. لم أرَ يوما ملامحهن متجهمة كما هي الآن..عيونهن لا تفتر من النظر إليَّ. عيناي تتنقل فيما حولي كما لو أنهما ليستا عينيَّ.. ارتعش جسدي وأنا أسأل نفسي: هل أنا من أتحكم في عينيَّ أم روحها تطل من عيني؟ كنت في رعب أن تكتشف الجواري ما حل بي.

أغمضت عينيَّ.. أهامس جاريتي فارعة: أخرجيني من هنا.. لم أعد أقوى على إغلاق جفني!

.....

دخلت بعد تأملي صور صالة الاجتماعات.. ديوان مستطيل مؤثث لجلسات طويلة.. ومفارش ووسائد.. عدد من نارجيلات معسل تعطر فضاء الديوان. أخذ كل مجلسه ذكور وإناث.. نمضغ أغصان القات ونرتشف خراطيم المعسل بشراهة ما يدفع الجميع للحديث.. يدور نقاش متداخل حول ساحة التغيير والثورة المسروقة.. وما طرأ عليها من انشقاقات وتآمر.. عرفت من أحاديثهم أن ذلك المقيل دوري .. يلتقون فيه لمناقشة ما يخص منظمتهم.. وأنهم يلتقون شباباً وشابات لتناول القات ولمناقشة ما يمكن معالجته بعيدا عن أسماع الآخرين.

سحبتني متكئة على كتفها.. متخيلة همساتهن وتشييع نظراتهن.. مفتحة العينين حتى حجرتي.. سألتها بل رجوتها ألا تتركني. ظلت تردد أدعية وصلوات طوال الوقت. تسألني عما حل بي. فأحدثها مغمضة العينين:

- أحس روحها تعبث بي!

تضع رأسي على صدرها مستمرة في أدعيتها.. ثم ترفع وجهي:

- سمي الله وأغلقي جفنيك.

مترددة مع ذاتي كما لو كنت في خصام معها. نشطت أسناني بتمزيق شفتي السفلى دون إرادة مني .. شعرت بألم في مسامعي.. أغلقت جفنيَّ! كنت أود الحديث إلى سيدتي.. أن أدعوها تمنحني بعض القوت.. ترددت.

شعرت بإصبع فارعة تلامس شفتي المدماة. ناظرة إليَّ بفزع: كيف جرحتِ نفسك؟

- لست أنا. ألا ترين من تراك بعيني؟ لست أنا! لا أريد لأحد أن يعلم ما يدور.

- ولماذا يعلمن؟

- أريد العودة إلى قاعة الصلاة.

- لكنك متعبة.

- سأقاومها. هيا نمضي.

جلست على مقعد الدرس. خرج صوتي .. ولم أتقيد بما كنت أود إخفاءه.

- لم ترحل سيدتي .. هي تستقر بي.

رفعت رأسي لأرى صدى كلماتي أو كلماتها في عيونهن.. كُن واقفات في صمت يتأملنني.. صمتٌ بدوري . الكل يبحث في ملامحي . أشعر بصراع يحتدم بداخلي. لينتصر صوتي.. سمعته يبسمل ويصلي على الرسول ويثني على الأئمة والآل. ثم صمتٌ أتأمل تلك العيون المشرئبة..

لأسمع صوتي مرة أخرى مواصلا: هذه المرة أقف بينكن وسيدتي من تحدثكن وهذه العيون هي عيوني لكنها هي من تنظر إليكن فهل ترينها.. هي لم ترحل عنا.. تدعونا أن ننشغل بالمحافظة على مملكتنا.. وليس برحيلها.. تدعونا إلى أن نفكر بمواجهة المخاطر التي تتهدد ذي جبلة. تسرب همس متفرق ما لبث أن تصاعد.. أردفتُ: لم ترحل مليكتنا.. وكل جارية فيكن هي الملكة.. وستظل سيدتي ملكة الإسماعيلية في الدنيا. سنمهر رسائلنا بختمها.. وسنراسل الجميع باسمها.

ارتفع صوت خجول: أنت مولاتنا. تبعه صمت محير للحيظات.. ثم ضجت القاعة بالتكبير والتهليل. داهمني عرق غزير.. شعرت في تلك اللحظات بأن روح سيدتي تهدأ بداخلي. ما لبث صوت آخر أن ارتفع: "امضِ ولا تبالي بي!" كان واضحا.. هو صوتها.. أبحث عنه بين وجوههن.. مرّرتُ ناظري باحثة عن وجهها.. لم أهتدِ إليها لكثرة الوجوه المشرئبة. لكني أدركت بأنه صادر من داخلي. ابتسمت متابعة: علينا أن نحافظ على إرثنا ومملكتنا كما أرادت.

لا أعرف كم قضيت من الوقت أحثهن على كتم أسرار ذي جبلة.. وألا نخيب ظن سيدتي بنا.. وأن.. وأن. حتى رأيت من في القاعة يتماوجن. ولا أعرف بعد ذلك إلا أني صحوت وسط ظلمة وسكون مريح.. وحيدة أفكر بما يدور.. أتحسس ما تحتي من فراش فأجدني في حجرتي.. رعب يتسرب أن تخرج أسرار ذي جبلة إلى المتربصين من أمراء الحصون.

سارت الأمور لعدة أشهر كما لو أن سيدتي لم ترحل. فلا منغصات ولا ما يقلق. حتى وصلتنا رسائل تفيد بمقتل أمير قلعة التعزية وقلعة صبر. كان ذلك أول امتحان لي.. الجميع ينظر إلى ما سأفعل. أدركت بأن علي أن أجد مخرجاً.. وأعرض عليهن فيما سنقوم به.

بعدها بأيام وصل أمير بني الزر الخولانيين أمير حصن خَدَد والتعكر إلينا.. ليتحدث بكلام أوحى معرفته بسر ذي جبلة.. وأنه الأولى من غيره.. متعهدا على حماية ورعاية جميع جواري ذي جبلة. تماسكت وأنا

أسمعه. ثم أوعزت للجواري بحجزه.. ولا أعرف هل كان ذلك حمقا مني أم حكمة.

أخذنا بالحذر من ردود أفعال إخوته وأبنائه الذين جزمت بأنهم لن يجرؤوا على البوح بما يدور خوفا على أميرهم.. ولن ينشروا ما يدور.. خوفاً من تكالب أمراء آخرين على ذي جبلة.

من ناحية أخرى بدأنا بتقصي تسريب سر ذي جبلة.. وسريعا ما اكتشفنا أنها إحدى جواري البريد التي سربته إلى جارية في حصن التعكر كنا قد أهديناها فيما مضى.. ولأول مرة تشترك أظافر وأسنان عدد كبير من جواري القصر بإنزال العقاب جماعيا بها. أدركت ذلك اليوم أن ذي جبلة في مأمن.

وكما توقعت عاد بني الزر الخولانيين إلى محاولاتهم.. لكن ليس بالتفاوض.. ولم يجرؤوا دخول القصر ومقابلتي.. بل اكتفوا باستعراض قبائلهم عبر الأودية المجاورة والتلال.. مستعرضين كثرة قبائلهم.. مع حرصهم على كتمان ما يعتقدون. استمروا لأسابيع حول ذي جبلة.. بينما كان همي البحث عن وسيلة للخروج دون خسائر مما نحن فيه.. يلازمني رعب المستقبل. استنجدت بتعاليم هامش سيدتي.. فلم أجد حيلة ناجعة.

أخذ منا بنو الزر الخولانيين جل أوقاتنا نظرا لقربهم من ذي جبلة.. بل وخطورة ما يسعون إليه ولذلك أعطيتهم جل تفكيري.. خاصة وقد زاد عبثهم وأمسى حُصنا التعكر وخدد مأوىً للأفاقين.. ومركزا لانطلاق قطاع الطرق والعابثين بالرعية وممتلكاتهم .. ولم يكتفوا. بل زادوا الأمر تعقيدا بفرض إتاوات على القوافل العابرة. كنا في موقف لا يشجع الاستعانة بأي

.....

دنت الشمس من مغيبها.. استنفذ الجميع أحاديثهم وبدأ الصمت يخيم.. أشارت على إحداهن بإسدال ستائر النوافذ وإدارة جهاز الأغاني.. وما هي إلا لحظات حتى خيم أثر النغم على الحضور.. يهز البعض رؤوسهم في انسجام وأخرى تردد مع اللحن كلمات شعرية.. ما لبثت إحداهن أن نهضت تتمايل راقصة.. استجاب شاب لمشاركتها.. رقصا بانسجام كثنائي متكامل.. رددت أكف الجميع صفقات إيقاعية.. كانت ألأنغام تراثية شجية تسافر مع أول الليل.. وكان المكان معتماً تعودوا ألا يشعلوا الأنوار.. وهكذا ما إن ينهي ثنائي رقصته حتى ينهض ثنائي آخر مواصلا. تنظر الأستاذة إلي وابتسامتها تلازم شفتيها.. تهتز وهي جالسة في دلال ومرح كمن تود قول شيء.

أمير من أمراء الحصون.. في الوقت الذي بدأت بالبحث عن حيلة أستطيع بها صد عبثهم.. ذهب تفكيري بعيداً. لم يسبق أن سبقتني إليه سيدتي سيدة أو أسماء. سريعا ما كلفت رسولاً يحمل رسالة من الملكة إلى أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله.. شرحت فيها أوضاع الدعوة المستعلية.. وتطاول بعض الأمراء بإعلانهم الميل إلى النزارية.. كما توسلت إليه انتداب مستشار مع بعض الجند لمساعدتنا على مواجهتهم. وكان أن كلفت أحد ثقاتي من كان ناسخا لرسائل سيدتي الحرة بحمل الرسالة سرا إلى حضرة مولانا أمير المؤمنين.

بعد أن غادرنا الرسول إلى القاهرة أمرت بإحضار أميرهم إلى مجلسي.. رفعت كفي مؤكدة بأني الملكة: هذه أنا حية أرزق. مبدية إعجابي بما عرضه عليَّ .. وأني قد مللت كرسي السلطان.. موحية له بموافقتنا على ما طرحه.. شريطة كتمانه الأمر لبعض الوقت.. وإعطائنا أياما لترتيب أمورنا.. مشترطة تسليمنا تلك الجارية التي أهديته لها ذات يوم.. ولم يناقش.. بل أبدى حبورا وسرورا.. مكرراً عهده بالاهتمام بنا ورعايتنا مدى الحياة.. ملتزما بكل ما اشترطناه.

لم أكن على يقين من تجاوب أمير المؤمنين لما طرحته.. كان القلق والشك يحوم حولي ليل نهار: ماذا علينا فعله في حالة اعتذاره متعللا بانشغالهم بمواجهة الفتن والصراعات حول الحكم.. وتلك الاغتيالات والملاحقات بين جناحي المذهب تصلنا بين فينة وأخرى. أراقب بني الزر وتحركاتهم.. ويبدو أنهم انشغلوا بتهيئة أنفسهم لتحقيق حلم كبير.

عاد رسولي بالفرج.. عاد وبمعيته مستشار يكنى بـ "ابن نجيب الدولة" وقد وصفه الوزير الجمالي في خطابه إلينا: بالأمير المنتجب.. عزالخلافة الفاطمية.. فخر الدولة العلوية.. الموفق في الدين.. ولي أمير المؤمنين. وفور مثوله في حضرتنا أعلنته أميراً للأمراء. ليجمع تحت أمرته أربعمائة فارس من سنحان وهمدان .. إضافة لمن جلبهم من مصر.

لم يستوعب أمير بني الزر ما يدور.. في الوقت الذي حشد قبائله من جديد دافعا بهم إلى قطع الطرقات وإعمال النهب والتخريب.. فكان أول اختبار

يواجهه ابن نجيب الدولة تأديب بني الزر.. ليتوجه من فوره لمحاصرة حصن التعكر.. ولم يصمد الأمير الخولاني ..إذ سريعاً ما فر ومن معه من بني الزر ليتجمعوا في حصن خدد. ومن جديد يلحق بهم المصري.. ويخرجهم مستسلمين.. وإلى حضرتنا صاغرين ومتعهدين بعدم العصيان. وبدورنا أمرنا بتركهم.. لنولي على حصونهم ولاة جدداً. طارت أخبار هزيمتهم في الأنحاء. وسافرت أخبار انتصارات ابن نجيب الدولة وبسالته في أنحاء جزيرة اليمن.

نعتني بعدها ابن الزر الخولاني بـ (أروى) تشبيها بالحية الملساء. لينتشر ذلك النعت بين الناس.. وأعترف بأن ذلك ضايقني في بداية الأمر.. ومع مرور الأيام استسغته.. ليلتصق بي حتى أصبحت لا أُعرف إلا به.. لأتقبله.. ولم يمر وقت حتى كنت أمهر الرسائل :الملكة الحرة مضيفة ذلك النعت (أروى) لأجد نفسي مع مرور الأيام فيه. في القوت الذي ظن الآخرون أن صفة أو لقب جديد قد أضيف لسيدتي الحرة سيدة الذي ظل موتها سرا لا يذاع.

كانت ذي جبلة مقرا لابن نجيب الدولة. ومنطلقا لغزواته في تأديب العصاه. ولم تنته سنة ٥١٤ حتى كان معسكره يرعب جميع أمراء القلاع والحصون في جزيرة اليمن.. وأصبح حضوره يتصاعد.. أثناء ذلك استرد قلعتي تعز وصبر.. وأمسى الجميع يخشى ذي جبلة. بينما كان معسكره يتسع كان قلقي يتزايد. إذ إن وجوده في ذي جبلة يمثل خطرا عليها.. ولذلك ظللت أبحث عن حل لذلك.. وفي أثنائه لم أدعه يستقر.. توالت عليه أوامري لإخضاع العصاة من الأمراء.. ليستتب الأمر.. وتنتظم الوفود من مختلف أنحاء جزيرة اليمن. وتتضاعف العوائد.

تفرغت بعد ذلك لترتيب القصر من الداخل.. قربت رئيسات الجماعات والمعلمات وكلفت من بينهن من تشرف على أنشطتهن.. ومن ناحية اتخذت من جاريتي فارعة أمينة أسراري إضافة إلى أنها منذ حين كاتبة رسائلي.

على الملكة أن تتخذ القرارات الصائبة.. ومن ذلك اختيار مساعداتها.. وأعرف لماذا قربت كاتبة رسائلي دون سائر من حولي؟ فهي أكثر الجواري استجابة.. وأكثرهن طاعة وأكثرهن صبراً وضعفاً. ودوما كنت أسأل نفسي: لماذا يميل السلطان إلى أكثر الناس طاعة واستجابة وأكثرهم ضعفاً؟! فالجارية فارعة ظلت تتخفى وراء قناع لا مرئي.. لا تتجاوز في تعاملها معي حدود خَطتها لنفسها منذ كنتُ أنا جارية.. وحتى اليوم بالرغم تبسطي معها.. ودوما ما تكون ردود أفعالها في حدود ما أراه مناسباً.. كمن تراقب نفسها وتصرفاتها.. وذلك ما أشعرني دوما براحة حين تكون إلى جواري.

كما وضعت العلامة يحيى بن القاضي (لمك) داعيا لدعاة المذهب. وهو الداعي لجميع دعاة المذهب وتوجيههم وهو الأمر الذي كنت أجهله . ولذلك حرصت على الاستماع إليه كثيرا في أمور الدعوة.. الأمر الثالث أعدت ترتيب الجماعات وأبقيت على خمس وهي:

- جماعة متابعة ما يرسل من جوارٍ.

- جماعة شؤون القصر.والتهذيب والدروس الدينية.

- جماعة تدريس الحيل واللهو والدلال وفحش السرير والرقص والغناء.

- جماعة التداوي. والمحاليل.

- جماعة الشعر وأخبار الأدب .

كما أدخلت تغييرات على أوقات الدروس الليلية ونوع الدرس الذي أقوم به.. وخفضت أوقات الصلوات.. وزدت من أوقات المديح. لنستعيد بذلك ما فقدناه من حماس وترابط.. وغيرت أوقات دروس النهار. وأمسى القصر يضج بالحياة والنشاط على الدوام. وعاودت إرسال هدايانا من الجواري إلى كل ولاتنا على الإمارات المختلفة. لتنتظم المراسلات من الحصون والقلاع في أرجاء البلاد".

اليـوم الســادس:

وضعت صفحات مولاتي جانبا.. كنت في شوق لمتابعة القراءة.. محاولا إغواء الجوع بخروجي أجول في سطح القصر.. لكنه غزا جسمي بوخز مؤلم وبرد شديد.. بل كاد يفقدني انتباهي.. تمددتُ تحت أشعة الشمس علَّ الموت يأتيني من شقاء لا يُحتمل.. تجمعت طيوري حولي مصدرة أصواتا لا تشبه أصواتها . رأيت الشمس قرصاً شهياً.. شممت رائحة احتراقه.. تمنيت الوثوب لتذوقه.. وقد مالت من قبة عرشها.. لم يعد لدي ما أتناوله.. تأملت أغصان شجيرتي المتسلقة.. مددت أصابعي.. قطفت غصناً غضاً تذوقته.. كان مرا.. قطفت زهرة.. كانت حنضلاً.. حاولت اصطياد بعض الحشرات. مر بعض الوقت ليزداد الشعور بالجوع.. صقيع يتخلل عظامي. فكرت من جديد بهبوط السلالم.. أن أتسحب بعيداً هناك في الغابة.. قد أجد ما يؤكل.. أو أن تأتي الضواري فتلتهمني. مكان مناسب أموت فيه.. ودون تردد هبطت السلالم.. تعثرت في ممرات الدور الأعلى منهكا.. حتى عيناي أصابتهما غشاوة.. أتسحب حتى وجدتني في حجرة واسعة شبيهة بما كانت فارعة قد وصفتها في إحدى رسائلها القديمة.. حجرة الملكة حيث سريرها الواسع وصناديقها الموزعة.. أرفف جدارية.. لم أجد حتى كسرة خبز.. زحفت حتى قاعة أتذكر بأني جلست فيها ككاتب يوم لقاء مولاتي سيده بالنجاحي.. ثم القاعة العامة حيث مقعدها المتجه للجدار وقد اعتلى منصة مرتفعة.. كل شيء كما هو.. المقاعد الوثيرة المتاكئ.. الستائر تهزها الريح.. صناديق هنا وهناك.. لا تهمني بقدر أن أجد كسرة خبز. قاعة كبيرة لم أسمع بها..وقد امتلأت جدرانها بكتب كثيرة أظنها تلك الكتب التي جمعها اليامي من صنعاء.. سرت أبحث في الزوايا.. قصر خاوٍ ومخيف.. تمنيت أن ما أعيشه كابوسا.. هبطت الأدوار السفلى حتى قاعة الصلاة الواسعة.. قاعة تفضي إلى أخرى وممرات تدلني إلى ممر.. باب يفضي إلى طرقة طويلة سرت بها.. أفضت إلى دار ملحقة.. لم أصدق أنفي وعينيَّ.. مطاحن.. وأواني .. وأفران.. وأكوام حطب.. وأحواض مياه.. مخازن حبوب ومطابخ.. وأخرى بالدقيق وأوعية من الخوص ملأى بكسر الخبز وجرار سمن وعسل.. خشيت أن أكون في حلم.. التقطت كسرة يابسة.. لكتها بتمهل.. كانت حقيقة.. سكبت سمنا وعسلا .. تناولت منه حتى تصببت عرقا نديا.. عاد لبدني بعض حيويته.. حملت في

خوف وعاء خبز وإناء ملأته عسلاً وسمناً.. صعدت بما أحمل.. نثرت كثيراً من الفتات لطيوري. عدت هابطا لأجلب مايكفي من الماء لشجيرتي وطيوري.. كنت مجهدا وأنا أرى الشمس تسحب خيوطها مبتسمة.. طيلة الليل لم أنم.. بقيت أتحسس ما حملته من الأسفل خوفا أن يختفي.. لم أنم ليلتها حتى أشرقت الشمس.. أدركت أن ما لدي خبز وسمن وعسل حقيقة.. وأن ما رأيته بالأمس واقع.

ظل اختفاء سكان القصر يحيرني. وقفت متكئا على جدار أطراف السطح أتأمل الحياة في الوديان والجبال المحيطة.. أبراج الحراسة الصامتة.. في البعيد هناك مزارعون في المنحدرات البعيدة يهبطون باتجاه الوادي.. أغنام يزمها راعيها في سفوح قريبة وآخر يلاعب كلبه الذي يحجل في مرح حوله. وآخرون في مزارعهم.. كانت الحياة تسير بشكل طبيعي إلا في قصر ذي جبلة.. جلست أفكر فيما علي صنعه. هل أخرج إلى الناس؟ أم أنتظرهم حتى يأتوا ؟ قد يسألونني عن سكان القصر.. ماذا سأحدثهم؟ هل سيتركونني بسلام؟ ماذا سيكون مصيري؟ فكرت فيما علي فعله.. اهتديت إلى حماية نفسي بإغلاق جميع أبواب القصر والمباني الملحقة من الداخل.

الشمس تقترب من حواف الجبل الغربية زعفراني ضوءُها.. عصافير تملأ الأفاق تودع يومها بصخب. قضيت ليلي جوار نهر متدفق لذكريات الأمس. في لهفة عدت متمددا على الفراش.. أواصل قراءة مولاتي:

" وأتذكر لحظة حل ابن نجيب الدولة في حضرتنا.. سحرني بصوته.. كدت ألتفتُ بوجهي.. كان صوته عذبا ومختلفا عن كل الأصوات.. ولذلك كان لنا مكان يمكن رؤية من يزورنا دون أن يلحظ.. ولا أنكر بأن عيني أنست له.. وقد رأيته ذا طلعة بهية. لكن صوت سيدتي جاء زاجرا من الماضي.. لأعود إلى ما علي أن أكون .. وهكذا كلما خفق القلب ألجأ لأساليب ترويضه.

لم يسكن قلبي حقد على من أعلنوا عصيانهم فيما مضى.. وإن ذكرت الرسائل الواردة تذمر بعضهم من اتساع نفوذ المصري.. ومن

الانتصارات التي حققها في جزيرة اليمن.. يظنون بأنهم أولى بما يقوم به. ولذلك كنت أنتقي بين فينة وأخرى بعضهم موجها إياه بتأديبهم. لم يكن يرى ما أراه. فهو لا يعلم بنظام الجواري والعيون المنتشرة في القلاع والحصون. ليؤمن البعض بأن الله من يرعى تلك الحروب.. وأنها بوحي ومشاركة ملائكة سماوية. زاد استقرار البلاد ودخلت في أبهى أيامها. وبدورنا كنا نوَليَّ أمراء جدداً من أتباع المذهب وأكثرهم إخلاصاً بديلا لبعض أمراء الحصون والقلاع المنهزمين.. مرسلين المزيد من عيون جوارينا ممن دُربن على التأثير في محيط تواجدهن. ومن لهن حظ من الحسن والدلال.

تزايد معسكر ابن نجيب الدولة اتساعاً.. ليعاودني القلق.. وأضحت الوفود تتزاحم على ذي جبلة.. واضعة نصب عيني ألا أتركه يلتقط أنفاسه.. زاجَّةً به في حروب متتابعة.. مستفيدة من إحدى تعاليم سيدتي: "خير علاج لتقليص تعاظم قوة أمير إدخاله في دوامة حروب لا تنتهي". ليقضي أيام سنته الأولى والثانية دون استقرار يغزو هذا ويهاجم ذلك. وفي لحظة جلست إلى نفسي وذلك السؤال يحاصرني: إلى متى ستظلين ترسلينه إلى الحرب؟ سيأتي يوم يستقر ويعود ملتهما ذي جبلة! ثم لماذا يجب أن يظل في ذي جبلة؟ أما اعتبرتِ فيما مضى من تهديد المفضل صاحب التعكر.. وأطماع السلطان سبأ ومفتاح وبني الزر؟ لماذا لا تفرغ القلاع والحصون المحيطة بذي جبلة من قوتها.. فأي أمير قريب يشكل مع مرور الأيام خطرا عليك.. لتعاود فكرة نقله بعيدا.. وبدأنا نبحث عن بلاد تكون مقراً لمعسكره.. فلا تكن بالقريبة بحيث تتحول إلى مصدر تهديد.. ولا هي بالبعيد فيغيب دورها في صد أي هجوم محتمل على ذي جبلة. وتم اختيار "الجَند" مقرا لمعسكره.

لم تمض أيام حتى انتقل المصري إلى الجَند.. ولم تأت سنة٥١٦ حتى بدأ يتصرف كأميرٍ مستقل.. وما زاد إحساسه بعلو شأنه وصول ما يزيد عن ألف رامي سهم من السودان والأرمن.. بعثهم إليه البطائحي وزير أمير المؤمنين وأضحى بتلك الجُنود مهاب الجانب. فلم يعد مهتما بإخبارنا عما

يخطط له.. أو ما يقوم به.. متباطئاً في تنفيذ ما نأمره به. لتعاودني الحيرة مهامسة نفسي: صبرٌ جميلٌ.

ومع نهاية سنة ٥١٦ أفادت الرسائل الواردة من الجَند أن الوزير البطائحي في القاهرة أرسل إليه برسالة يفوضه فيها ويطلق يده في جزيرة اليمن دون الرجوع إلينا. وكان ما يقوم به الوزير البطائحي أمراً غريباً.. فهو يعرف أننا من طلبنا من أمير المؤمنين مستشارا يعيننا ويكون رهن أوامرنا.. لا أن يتحول ذلك المستشار إلى والٍ يتبع مصر.. وأن يخاطب دون الرجوع إلينا.. بل ويرسل الجند والمراسيم التي تطلق يديه في جزيرة اليمن دوننا. ما جعل يقيني يزداد من أن الإمامة الإسماعيلية في القاهرة بدأت تتهاوى ضالة عن طريقها . معتمدة على ابن نجيب الدولة في نشر الدعوة وبسط نفوذها.

حررت رسالة إلى مولانا أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله.. كلفت أمينا قويا بإيصالها إليه دون أن يعلم بها الوزير البطائحي.. ليعود الرد مخيبا للآمال.. فهمت بما لم تبح به الرسالة بأنهم منشغلون بالصراع الدائر هناك.. كما فهمت بأن الوزراء هم من يتحكمون بمجريات الأمور.. ويتصرفون كما يحلو لهم. لأدرك بأن عليَّ أن أعالج ما يهدد ذي جبلة معتمدة على نفسي.

أخذت أبحث عن طريق جديدة أنتهجها مع ابن نجيب الدولة. لأوجه دعوتي إليه بالحضور.. ولم يتأخر هذه المرة .. لكنه وصل يحفه عسكر كثر كما لو كان ذاهبا للحرب. لحظتها عرفت ما علي فعله.. لم أظهر له انزعاجي

.....

أشارت الأستاذة تدعوني للرقص.. صفق الحضور استحسانا.. توقعت أن تنهض لتشاركني.. ثم تمنيت ألا يشاركني أحد..أغمضت عيني مستحضرا زهرة من أعماقي..أسمع صوتها "اترك لجسمك أن يتبع النغم" تركت جسمي يسرح في ملكوت بعيدا عما حولي.. بعيدا رأيت زهرة في أيامي الأولى.. مصاحبتها لي.. لا أعرف كم قضيت من الوقت حتى فتحت عيني لأجد أن العتمة قد أحتلت المكان.. كل ما حولي صامت عدى أنغام الجهاز. لم يعد من أحد..أين ذهبوا ومتى؟ المتكآت فارغة وأنا أراقص نفسي. الأستاذة رأيت وجهها لحظات إشعال سيجارتها.. اقتربت وبقايا رقص يقودني.. دنوت منها.. تنظر في عيني بإغواء .. تواصل شفط سيجارتها تاركة خرطوم المعسل على فخذها.

مما يدور.. بل شكرته وأشدت بجهوده العظيمة لإعلاء شأن الدعوة المستعلية في جزيرة اليمن. كان ذلك ظاهر الأمر أما باطنه فقد نويت كسر عنجهيته ولأري وزراء الآمر وبالخصوص البطائحي من تكون أروى.. وجهت له رسالة طلبت منه الاستعداد لمحاربة النجاحي. شارحة له أهمية تهامة وخصوبة أرضها السهلية.. واتصالها بالبحر ما يقرب المسافة بيننا وبين مصر. وبينت له أن النجاحي ليس على مذهبنا وأن أهل تهامة من العرب يناصبونه العداء .. مذكرةً إياه أن النجاحي قد استنصرنا سنة ٥٠٣ ونصرناه بعد أن كان طريدا. وتعهد لنا بالولاء. واليوم ينقض عهده ويقطع عائده بعد سنوات من الطاعة.

لم يتأخر المصري.. في الوقت الذي بعثت إلى النجاحي بالأمر.. وبينت له أن جند ابن نجيب الدولة يتكون أكثرهم من السودان . ليرسل النجاحي أذكى عبيده سرا إلى بعض السودان ويشتري خديعتهم. زحف ابن نجيب الدولة للهجوم على زبيد.. معتمدا على هيبة انتصاراته السابقة التي لم يهزم فيها قط. وما إن وطأت قدماه أرض زبيد حتى انقلبت عليه السودان ولم يعد يفرق بين من معه ولا من ضده. لتدب الفوضى.. وسريعا ما انتشر خبر مقتله ليتفرق من معه .. في اليوم التالي وجد نفر من عسكره حصانه يعدو وحيدا خلف خيول جنده الفارة.. وصل الخبر إلينا بمقتله.. وحقيقة الأمر أنه لم يقتل .. فأثناء التحام الجيشين .. سقط من على خيله ليردفه أحد عسكره ويخرج به بعيدا.. إلا أن مشاهدة خيله فارا جعل من رآه يظن بمقتله.

بعد تلك الهزيمة وقف أمراء الحصون مترقبين يستعدون للانقضاض على المصري. ولم يكن لي إلا أن أحافظ على التوازن فيما بينهم وبين بن نجيب الدولة.. فإن تركتهم ينتصرون عليه.. فسيأتي يوما يرتدون علي.. سارعت إلى دعمه.. وكلفت من يجمع من فر من جنده وزودته بآخرين. ليستعيد بعض قوته وحتى لا يطمع به الطامعون. وسريعا ما تراجع أمراء الحصون عما كانوا قد أضمروا فعله.

ظننت بعد ذلك بأنه قد عاد إلى رشده.. وعرف بأنه بدوني سيسحق. ليستمر في طاعتي بعض الوقت حتى نهاية سنة ٥١٩ أفاجأ بأنه عاد

لمراسلة بعض أمراء جزيرة اليمن دون الرجوع إليَّ. كما أمسى يهذر في مجالسه وبين ندمائه بأنه تابع لأمير المؤمنين في القاهرة وليس لامرأة عليه من حق.. بل أخذ يتفوه بما يحط من مكانتي.. محاكيا السلاطين في استقبال زواره وفي مراسلاته. وتعامله مع من حوله.. كما يكرر وعده بخلعي.. متفوها بعبارات التهكم: "قد خرفت واستحقت عندي أن أحجر عليها". ليتضح بأنه يعمل ليل نهار على بسط نفوذه أكثر من ذيِ قبل في جزيرة اليمن.

وأمام ذلك تأكد لي بأنه لا يحمل في رأسه عقلا.. ولم يتعض مما سبق. وكان علي من جديد أن أفكر بمعالجة الأمر قبل أن يستفحل أكثر.. حريصة على وحدة الدعوة المستعلية. ولذلك وجهت له الدعوة في محاولة أخيرة لثنيه عما يخطط له.. لكنه ماطل بحجج واهية.. ثم أرسل رسالة قاطعة يعتذر فيها عن المثول في حضرتي. حينذاك عرفت بأن عليَّ ردعه.

كاتبت من فوري عدداً من أمراء الحصون والقلاع ممن قد سكن الحقد قلبوهم.. موعزة إليهم جمع قبائلهم لمهاجمة "الجند".. ذاكرة بأنه قد بلغنا استعداداته لمحاربتهم.. وشق صف الدعوة المستعلية في اليمن. ولم تمض أسابيع حتى احتشدت القبائل حول معسكره ضاربة عليه حصاراً شديداً.. كنت أراقب ما يدور.. وفي لحظة ما كادت مقاومة ابن نجيب الدولة أن تنهار تحت نقص المؤن وانتشار الأمراض.. أرسل إليَّ طالبا الاستغاثة.. احترت في أمر هذا الإنسان الذي لا يستقر على حال أو عهد. في الوقت الذي كنت أعرف بأن هزيمته أو هزيمتهم ستخل من التوازن.. فكرت في حيلة لفك ذلك الاحتدام.. فكان المال خير رسول.. أُرسِلُ مَن يوزع دراهم مصرية على أمراء ووجهاء القبائل المحاصرة للجند.. مشيعة بين القبائل بأن تلك الدراهم من المصري.. وأن الأمراء سيوزعونها على القبائل في صباح اليوم التالي.. وبذلك أمست القبائل تنتظر شروق الشمس.. وحين جاء الصباح ولم تر مالاً تفرقت عائدة إلى ديارها. وبذلك انتهى ذلك الحصار ولم يكن من غالب أو مغلوب.

أرسلنا من يسأل ابن نجيب الدولة عمن يكون قد خرّف ووجب الحجر عليه؟ ليردد: "صدق من قال أنها حية لا يؤمن جانبها." ثم حضر إلى ذي جبلة ليركع معتذرا ومتعهدا بالوفاء والخلاص. ولم أكن أعلم بأنه يكذب وأنه لا يقر على عهد.. حتى نكشف أمر انقلابه على المستعلية ودعوته سرا للدعوة النزارية.

في هذه المرة لم يعد بقوة ولا سمعة الأمس.. ولم يعد من يهابه.. ليتسابق أمراء جزيرة اليمن بإرسال أخبار انحرافه إلى مقام مولانا أمير المؤمنين في القاهرة.. مؤكدين في رسائلهم ضربه لعملة نزارية. ومحاربته للمستعلية. ما لبث أن وصل رسول من أمير المؤمنين "الموفق بن الخياط" مع بداية سنة ٥٢٤وبصحبته مائة فارس. في طلب ابن نجيب الدولة. الذي كان قد فر باحثا عن حصن يتحصن فيه. كنت مشفقة عليه.. أفكر في طريقة لإنقاذه وإبعاده سالماً عن جزيرة اليمن.. أرسلت من يثق به ليأتيني به.. وفي مجلسي تحدث بانكسار.. محاولا إقناعي بأنني أسير في طريقِ نهايتُها غير مأمونة. وأن الأمر لن يدوم.. محاولا إقناعي باتباع الدعوة النزارية. لم أرد على ما طرح. وكان في حضرتي رسول أمير المؤمنين مطالبا باقتياده. في بداية الأمر رفضت تسليمه.. لكن جواريَّ أقنعنني بعدم معصية أوامر أمير المؤمنين مهددات بغضبه علي.. بعد أيام رضخت لما رأينه.. سلمته لمبعوث أمير المؤمنين ..بعد أن أخذت منه عهوداً مغلظة بألا يؤذيه ولا يلحقه الضرر.. كما كتبت إلى أمير المؤمنين بذلك. ثم أمرت الجواري بضرب قيود من فضة حول ساقيه.

غادرنا ابن نجيب دولة في قفص من خشب النخيل محمولا فوق أكتاف العبيد.. كان منظرا داميا لقلبي ..سُكِبت دموع حرَّى على فارسٍ قَدِمَ إلينا يملأ الدنيا ضجيجاً".

اليوم السابع لرحيلها:

انتهيت من آخر صفحة صففتها.. كانت الشمس تسحب خيوطها الذابلة.. لتختبئ خلف جبال وراف.. نمت تلك الليلة كما لم أنم من قبل.. فالطيور

عادت تتناول فتاتها.. وشجيرتي جلبُت لها ما يرويها من حوض يتزود ماءَهُ من ساقية تدخل أسفل القصر.. يمتلئ ليخرج الفائض لسقي حدائق منحدرات القصر.

صحوت قبيل وهج الفجر مشبعاً بالرضا.. طيوري أمنحها فتات الخبز قبيل موعدها.. تشاركني ما أشعر به من سعادة. ودعت ما تبقى من نجيمات السماء.. اعتذرت لها عدم تمكني ليلة البارحة من منادمة الموتى.. ووعدتها بليلة أخرى.

عدت لصندوقها.. التقطت ما رتبت.. مواصلا قراءته:

" تلك السنة كانت سنة تحولات عجيبة.. فابن نجيب الدولة انتهى بمقتله في عرض البحر كما وصلني.. ولم يف رسول أمير المؤمنين بعهده.

وقبل أن تصل رسالتي إلى أمير المؤمنين .. كان خبر مقتله على يد جماعة من النزارية قد وصل إلي . بعد أن حمل رسول منه قبل مقتله أيضا بشارة مولد الإمام الطيب ابن أمير المؤمنين الآمر.. وقد ورد في رسالة البشارة " أما بعد.. فإنَّ نعم الله عند أمير المؤمنين لا يحصى لها عد.. ومن أشرفها لديه قدرا.. بأن رزقه مولودا زكيا مرضيا.. وذلك في الليلة المصبحة بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة.. سماه الطيب.. وكناه بأبي القاسم كنية جده نبي الهدى.. ولمكانتك من حضرة أمير المؤمنين المكين.. أشعرك بهذه البشرى.. لتأخذي من المسرة بها بأوفى نصيب.. وتذيعيها في من قبلك من الأولياء المؤمنين إذاعة يتساوى بالمعرفة بها كل بعيد وقريب".

.....

تجرأت مقترباً من متكئها.. مدت يدها.. التقطتها أسحبها لتراقصني.. وقفت بقامتها الرشيقة.. رائحة دخان مثيرة.. لم أسألها أين ذهب من كانوا معنا؟ أخذت تدور وقد أمسكت بكتفي الأيمن .. مثبتة وجهها أمام وجهي.. ناظرة في عيني.. ندور معا حول بعضنا في دورات متعاقبة.. بيدها الأخرى تفك أزرار قميصي.. تبادلها أصابع كفي اليُسرى.. قطعة بعد أخرى طرحة رأسها.. أزرار ثوبها .. ليسقط كما لو كان ينتظر من يحرره.. أزالت ما تبقى من على جسدها.. عدا سلاسل صدرها.. هامستني "هل تراني أجاريك رقصك ؟" فضلت الصمت تاركا لجسمي الحديث.. تلك النغمات تقودني إلى سموات لم آلفها.

ومن ذات الوقت جمعت كافة دعاة الدعوة المستعلية وأمرتهم بإذاعة بشرى المولود الجديد في جميع أنحاء جزيرة اليمن وأخذ البيعة والعهد لأمامنا الطيب والدعوة إليه.. كما أمرت مجالس الدعوة بالصلوات على الإمام الطيب بن الآمر.

لم تمر أشهر حتى زادت إمارات جزيرة اليمن اضطراباً.. وأمست قلاعها وحصونها في صراع مستعر.. فالطامعون للتوسع أخذوا يزحفون بقبائلهم على من حولهم.. والداعون للنزارية باشروا بعدائهم للدعوة المستعلية. وتزايدت دعوات المذهبية لتعم الصراعات.

بعد بشارة مولد إمامنا الطيب.. ومبتدانا بالدعوة الطيبية.. لذلك لم أكن قلقة على ذي جبلة التي أمست الفوضى تحاصرها من كل جانب.. وما كان يشغلني هو مستقبل الطيبية.. ولذلك بادرت بفصل دعوتنا عن مصر لتستقل جزيرة اليمن بها بعد أن سيطرت النزارية على مصر.

عقد داعي القلم عدة لقاءات مع دعاة المذهب.. ونشط الدعاة على مدى ذلك العام.. وبذلك تعزز استقلال الدعوة وأصبحت في مأمن من صراع أمراء القلاع والحصون.. وضاعف الدعاة من لقاءاتهم بأتباع المذهب في أرجاء البلاد.. والذين كانوا يعملون بسرية لتثبيت الدعوة الطيبية بعيدا عن فوضى الصراعات على السلطان.

بعد وفاة القاضي"لمك" وبعد وفاة ابنه كلفت ناسخ الرسائل بالقيام بمقام داعي القلم.. ولم يكن اختياري له اعتباطا لهذه المرتبة. فهذا الكائن لم يكن يشبه الكثير من الرجال في أطماعهم..ميال للدعة.. فعلى مدى سنوات قضاها كاتبا وناسخا لرسائل سيدتي سيدة.. ولأعمال النسخ على أفضل ما يكون. مشغولا بظهور من تعلق قلبه بها منذ سنوات.. وفي سنوات انتظاره قرأ وقرأ ما كان يقع بين يديه من كتب. حتى أضحى مرجعا في مجال الدعوة.

ورغم ما مر في حياته من اضطراب.. ولكثرة ما اقترب الموت منه كانت له نظرة مختلفة للحياة وللدين.. إذ أن سنواته حبس متلاحق.. إلا أن سيدتي اعتنت به في آخر سنواتها.. والذي كان منها احترازاً لألا تفقد حلما أرادت

تحقيقه.. بعد أن زارها في منامها ملاك يحمل بين كفيه هالة مضيئة للرمز الأعظم.. حكت لنا بأن ذلك الملاك خلع ملابسها ليخط بأصابعه على بدنها أشكالا متعددة لذلك الرمز الذي جعل جسمها يتوهج بنور بارد.. هكذا كان حلمها ذات ليلة.. ومنذ ذلك الحلم أخذ هاجس نقش الرمز الأعظم على بدنها يتزايد. حتى أخبرتها بأن هناك شخص يحمل على بدنه وشم الرمز الأعظم. ولم يكن الشخص غير الناسخ الذي رأت أن تعاقبه بالموت على تصرف أغضبها.. ما دفعها إلى تغيير عقابه.. من الموت إلى حبس دائم.. وبحبسه شعرت بأنها تدخر من سيضرب على بدنها خاتم السر الأعظم بعد موتها.. وبعد حبسه أوصت أن ينقش ذلك الرمز على بدنها.

كانت سيدتي شغوفة بعلم التنجيم وأسرار النجوم.. تحدثنا عن أهمية بعض الرموز الكونية وصلتها بخالق الوجود.. معتبره تلك الرموز مفاتيح الطريق إليه.. ويأتي اتساع اطلاعها من كتب منجمي الهند.. وتعتقد أن حامل الرمز إلى الدار الآخرة يحمل أبجدية السمو على كافة الأرواح السفلية.

بدوري بعد وفاه سيدتي.. أخرجت الناسخ من محبسه.. أسكنته أحد أبراج سطح القصر.. كما منحته عدة كتب من مكتبة القصر.. عرفت بأنه يقرأ ليله مع النهار. بعد سنوات دعوته ذات نهار إلى مجلسي لأسمع منه حصيلته.. وعما خرج به من كتب شغلته سنوات. تحدث عن التجرد والإلوهية.. وأن الإنسان أعظم كائن.. وأنه مبتكر الآلهة والأديان.. ومبتكر الأخلاق والقيم. أخافني ما سمعته منه. لحظتها كانت القاعة تعج بالجواري.. صرفتهن لأسمعه دون وجل.. سألته عن السلطان. قال: السلطان لا يؤمن إلا بنفسه.. وتلك الأديان وسائل لتأليه ذاته دون أن يعلن ذلك.. والدين إحدى أدواته لإخضاع رعيته.. الأديان تمنح السلطان حق القتل والحرق والنهب والاستغلال. كما أنه يقدم نفسه كحامٍ لإله الرعية وهو لا يؤمن إلا بنفسه.. في الوقت الذي يكرس إيمان رعيته بإله يقودهم إلى عبوديته هو. سألته عن الله. فقال: تلك الكتب تعج صفحاتها بتبجيل الإله بمزيد من تجريده من صفاته وذاته.. ما يقودنا في الوقت نفسه إلى نفي وجوده.. تحت مبدأ تعظيمه وتجريده.. وبذلك يحول الحاكم إلى إله

غير معلن.. وما بين يدي من كتب تصلنا إلى حقيقة أن العوام وقود الحروب.. ما هم إلا طُعم لكل تغيير.. ولذلك أنبه مولاتي إلى ضرورة قراءة كل ما خُط في علم المذهب حتى تظل في مقام الرب.. ويظل جميع الرعية صاغرين. الإله الذي يعبدون هو أنتِ.. وأدواتك هي السلطة. فلا يوجد رب واحد فلكل طبقة ربها.

في ذلك اليوم شعرت بزلزال كلماته تهزني.. وقد رمى بجمر كلامه الذي لو خرج به بين الناس لدمر كل شيء. سألته أن تكون تلك الكتب مدسوسة.. أو أن يكون مجنونا. فقال لي: كل المذاهب تتصارع بل جميع الأديان وغايتها واحدة.. السيطرة والتسلط. فالباطن من حق الخاصة. والظاهر من حق العوام. وقد تجلى ذلك من خلال علوم المذهب الذي يحث الخاصة على كتمان خطاب الباطن.. ونشر علم الظاهر على العوام. ولذلك على السلطان أن يكون أكثر الناس إلماما بتلك العلوم وألا يرتهن لغيره.

أدخل بصراحته تلك على قلبي رعبا لم أتحمله. ما جعلني أتساءل: هل بعد هذا العمر من قراءة واطلاع؟ وحقيقة الأمر ما إن خرج من مجلسي حتى أضمرت أن أنتهي منه. لم أنم ليلتها .. ظل عقلي يقلب ما سمعته منه. حامدةً الله بنقلي له من دار النسخ إلى أحد أبراج السطح .. فلا يتصل بأحد .. كان ذلك البرج فيما سبق من أيامي خلوة أختلي بأحزاني. وبذلك ضمنت عدم احتكاكه بعوام الناس.. شددت بعد ذلك اللقاء على عدم الخروج منه أبدا.

ظلت الأفكار تتقاذفني حول حديثه عن الله حتى دعيته مرة أخرى إلى حضرتي .. مكررة عليه سؤالي عن الله.. فقال: "الحمد لله الذي لا يدركه من لا تدركه الأبصار.. ولا يحصره من لا تحصره الأفكار.. الذي دون تناوله للأفكار أستار.. أو لأقدام الأوهام زلل وعثار.. فهو سبحانه لا يدخل تحت اسم ولا صفة ولا يومأ إليه بإشارة مكيفة.. ولا يقال عليه حي.. ولا قادر.. ولا عالم ولا عاقل ولا كامل ولا تام ولا فاعل.. لأنه مبدع الحي.. القادر العالم العاقل التام الكامل الفاعل.. ولا يقال له ذات.. لأن كل ذات حاملة للصفات.. كالجسم وأعراضه التسعة.. والنفس وصفاتها. وكل ما

ذكرته هو من كتب المذهب التي تشير إلى أن الله هو السلطان.. وينفي وجود المجرد بصورة غير مباشرة".

قلت له: لكنك تلوي عنق المعنى ما يؤدي إلى التجديف.. فلم نجد كتاباً من كتب المذهب يعنِي ما ذكرت.. فرد بصوت خفيض: لو قرأتِ ما قرأت لذهبتِ أبعد مما ذكرت.. فتلك الكتب تدفعك للتفكر فيما يعبده مَن حولك.. وستجدين أن مَن يُعبد أقرب إلى الفراغ.. أو إلى اللا شيء.. فماذا بعد إلغاء صفاته وأسمائه.. لترفعه تلك الكلمات فوق متناول العقل. وهو الإسفاف بعقل الإنسان. ستجدينه لا موجوداً ولا غيرَ موجودٍ.. ولا هو عالم ولا هو جاهل.. ولا قادر ولا عاجز.. وهو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين.. وهو ليس قديماً وليس بالمحدث. فالقديم أمره وكلمته والحديث خلقه وفطرته. ولا ينبغي أن يقال: إن للبارئ ذات لأن الذات حاملة الصفات.. ولا يقال: إنه موجود.. لأن الموجود يقتضي موجوداً أوجده. وهكذا تستمر تلك المقولات حتى تجدي نفسك تقفين في فراغ تأويلي غريب.. باحثة عنه حيث يجب البحث.. في داخلك.. بعد أن تيقنتِ عدم وجوده خارج ذاتك.

بعد ذلك رأيت أنه أفضل من يتولى داعي القلم.. وألغيتُ فكرة التخلص منه. فجميع الدعاة جد جدليين وهو صاحب جدل مخيف.. فإما يردونه.. أو يمضي بهم.

منذ كلفته لا يهبط من برجه إلا ليلتقي بهم. ثم يعود بعدها لمواصلة قراءة تلك الكتب التي نزوده بها من مكتبة القصر. ومع جدله ببقية الدعاة.. أصبح الناسخ صاحب آراء متجددة في علاقة الحاكم بالمعبود والرعية. ولذلك ظل يقود الدعاة طيلة سنواته.. ما أشعرني بالأمن على مستقبل الدعوة.

أكتب كتابتي هذه.. لكل ما أعيشه من صراع ومن ابتكار لحيل يحتاجها السلطان لاستمرار سلطانه.. لمن تأتي بعدي على سلطان جبلة.. سائلة نفسي: هل ستنظر لما كتبت وتأخذ منه ما يعينها؟ مثلما أخذت سيدتي عن مولاتها وأخذت أنا عنهما".

أكملت تلك الأسطر ليغشاني نوم عميق.

اليـوم الـثامـن:

طيوري دوما تسبح لقدوم الفجر.. في وقت محدد.. أعرف بأن الشمس قادمة.. أنهض في شوق إلى مواصلة القراءة: "فارعة تلك الجارية التي كنت أرى فيها نفسي.. وأتخيلها سلطانة على ذي جبلة. تركتني ورحلت.. بعد أن كانت الأقرب من بين الجواري إلي.. كنت أحسبها نفسي.

هي من كانت تشير علي -دون أن أطلب منها- بأمور أرى فيها محبةً وصدقاً فلا أملك إلا إتباعها. أما اعتمادي الكلي فكان على تعاليم أسرار سيدتي أسماء وهامش سيدتي سيدة كدليل دائم.. أعود إلى تلك التعاليم في الملمات فأجد العون والمخرج. رأي فارعة كان السبب في تدويني هذه الصفحات لما واجهته من صعاب وكيف تغلَّبَتْ عليَّ بعضُها وتغلَّبتُ على الباقي. كانت هي دائمة الاطلاع على ما أدون.. لتخبرني يوما بأنها هي الأخرى تدون ما تعيشه.. ليشدني شوق معرفة ذلك.. أحببت أن أرى كيف تراني.. فهي كاتبتي والمؤتمنة على مراسلاتي.

تحضرني تلك العلاقة الغريبة التي نشأت بينها وبين الناسخ.. وأتذكر بأنها كانت تلح علي تكليفها بأعمال تتصل بذلك الناسخ.. وكم كانت ذكية في تضليلي.. تعتقد بانها أوصلتني إلى عدم الشك.. وقد احتاطت بكل ما لديها من حيل.. ففي الوقت الذي تلتقي به كانت تحدثني عن ظنونها حوله.. بل وتشي بأمور قد تكون فيها نهايته.. ضانة بأنها تبعد عني طيف الشك.. وأن وشايتها به وتحريضها لي عليه قد يبعد انتباهي. ولم تكن تدري أن العاشق تدفعه تصرفاته لحتفه.. وينهار في لحظة حتى لكأنه يتذوق مرارة خيباته كطعم الشهد.. بل ويشعر بسعادة الطهر وهو يقاد إلى حتفه مثل فراشة النار حين تحترق مفارقة الحياة.

جاءت فارعة تهامسني بتذلل رغبتها خدمة الناسخ حين مرضه.. في البداية بدا الأمر طبيعياً.. خاصة وأن الأمر كان بيد سيدتي الحرة لكن شكي عاد من جديد يسألني.. وبدوري وجدتها أفضل من أرسلها لأعرف المزيد عن أحواله. في البداية كانت أحوالها تتبدل من فترة إلى أخرى..

ذلك التغير أخذ يشغلني.. وكان لابد من أن أتيقن.. حتى اهتديت لوسيلة أراقبها بها.. وكانت اللفافة السحرية.. وهكذا أطلع على ما يدور دون أن تعرف.

تطورت العلاقة مع السنين فيما بينهم.. ولم تعد تلك اللفافة السحرية بينهم.. لأكتشف أنها تكتب ما تعيش.. تسألني لماذا لا أكتب ما أعيش؟ رفضتْ أن تريني ما تكتب.. لم يكن أمامي إلا البحث عن صفحاتها.. تلك الكتابات التي نجحَتْ في إخفائها عني بعض الوقت.. لأصل إلى مخبأها أخيراً.. وأقرأ نواح عشقها الجريح وعتبها الدامي.. وأعترف بأنها حركت فيَّ عاطفة قديمة.. أسأل نفسي كيف هامت به كل ذلك لمجرد لقاءات عابرة .. وكيف له أن يكون ذلك الكائن القاسي بكل تلك الغلظة.. أشفقت عليها من رقة طبعها.. أعدت تلك الصفحات إلى مكانها ولم أظهر معرفتي لها بما يدور.. استمررت في معاملتها كما لو لم يكن في الأمر شيء.. لكن روحي مضطربة.. وبعد وفاة سيدتي أمرتُ بإخراجه من حبسه.. كُنت حريصة أن تكون هي أول من يراه.. بل وكلفتها بخدمته. لكنها عادت بعد أيام قليلة بحالةٍ تعيسة.. لم أكن أتوقع أنها نهايتها. في الوقت الذي كنت أُمني نفسي بالمزيد من قراءة ما تكتب.. لكن تلك الأوراق اختفت.. لتنطوي على نفسها مستخدمة تلك الدار التي كان يسكنها الناسخ ملاذا لها.. سكنه لأشهر.. قيل لي بأنها تقضي وقتها تلون وتنقش الجدران والسقوف.. لم أهتم بما يدور.. ولم أهتم للكشف عن سر خيبتها.. طال الأمر بها.. دعوتها للحديث لم تتجاوب.. فكرت مرة أخرى بالبحث عما يمكن قد تكتبه أثناء

.....

أمسيت مرافقا للأستاذة.. أذهب أينما تذهب.. ودوما إلى جوارها تناقشني في حكايات جوذر.. تقرأ لي من الصفحات ما يعجبها.. تقول بأنها تجد نفسها في سيدة الأسماء أروى.. ولم تجد في جوذر إلا رجلاً سلبياً. نقضي أوقاتاً تمضغ القات في مقر منظمتها.. تقرأ لنا من كتاباتها الإبداعية .. يسمعنا بعض الشباب محاولتهم.. وما أن يحل الليل لا أعرف كيف يختفي من حولنا حتى نمسي برفقة الرقص وحيدين.

بعد أشهر.. جموع الحوثي توافدت إلى ساحة التغيير.. مرحبين بهم نكاية بالسلطة التي كان رئيسها يكابر رافضا التوقيع على مبادرة قدمتها دول الجوار.. تلك المظاهرات والصدامات ظلت تتصاعد في عموم مدن اليمن.. بالمقابل تزايدت الانشقاقات داخل ساحات التغيير.. بدوري بدأت أفكر في هجر الساحة.. والعودة إلى القرية.. أو أن أذهب إلى مدينة أخرى.

انطوائها ولم أفلح في الوصول إليه.. جعلت من تراقب أوقاتها عَلِّي أظفر بما تكتب. لكنها أخبرتني بأن فارعة مستمرة بنقش جدران ذلك الدار وتلوينه.. لم يكن من شكل محدد غير تكرار نقش رأس ووجه قبيح .

فضلت مهادنتها.. ومتابعة أحوالها عن بعد.. لكن حالتها يوما كانت تسوء يوماُ بعد يوم.. فلم تعد كما كانت تلك المُحِبَّة والمتفاعلة مع مَن حولها.. أخبرتني بأنها أمست كثيرة الصمت والسرحان.. ويالقسوتي حين ساورتني شكوك ومخاوف منها.. تركتها فلم أعد أعبأ بما هي فيه.. نبذت متابعتها أو أنها من نبذتني. وكانت صدمتي كبيرة حين جاءت من تخبرني بأنها وجدتها ممدة على فراشها. سحقني ذلك الخبر.. ليتأكد لي بأني شريكة ذلك الناسخ في القسوة.. وشريكته في موتها.. كلفت من يعتني بتكفينها.. وأن لا يُجز شعر رأسها الطويل كما جرت العادة في موتى القصر.. وأمرتهن ألا تُلقى عارية في سراديب الجرذان.

بعد موت فارعة أمسى لذي جبلة مقبرة.. وكان قبرها أول قبر في تلك المقبرة بذي جبلة. انكفأت أبحث عن حزن يواسيني.. حزن أبكي فيه نفسي لكنه الحزن كان قد هجرني منذ سنوات طويلة.. ولم أعد أعرف للدموع طعماً.. وبموتها تغير إقبالي على الحياة.. لم يعد لدي نفس الشغف مجريات أمور السلطان.. أخذت أهمل شؤون القصر.. وشؤون السلطان .. ولم أعد مثلما كنت. كان موتها كشفاً لزيف هذه الحياة.. ليرافقني ذنبها بقية أيامي . هاهي فارعة توقظني بموتها كما لم توقظني في حياتها.. لم يُفرض عليها الموت بل اختارته.. في الوقت الذي نخشاه ونفر منه جميعا.. هكذا دون أن تشكو لأحد.. حتى لي وأنا من كنت أشكو لها. ودوماً تهب لإسعادي.. ها هي تدعوه بنفسها.. لتستكين في أحضان من نخشاه. فقط تمدَّدتْ دون أن تتناول شيئا كما قال الحكيم.. استدعت ملاك الموت.. شكت له قسوتنا وإهمالنا.. حتما رق قلبه.. وربما أخذته الرأفة.. أو أنه عشقها.. ليصطفيها عروسا. بعد أيام وجَدَتْ الجواري ما كتبته بين طيات فراشها.. لأجد أنها خطت: "بسم الله الرحمن الرحيم والحمد له حتى يرضى.. وسلامه وصلواته وبركاته الطيبات على نور الهدى وعلى الأئمة الأتقياء. لم يبتلِ

أولياءه بما ابتلاهم تعنتا ولا هضما.. بل اختبارا وإن كان قد أحاط بكل شيء علما ووسِعَ أعداء دينه أناةً وحلما ليحتقبوا بالاستدراج حوبا وإثما.. لم يكن إلا الرحيل إلى جنان رب الأرباب وعفوه ومغفرته.. لم أرحل إلا بطمعي بعفوه وغفرانه.. ولم أفكر بأن أتجرع سما أو أقفز من شاهق.. لكني دعوته من قلب يفيض حبا وتسامحا.. حب لله وتقربا إلى رحمته.. وتسامحا لجميع خلائقه.. كيف لا أغفر وقد أحاطني الله بحياة ملأها عز وجل بالمسرات.. وأحاطني بالسلوى.. وأتضرع إليه أن يهدي قلوبهم بالغفران عني فقد كنت عليهم غريبة وبقربهم ثقيلة.. أتضرع بالتسامح يزرعه في قلوبهم لي ولمن سواي.. وكم سعادتي حين أقابله خالية الوفاض.. فلا أطلب أحدا ولا يطلبني أحد.. ما أرجوه من عالي القدرة وعظيم المغفرة أن يرسل ملاك الموت كي يطهر روحي من بدني ويأخذها أخذ عزيز مقتدر.. رب إليك لا سواك ألجأ.. رب لا تكلني إلى غيرك فأشقى.. رب أنا أمتك وابنة أمتك أتضور جوعا إلى رضاك وعطشا إلى سلواك.. رب لا تدعني وحيدة وأنت أرحم الراحمين.. سلمت نفسي إليك راضية طائعة وطامعة برحمتك.. اللهم ارضَ عني .اللهم فاستجب ".

كانت تلك آخر ما خطَّتْ.. بحروف بدت منسجمة مع بعضها.. تبدي التصالح مع النفس والرضى بما هي مقدمة عليه. لتترك ندبة في نفسي كثيرا ما تعاودني ذكراها في أحلامي وحين أجلس إليها وحيدة.

وأتذكر دوما ما كانت ترده علينا سيدتي سيدة: "الرجال شر وعلينا بقتلهم في أنفسنا وألا نترك لهم مجالاً لإذلالنا.. إن أردنا أن نمتلك أنفسنا.. وتقول: لا يمكن أن نمتلك كرامتنا إن قبلنا أن يكون لنا أزاوج يروننا مجرد إماء لفحولتهم. أن نمنحهم التسلط ليحيلونا مجرد إماء تحت أقدامهم.. ذلك الرجل الذي فسر الأديان كل الأديان لتكون دساتير لإخضاع ما عداه ولا هَمَّ له إلا تسلطه.. حتى أنه حول الفِراش إلى ساحة ليس للمحبة بل للقسوة والإذلال والإخضاع".

هذا ما كانت ترده علينا في دروسها المسائية. دوما تقول: أن الحياة برفقة رجال مذلة.. وأنه لا توجد امرأة حرة إلا بعيدا عن الرجال. وهذه فارعة

تؤكد صدق ما دعتنا إليه سيدتي. وهاهي فارعة حين اقتربت منه حولها إلى فَراشَةٍ تلتهمها نيران غلظته وقسوته. ولجهله لم يعرف حتى بموتها.

أتذكر بأنها كانت تحدثني عن ذلك الناسخ بتجرد لا يجيده إلا المحب المخلص.. ولم تكن تعرف بأني كنت أقرأ ردودها عليه في تلك اللفافة.. لكنني لم أقرأ يوما ما كان يكتبه هو إليها.. وحين تحدثني عنه لا تتطرق إلى منادماتهم.. ولكي تحميه ..فقط تكيل له الوشايات حتى تبعد الشك حول هيامها به. متيقنة بأن منادماتهما هي من أغرقتها في عشقه. بعد رحيلها يسامرني طيفها كرفيف طير يأتي ليذهب.. كانت لي السلوى وكنت أظن بأن لها عقلاً مثل عقلي لكنها أرتني بموتها اختلافه. تزورني في منامي.. أجادلها فيه كما لو أنها لازالت تعيش إلى جواري.. أسألها عما قاله ذلك الناسخ حول ربوبية الرعية للسلطان.. فترد ضاحكة: أن كل ما يقوله حق. بل إنها تحكي في منامي عن شغفها بما يتفوه به وعن عشقها له.. أنهرها بأن العشق في حياتنا خطر.. تضحك وكأنها لم تمت.. تهامسني في سخرية: أظنك الأخرى مغرمة به.. وإلا لما انشغلَتْ مولاتي بناسخ بسيط.. أهددها بأنَّا لم نعد في سن يمنحنا تلك الأحاسيس وأنه كذلك طاعن في السن.. وأنها تعرف العقاب الذي ينتظرها.. فترد: لكن عينيك تفضحان ما يجول بنفسك.."

امتلأت عيناي بدموع دون طعم.. أبكي بشاعة روحي.. وعجزي وعدم تقديري لما كنته.. تلك الكلمات جعلتني أقف عند كلمات: ود.. حب.. عشق. التي وردت في صفحات مولاتي .وأسأل: كيف يمتلك الحب أن يوصِل إلى الموت دون وسائط؟ هل حقاً سكن الحب قلبي يوما؟ أم أنها مجرد أنانية تحت غطاء زائف أحسبه حباً؟. لماذا لم أشعر برحيلها كل هذه السنين؟ ظللت أنتظر حضورها كعادتها حين تفاجئني.

ذلك حزني يذكرني بآخر لقاء.. يشعرني الآن بإحساس ذي رائحة خمجة. كيف كنت أحسبها كائناً محتالاً؟. كيف كانت قسوتي تتضاعف يوماً بعد يوم لتذللها؟ أي قلب قلبها؟ بل أي روح تلك التي تنسحب دون وداع من الحياة.. دون ضجيج ولا منة.

كان أملها أن نقرأ معاً ما دونته لما عاشته.. لتبرهن مدى إخلاصها.. وأنها لم تكن من ظننتها شوذباً. ليدفعها بعيدا.. لتذهب باحثة عن مخرج أوسع تعبر منه.. دون أن يعلم أحد.. الآن يتأكد لي أن روحاً ظالمة هي أنا.. كما تراني مولاتي. فهل يا ترى طريق الموت هو باب آخر للوصول إلى المبتغى؟

أحس الآن بعد تلك السنين بأن دمها يلاحقني. وأن مولاتي لم تكن صادقة بمثل صدق فارعة.. فكلمات العشق لديها لا تعني إلا السلطان.. وقد بدت كقطعة لحم جافة. ثم تلك القسوة والغلظة في حقها يجعلني أقف حائرا أمام تلك الحيوات الغريبة والعلاقات التي دوما ما تُصاب بتشوهات لا نراها إلا بعد اقترافها.. وبعد مضي الوقت.

اليوم الـتاسع:

منذ ضُرِب نقش كفي وأنا أبحث في خلوة عن جواب.. حتى أدركت بأنه كان منقذي من موت محقق.. وأنه سبب حبسي لما أرادته الملكة سيدة لذاتها.. ولم تتوقع بأنهن لن يأمرَنني بنقشه عليها.. لتخص مولاتي أروى ذلك النقش لبدنها.. وأجزم أن في الأمر سراً أتوق لمعرفته.

أم أن الرمز باب من أبواب من يعبدن.. ولا يعتقدن بإلغاء الله بالتجرد. فما بالي بنقوش تحمل أسرار المُلغى.. أم هو الأمل يتنفس تلابيب النقوش والأساطير.. ليفر الكائن بعقله إلى فضاء يظنه المنجى عن عبادة أي كائن ليقع في عبادة آخر.. ومن معبود إلى آخر نقضي أعمارنا.. أم أنه الأمل في كل ما نصنعه ونصطفيه؟

عرفت الآن لماذا حُبست.. ولماذا أخرجتني مولاتي أروى بعد موت سيدتها؟ ثم إلى محبس برج الصمت! وأن اليامي وراء تخريب الحانوت.. وسرقة الكتب.. ومصير كتابي الذي أهديته إليه ذات يوم.. ليراضي به جاريته بيلسانة. لكن ما فائدة المعرفة بعد فوات أوانها.

خلوة برج الصمت دفعتني سنوات من القراءة في تلك الكتب التي تمنيت لو أني كنت قد قرأتها قبل اقتيادي إلى ذي جبلة.. كتب "الفرائض وحدود

الدين " ثم أنتقل إلى "رسالة في معنى الاسم الأعظم" وأخيرا أمتع عقلي بكتابي " الكشف" و " سرائر وأسرار النطقاء".. كنت أجد كل جملة تدعوني إلى أخرى.. أقف أمام ما ترمي إليه مندهشا من السعة بين الظاهر والباطن.. أبحث عن أوجه كل معنى .. وتأويل ما يتستر بغموضه. لأجد سمَّواً أبحث عنه منذ سنين.. وحجباً تشتاقها روحي في كل وقت.. وتحفيزا دائما لإبحار العقل.. ولذلك وضعتني مولاتي أروى في موقع داعي القلم سنة٥٢٠؟ بعد أن أراد ذلك سلطانها..ولم يكن الأمر مصادفة.. إذ إن كل شيء يخدمه.. يصنعه. الآن تحضرني تلك اللحظات في حضرتها. دون وجه وقد حذت حذو سيدتها سيدة..حين أكتفت برفع كفها:

- أعلم بأنك قرأت تلك الكتب.. وأنها قد غيرت فيك الكثير .

تساءلت تلك اللحظة عمن يعلمها بما أنا فيه؟ أم أنهن جواري طعامي كعادة عيون القصر الواشية.. أجبتها:

- الشكر والامتنان لمولاتي أن أولتني رعايتها.

- أنتظر بعد سنوات من الإطلاع ما خرجتَ به.

- عن ما ذا تريد مولاتي أن أتحدث ؟

- حدثني عن السلطان.

- مولاتي أكثر الناس معرفة بذلك.. أنه ظل الله على عباده.. وهو نور هداية وطريق الاستعباد.. وبدونه يظِل الجميع الطريق.

- وعن التواضع.

- أن يتواضع السلطان لرعيته.. يصعد إلى مرتبه الأولياء.. لكن العوام يضعوا ذلك في غير موضعه. وعندها تقل هيبته وتنتشر المفاسد والفتن. ويكون أول ضحايا تواضعه. ولذلك على السلطان أن يأخذ من نواميس المعبود ويجعل بينه وبين رعيته حجاب.

- حدثني عما وجدت في كتب الأولين من علوم المذهب.

- لمولاتي المعرفة التامة بعلم الظاهر وتأويل الباطن.

- معرفة تنضح من كلماتك.. وقد جاء الوقت الذي تقوم فيه على توضيح معالم الدين وإحياء مراسيمه وتبيين شريعته وتفسير تأويله وحقيقته.. وتنصيب دعاته. وعليه أولِّيكَ على دعاة جزيرة اليمن في منصب داعي القلم.

صمتُّ أستمع إلى صوت ينبثق من داخلي متسائلا.. لمن أدعو ومن أوجه إليه الدعوة؟ وبعد صمت خرج صوتي:

- لمولاتي السمع والطاعة.

كلماتي دون حول مني ولا قوة.. بينما ما أردت قوله كان أمرا آخر. رددت جدران القاعة صدى أصوات الجواري بالتهليل. لترفع كفها إيذانا بانتهاء المقابلة.. نهضتُ عائدا عبر تلك السلالم إلى السطح تحفني مجموعة من الجواري.. مظهرات حفاوة لم أعهدها من قبل.

أتذكر بأني تمددت أفكر فيما أمرتني به.. أقلب تلك الكتب واحداً تلو آخر.. باحثا عما يساعدني.. يغير قناعاتي.. لم يكن ما أبحث عنه في تلك الكتب.. بعد أن حرثتها سنوات.. استرخيت على فراشي.. أبحث بداخلي.. وبعد جهد وجدت ما ينقصني .. لكل شيء عدة أوجه.. ويمكنني التحدث عن الشيء بأكثر من معنى.. تلك الكتب صاغها بشر مثلنا.. أن ننظر إليها دون أن نهجر أنفسنا وما تحتويه من أفكار.. فذلك ظلال.

كثير من الأوقات كنت أتخيل موتي.. أراني ممددا وقد فارقتُ حياة ألفتها منذ سنين. لم يعد ذلك البرج وذلك السطح مترامي الأطراف مسطحاً جامداً.. ولم تعد تلك الجبال وتلك الوديان كما أراها في كل مرة.. لِكُلِّ مشاعره.. تلك الزاويا وكل موطن له نبض أرواح مبهمة.. ثم تلك الطيور.. أغصاني المتسلقة.. حقيقة كنت أخشى مفارقة ذلك السكون!

وأتذكر أول اجتماع لي بدعاة وفدوا من أنحاء جزيرة اليمن. فضلت أن أكون في موقف المتلقي.. استمعت لكل من طلب الحديث واحداً تلو

الآخر.. الجميع يتحدثون عن هجوم دعاة النزارية وإصرارهم المحموم إطفاء الدعوة المستعلية في جزيرة اليمن.

تحدث بعضهم عما يواجهونه من اتهامات الخصوم. ثم جاء دوري.. بدأت بذكر الله والصلاة على رسوله الكريم.. والثناء على الأئمة المعصومين: عليكم التمسك بظاهر الشريعة.. فالناس لا يهمهم غير الظاهر والظاهر هو الإسلام.. ولذلك علينا باحترام الظاهر.. أما العبادة العقلية أو العلمية من تأويل للباطن فللخاصة من القوم.. أعمِلوا فيهم الجدل.. طابقوا المحسوس بالمعقول.. واعلموا أن أول الديانة لله تعالى معرفته، وكمال معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي صفاته. واعلموا أن وصفه تشبيه، ونعته تمويه، والإشارة إليه تمثيل، والسكوت عنه تعطيل، والتوهم له تقدير، والأخبار عنه تحديد.. وعليكم ألا تقولوا بالتشبيه ولا بالتجسيم ولا بالتعطيل.

أهبط ومن حولي عدد من الجواري إلى لقاءات الدعاة المتكررة.. أخفي خشيتي.. مُتبِعا خطوات تسبق كل لقاء أعد فيها العدة لقراءة المزيد وتدوين ما أود قوله.. أحرص على قلة الكلام مختارا كلمات حمالة أوجه.. مركزا على الثناء على بعض أعمالهم التي تزيدهم شوقاً للقياي.

وفي حقيقة الأمر كان الجميع مشغولين بإرضاء مولاتي وتحقيق مكانة شخصية لديها.. وحرصهم رضاها.. محاولين إثارة الإعجاب بما يطرحون.. وقد اتخذوا من المعبود وسيلةً وملعباً يتحاذق الجميع في تقريب السلطان في أعماق مولاتي من التأليه.

.....

رددت وسائل الإعلام توقيع أطراف النزاع على المبادرة في الرياض.. لتهدأ الساحات وتقل المسيرات.. وتوافق الجميع على انتخاب المشير عبد ربه منصور رئيسا .. ولم تمر أسابيع حتى جاء يوم ٢٥ فبراير ٢٠١٢.. ليتسلم الحكم في حفل كبير.. بعدها بدأ الكثير من الشباب المستقلين بإخلاء ساحات الاعتصام.. لتتحول إلى ساحات خاصة بالتيارات الدينية التي أحكمت السيطرة عليها.. وبالذات جماعات الحوثي القادمة من صعدة.. والتي أخذت تكرس حضورها في جميع الساحات.. ورويدا رويدا أخذت تشهر سلاحها في مسيرات تجوب شوارع العاصمة.. بدوري هجرت الساحة دون أي هدف.. لكني لم أعد إلى القرية.

في تلك اللقاءات.. أقول ما أعنيه لينشغلوا بالبحث عن تأويل ما لا أعنيه.. ويوما بعد يوم كنت أشعر بألفة غريبة مع ألاعيب جديدة.. وتلك طريق كان يجب عبورها منذ سنين..أمعن في إذكاء الجدل وحين يحتدم.. أترك الأمر للقاء التالي. ولا يأتي اللقاء اللاحق إلا وقد وجدت لما يطرحون أكثر من جواب.

اليـوم العاشـر:

يوم أمرت مولاتي بإسكاني أحد أبراج السطح.. هل أرادت أن تريني اتساع السماء؟ ليهمس ذلك الأفق مكتمل الاستدارة أن الحرية شعور يسكن عقولنا.. وأن العبودية لا تكمن في المكان. أخرج من البرج أرى الكون لأدرك ضآلة نفسي.. أكتشف نفسي وسط ذلك الوجود كما لم أكن من قبل.

أم قصدت أن أجالس ليلاً تلك الثريات.. حركة شهب أرواح الشياطين.. أم أرادت أن أغرق بفراغ الوقت المتداخل . ذلك الشعور الخادع بكثرة المشاغل.. وأن الوقت لا يكفيني كي أقوم بخدمة طيوري.. والعناية بشجيرتي.. ومجالسة تلك النجوم ومنادمتها.. وما تبقى لكتبي.. سنوات في هذا البرج.. عشت جحيماً منقوصاً.. ماذا لو لم تكن لدي كتب حانوت صنعاء المسروقة.. ولم تنبت تلك الشجيرة..أو تعاشرني تلك الطيور.. ولا نادمت أرواح النجوم.. هل كنت سأجُن؟. شكرا لطيور تكاثرت حولي.. ولشجيرة تسلقت لتغطي شطراً من أوقاتي. ولأرواح تتبختر بوميض النجوم. وشكرا لمولاتي وقد اعتنت بأطباق طعامي التي كانت تفيض عن حاجتي.. لأشارك الطيور فتاتي. حتى قيل لي بأن الملكة تأمرهن بأن يكون طعامي مما تأكل.. تأمر بكتب من مكتبتها.. وتأمر بين فينة وأخرى بملابس لا أعرف لمن ألبسُها؟ وعطور لا أعرف من سيتشممها.. سعيدا وأنا أخرج ليلاً منادما للنجوم متبخترا بتلك الملابس وقد سكبتُ عليها عطرا كثيرا.

جالست هناك عقولَ مَن كتبوا.. لأكتشف بأنهم قضوا أعمارهم بعيداً عن البشر.. ناذرين أنفسهم لعوالم غريبة.. ولا أعرف هل كانوا غير راضين كما أنا غير راض عنهم؟ حتى أني لا أدهش الآن حين أتذكر بأنها كانت

أكثر الناس تعبدا وإيمانا برب تلك الكتب.. ذلك العقل الكلي.. متبعة التبجيل.. بينما هم يجردون المجرد حتى الإلغاء. ومع بحثي عن الله منذ كنت في عناية ورعاية معلمي.. لم أكن أدرك أن ذلك العدم الذي يهيم الجميع حوله.. ما هو إلا أمل لا يستجيب.. ومع ترديد ذكر المعبود وتبجيله أجد جميعهم يتغني بالأمل.. فالكل يذكره والكل يمجده أملا.. والكل في النهاية ينفيه بصورة أو بأخرى.. إما تقديسا أو تبجيلا أو رفعة. ولذلك أشفقت على عوام الناس من لم يعرفوا الحقيقة.. ورأيت السلطان ومن لف لفه ممن صرفوا أعمارهم في تزيين الكلام وزخرفة القول.. يعنون به أنفسهم بصور ملتوية.. وما يمتلكونه من مال وجبروت.

لم تكن تهمني حياة برج الصمت في بداية الأمر بقدر ما جذبتني السكينة.. وإن كنت أشوق لهبوطي لأُحدث الدهماء بفكر الصفوة حتى يعرفوا معبودهم الحقيقي.. وكنت أتساءل: لماذا نفر محدود يتناقلون تلك العلوم من جيل إلى جيل.. دون الخروج بها إلى عامة الناس.. محددين حدود فاصل. وماذا لو اطلع عليها الناس هل سيفهمون؟ وإذا فهموا هل سيظلون على ما هم عليه؟ أم أنهم سيثورون؟ وحين يثورون هل سيبتكر السلطان وخاصته أساليب جديدة لتدجينهم؟

وأتذكر حينما كنت غارقا بين تلك الكتب.. مشفقا على العوام كنت في الوقت نفسه أبحث عن نفسي.. متسائلاً: لماذا مولاتي تدعوني وتمنحني مقام برج الشموس ومرتبة العقل السادس؟ وأنا الكافر بكل ذلك. ولأول مرة أجدني غير راضٍ عما أقوم به كداعي قلم.. فأنا في وحدتي أعاني بعد كل لقاء.. أعود لأخلع جبتي الفضفاضة.. رافضاً أن أكون كاهنا.. أجلس على مقعد عال.. أسمعهم يتحدثون في استعراض عقيم لمهاراتهم العقلية.. وأساليب إغواء واستغلال بذيئة.. أستمع إليهم هازا رأسي بعلامة الإعجاب وأنا من داخلي أحقّر ما أقوم به.. وتارة أختار كلمة أو كلمتين مشجعا.. مدركا مدى إغراقهم في خديعة أنفسهم وخداع الناس.. معتمدين على ترديد ما جاء في تلك الكتب.. وحين أحتار في أمر ما.. أشير إليهم بالعودة إلى الملكة الحرة أروى.. مرددا تلك الجمل التي حفظتها عن ظهر قلب: "حجة وكافلة كافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود المستجيبين لتوضح لهم

البراهين في ولاية الأئمة عليهم السلام وتظهر معالم الدعوة فهي من لا يفوقها أو يوازيها في مرتبتها من الدعاة أحد" وهكذا أعيش بعدة أقنعة.. فأنا في خلوتي كائن عار من كل شيء.. وأمامهم كاهنٌ مدع أتلبس أمامهم هرمي.. لأعيش في صراع مع نفسي.. إذ إن الإيمان برب لا نستطيع إظهاره كان يسحقني.. يحيلني إلى كائن مخادع بصفات شيطان مارق يبالغ في تعذيب نفسه. فما بالي وأنا أروج لإمام أرادته مولاتي ذكرا وهي تعرف بأنه أنثى. لقد أردت الاستمرار في الدعوة للطيب ليس إيمانا.. بل لأن السلطان امرأة والإمام امرأة وهذا مالم يحدث في أي زمان. ليكتمل العبث الذي يستهويني.

وحين كنت ألوِّح لمولاتي بذلك العبث ترد بصوت هامس: وبشريعته تمت الشرائع، وهو صاحب إظهار الأمر كله.

وهكذا وجدت أن بإمكان كل كائن عاقل أن يصل إلى دين يخصه.. أو طريقٍ ينتهجه تكون سلاما لروحه وأمانا لعقله.وبعيدا عن دجل واستغلال الأخ لأخيه.

ومع مرور السنوات أمسيت جزءاً من سطح القصر.. ولم تعد فكرة هبوطي لعامة الناس تثيرني.. لجسمي مواقيته التي يسير على إيقاعها.. متنقلا بين الكتب أتقصد وجباتي فأقرأ وأقارن .. وأكتب على بعض هوامشها ما أراه. ومع مرور الوقت أخذ اهتمامي يقل بتلك الكتب.. وأصبحت أراها عاهات مسندة.. لأنصرف عنها إلى طيوري وشجيرتي وما يفد عليها من فراش وأمضي ليلا.. حتى أني أنزعج حين تأتي الجواري لاصطحابي إلى حضرة مولاتي في اجتماع للدعاة. أتمنى أن يتركنني أعلى السطح حيث أشعر بروحي تحلق عاليا وتتماهى مع السماء الزرقاء المتكئة على الجبال.. وتلك المروج التي تأوي أسراب العصافير. تدمع عيناي عند سماع أصوات الفلاحين أثناء فلاحتهم. وعندما ينفخ راعٍ نايهُ شدوا ًعلى ظهر صخرة.. سحب تأتي سابحة في تمهل من أعالي أفق مغيب الشمس. تلك الليالي النائمة على بثور النور. أبحث في ذلك الفضاء عن أرواح مَن مضوا.. أنتظر إطلالة القمر قادمة بتلك الكائنات المجنحة التي كانت في سنوات تحملني إلى عوالمها البعيدة والغريبة.

أمسى جسمي لا يقوى على شيء.. لكنها روحي وقد تعرفت على أرواحٍ تهبط نجوما تسمع منادمتها طوال مساءات مبهجة.. تتوق لما يمكن أن يكون معجزة تدحض عدم إيماني بالمعجزات.

أخاف أن يأتي يوم أفقد الشعور بالسكينة.. بعد أن فقدت رغبة الخروج للناس.. أرى كل ما أريد رؤيته وأشعر بتلاقي كل بعيد.. وأحس بتسرب ذلك الوجود إلى داخلي كما لم أشعر به من قبل.. لحظات شروق أو غروب شمس تعني لي الكثير. حتى أني كنت أسمع ضجيج جوف القصر المليء بالجواري. أرى القادمين إلى الساحة الأمامية بمعان جديدة .. حركة حارسات الأبراج. حتى أن كل ذلك في أيام خلت لم يكن يعنيني.. فقط أتخيل الحياة دون عوام متسائلا: كيف تكون الحياة دون عوام ؟ وماذا سيصنع السلطان عندئذ ؟

بتر سفر ذاكرتي لمعان بروق متوهجة وصوت رعد زاعق.. تهاطلت قطرات المطر.. سعدت لشجيرتي المتسلقة خرجت لأراها تغتسل. خلعت عريي لتتمرغ قطرات المطر على مسامي.. أسير وسط زخاته الباردة فاتحا فمي.. أغمض عيني متخيلا السحب وقد حملتني لتسكبني في بقاع قصية. مسافرا في جزء من كون مترامي الأطراف. توقف المطر بعد وقت واستطاع الضوء النفاذ.. لأرى عدداً من طيوري تنفش ريشها وسط برك السطح الباردة.. تركتها مرتعشا.. دسست بدني بين الأغطية.. هبطت أسئلة وقع المطر: ماذا لو حضر الموت؟ كيف سأواجهه وحيدا في هذه الغرفة الفسيحة؟ أم عليَّ البحث عن مكان مناسب لاستقباله.. هل أخطو خطوات فارعة ولا أدعه يباغتني بل أنا من يدعوه إلى فراشي.. أدعو الطيور لمرافقتي؟ قد يحلو أن أرحل جوار شجيرتي.. أو عليَّ انتظار بزوغ شمس السحب لأتمدد تحت دفئها أحلق في رحلتي على خيوطها.. أو أختار لحظات منادمة النجوم لأرحل بصحبتها.. أم عليَّ الهبوط لاختيار أفضل قاعة في جناح الملكة .. أستقبل الموت على سريرها.

أم أني أتحايل بالبحث عن أمكنة.. بينما أخاف مجالسته إذا ما طرق جمجمتي. هو الخوف.. فأنا لا أملك نقاء فارعة.. ولذلك فكرت كثيرا وقررت أن أترك الأمر له. نمت ذلك المساء متدثرا برعشاتي.

اليـوم الحـادي عـشر:

صحوت.. فتحت صندوقها أرتب ما تبقى.. تمددت من جديد على فراشي.. ألتقط صفحة بعد أخرى.. كما لو كنت أبحث عن شيء يخصني:

" نضجت وأنا أعيش ذلك البعث في روح الجواري.. لم تكن سيدتي لتهدأ.. حتى إنها شغفت بجمع آداب المذهب.. مكلفة أحد رجال زوجها بمهمة البحث عن الكتب.. كانت تفكر بإنشاء مكتبة تضم جميع كتب المذهب في ذي جبلة. ولذلك دأبت على جمع الكتب.

لا أعرف هل هو التوق لرؤية رفيق صباي والتكلم إليه؟ أم أنها الرغبة بالتقرب إلى سيدتي وكسب ثقتها .. حدثتها عن كتب نادرة أستطيع أن أدلهم عليها. لتلحقني على الفور بمجموعة جواري كمساعدات لمن كُلف بجمع تلك الكتب. ظننت أن مهمتي ستقتصر أياماً قليلة.. لكنها امتدت أشهراً عدت فيها إلى شوارع وأسواق وأحياء المدينة التي انقطعت عنها سنوات. أعدو في كل اتجاه.. سكنت وزميلاتي منزلاً أُعِد لنا وسط صنعاء.. لم يكن لنا أن نخبر أحداً بأنَّا من جواري القلعة.. نختلق لأنفسنا أسماء وانتماءات. وزيادة في التمويه لوَّنت على وجهي شكلاً استمديته من حكايات سيدتي حول أسرار بعض الرموز.. كان عملنا يقضي أن تزور كل جارية دُور أُسَرٍ ميسورة يُفترض بحوزتها كتب ومخطوطات المذهب.. بغرض إنشاء مكتبة.. أما أنا فكان طريقي إلى من عرفته في ماضي صباي .. وكتب لم أعد متيقنة من وجودها. كانت حيلتي مناغاة ذلك المؤتمن على تلك الكتب .. أن أتوطن حالته. ولأني أعرف عنه الكثير فقد ادعيت بأني يهودية.. ولم أتوقع استمرار هيامه الذي ظل يربكني. كنت أرفض وأستنكر يقيناً يؤكد معرفته بي.. جازمة بإقناعه باني لست من يظن.. وأمام قوة يقينه أدركت بتورطي في معركة لم أحسب لها

.....

عدت لتسكعي أواصل قراءة ما تبقى من أوراق جوذر.. لم تتوقف اتصالات الأستاذة تدعوني لمرافقتها.. نلتقي بين يوم وآخر حين تكون في صنعاء.. تسافر خارج الوطن لأستقبلها في مطار صنعاء.. نستقل سيارة أجرة إلى مقر منظمتها.. نغتنم بضعة أيام نتعلم ألواناً من الرقص.. ولا نخرج خلالها أبدا.. نتشارك الطبخ.. ومضغ القات وما تجلبه من شراب خارجي.. بينما يظن الأصدقاء أنها لازالت في حالة سفر.

حساباً.. بل أني كدت في لحظات عديدة أن أنهار وأعترف لقدر إيمانه بي.. ليتواطأ في نهاية المطاف متظاهرا بتصديقي.. كان ذلك أسلوبه في مجاراتي للحفاظ على تواصلي. ولأنه أعاد إليَّ ما كنت أظنه قد ذوى.. أحببت مكافأته.. بعد أن تعلمت ضرب الوشم لأوشمه بالرمز الذي حدثتنا سيدتي عن أسراره.. أردت بذلك أن يذكره بي.. ثم علمته كيف يضرب وشما.. كان لا يعلم بأنه زرع بي صراعاً لا يُحتَمل.. وتلك الأيام علمتني أن الغرائز بئر دون قرار.. لأنتصر على دحض غرائزي وأمضي في إرضاء سيدتي.. أنهيت مهمتي محملة بعذاب ظل يلاحقني حتى آخر سنوات عمري. وبالمقابل حققت مكانة في قلب سيدتي.. كانت تلك الكتب فاتحة خير ظلت تنمو وتنمو. وبعد رحيلنا إلى ذي جبلة طرأت لي فكرة.. أسرعت بعرضها على سيدتي.. بعد أن أهداني مستشارها يوما كتابا كتبه ذلك الكائن.. لتدهش سيدتي من سحر حرفه وروعة زخارفه. وتأمر مستشارها اليامي بسرعة إحضاره من صنعاء ليكون ناسخا لرسائلها. وبدوري أوصيته أن يحضره ولو مقيداً.

المكلف بجمع الكتب كان شاعرا مجيدا.. وعاشقا لكل امرأة يصادفها. ولم يكن له عيب عدى قامة ملفتة القِصر.. كثيرا ما تثير الضحك. ولَّاه سيدي المكرم على صنعاء عشية مغادرته إلى ذي جبلة بإيحاء من سيدتي.. ثم أزاحه بعد أشهر. لتستدعيه كمستشار لها في ذي جبلة. ولا أعرف كيف أو متى نمت مشاعر المودة بينهما؟

ولم أكن شبيهة بجواري إغوائه. فلم يكن يعرف مع بداية إيحائه بهيامه بأني أمارس ترويض غرائزي وأتحكم بها.. ولذلك فوجئ بصدودي. ليأتي ذلك الصد دافعاً له بمزيد من الرغبة. لجأ لإغرائي بهدايا متنوعة. ولم يكن يعلم بأنه أثناء خروجي لمساعدته التقيت أيامها رفيق صباي.. بعث فيَّ عذاباً مقيماً.. حملته معي إلى ذي جبلة.

يسكن الليل لأقاوم ذلك الكائن الذي بعث فيَّ مشاعر دفينة.. ولم يكن أحد يعلم بمعاناتي.. بالمقابل نما إحساس مسؤوليتي تجاهه.. محاولة التكفير عما ارتكبته في حقه. معاهدة نفسي على استمرار متابعة رعايته. ولذلك كنت دوما أتابع أحواله.

كان ذلك القزم أقرب المقربين إلى سيدتي.. وهي التي لا تسفر لرجال عن وجهها مكتفية برفع كفها اتباعاً لتعاليم سيدتي أسماء بنت شهاب التي تقول: "الظهور على العوام يقلل من هيبة السلطان" ولم تكن تقابل الرجال.. لكنه من تستمع إليه دون حجاب. وهو الذي كان مقربا من زوجها الملك في سابق الأيام.

يستعيض عن قِصَرِه بكرمٍ سخيٍ.. وهو أكثر مَن عرفتُ ميَّالاً لإغواء الجواري.. دائم العطايا.. لاً أعرف إلا أنه ظل معلقا بي وظل الأمل يراوده. ودائما ما كان يحاول إغوائي. ولا يعلم بأني معلقة بطاعة سيدتي. لم يكن لي أن أستجيب لنداء قلبي وما تريده غرائزي.. دوما كنت أحمل حباً يختلف عما أحسه في قلوب مَن حولي.. حب يتركز في إرضاء سيدتي.. إفناء النفس في حب السلطان.. أن أبتعد عما يغني به القلب.. هناك ما كان يناديني دوما إلى أن أكون أروى.. وقد أدركت بعد رحيل سيدتي أني سرت في الطريق الصحيح. لاقيت منه عناء.. إلى أن أفشيت لسيدتي الحرة ما أعانيه. أخبرتها مرتجفة.. والخوف من ردة فعلها.. وكان عقابها متأنيا رغم ما استبد بها من غضب.. نبهتها بأني "لست الوحيدة" وحينها تراجعت عن عقابي.. طالبة مني ذكرهن واحدة واحدة.. وما كان أسرع عقابها. أما اليامي فقد أبقته أشهراً دون أن يعرف ما تبيت له.. حتى إذا ما أرادت دفع السلطان سبأ لمحاربة النجاحي في تهامة أرسلته إليه مدعياً عصيانه لها ولجوئه إليه.. وعلى أسوار زبيد قُتل.. ويقال بأنها أرسلت قاتله حتى يموت بشرف الفرسان. لتتقبل التعازي في وفاة مستشارها الشجاع. وزادتها خيانة اليامي قناعة بأن الرجال لم يخلقوا إلا للإفساد.. وأن المرأة هي الوارث الحقيقي لأرض الله وما عليها".

أكملت قراءة تلك الصفحات.. ليغمرني شعور بسعادة بكيت لها.. لم أكن واهما إذاً.. ولم تكن هي قد نستني. ابتسمت وأنا أفكر في كل كلمة قرأتها.. وكل إحساس غشاني. رضا ملأ الكون غبطة حد أن عيني دمعت بسخاء.. لذة دموع لم أشعر بمثلها. وكأني سألتقي بها لأحكي عذاباتي ومقدار مشاعري التي حملتها طيلة سنوات عمري. مالبثت تلك المشاعر أن خفتت

لينعق حزنٌ من أعماقي متذكرا بأنها قد رحلت ولا أستطيع لقياها مرة أخرى.

اليـوم الثـاني عـشر:

تحملني كلماتها إلى أيام بعيدة تنير ما كان معتما. لكن حيرتي تثير سؤالاً: هل يعيش الفرد نقيض ما يود قلبه؟ وأي سعادة تلك التي يجنيها؟ أم أني كائن ضعيف استهلكهُ قلبُه محاولا الوصول إلى مبتغاه؟

ما حيرني أنها لم تذكر ذلك الكتاب الذي أهديته لليامي.. إنني كتبته في عشقها.. أو أنها لم تلحظ بأنه موجه إليها وإني لم أشر بالاسم. كتاب كان سببَ شقائي بعد ذلك.. فلولاه لما جلبوني إلى ذي جبلة مقيداً. أم أنها عنت بالإيماء إلى رسم الأحرف وتباين الألوان ولم تبحر في أعماق المعنى والإحساس الذي حمله ذلك الكتاب.. كلمات سكبتها على صفحاته من روحي. ظل الأمر غريبا على نفسي.. كيف لامرأة لا تحرك قلبها كلمات الشوق؟

وأرى ذاكرتي تعود إلى تلك الأيام البعيدة..لأراني ذاهباً إلى دارهم لرؤيتها.. أو لتتيح لي وقتا ولو قليلا سامعا إلى صوتها.. لم تكن في بداية السنوات إلا مشاعر أخوة ما لبثت أن تغيرت إلى الرغبة للمحبة. لأكتشف بان المحبة ماهي إلا رغبة بالتملك.. وأن العشق الذي تنمو على حوافه الأنانية يموت.. مثلما كانت أمها ورغبتها الجامحة.. حين كانت لي بالمرصاد.. وقد استطعت أن أحافظ على بتولتي.. رغم إلحاحها. هذا ما أدركته بعد عطب قلبي.. وها أنا أدرك بعد قضاء سنوات عمري بأني دون شهوة.. بعد سنوات كثيرة قضيتها هنا لا تفصلني عنها سوى جدران.. فأي قلب هو قلبها؟ وأي إرادة قادتها في سبيل السلطان؟ ثم ماذا يعني أن تكون أروى؟ هل كان اختيارها لتلك الحياة أفضل من طاعة قلبها لما يريد؟ أم أنها عاشت حبا في سيدتها.. وماتت حبا لها؟ ذلك النهار أخذني في جدل مع نفسي ومع ما قرأته في صفحاتها.. لأكتشف بأني قضيت عمراً كنت فيه شقي القلب والإحساس.

اليوم الثالث عشر:

أنبلج فجر جديد.. تحفه زقزقة العصافير.. ونسائم تحرك غصون شجيرتي.. التقطت بعض صفحاتها.. باحثاً عن يقينٍ أنكرَته حتى غيَّبها الموت.. أخذتُ بقراءتها:

"وصل إلينا الإمام الطيب في سرية تامة.. يرافقه قاضي من القاهرة.. بعد أن ظل الوزير المتغلب ابن الفضل يتعقب الإمام الوليد الطيب للتخلص منه.. بدوري أرسلت من يحمل الرضيع إلينا.. بعد قلق توارد أخبار مصر بمقتل أمير المؤمنين الآمر.. واحتضار الدعوة المستعلية.. لتعصف بمصر فوضى عامة. ويالدهشتي حين اكتشفت بأن الإمام الطيب لم يكن إلا رضيعة صغيرة. وأن الإمام الآمر حين بشرنا بمقدمه قتل ولا تزال زوجته حامل. وما بشارته إلا تمني بمقدم مولود ذكر.

وكان علينا المضي قدما.. فبوصول الصغيرة أقمنا الاحتفالات بإعلان ولايتي وحمايتي للإمام الطيب.. كاتمين سرها.. ولم يكن منا إلا تدبر الأمر والاستمرار في الدعوة له بنفس الحماس الذي بدأت به قبل وصولها إلى جزيرة اليمن. إلا أن سر جنس الوليدة تسرب.. ليجاهر البعض بالتشكيك.. ثار بعض أمراء القلاع والحصون ذوو الميول المجيدية النزارية. وتجمعوا لحصار ذي جبلة مطالبين بالكشف عن أصل ذلك الكائن.. لنكلف من يحمل طيبة سرا ويهرب بها خارج جزيرة اليمن.. حيث لا يصلها أي متطفل. وكانت جزيرة الهند هي أفضل مكان. معلنين ستر الإمام الطيب بمبرر الخوف على حياته. وهكذا تم الأمر.

جزيرة اليمن لم تكن في منأى عما يدور في مصر رغم إعلاننا فصل الدعوة عنها. إلا أن دعاة السلطان عبد المجيد الذي نشط أعوانه بملاحقة دعاة الطيبية وقتلهم. ولم يكتفوا بل أرسلوا دعاتهم إلى ذي جبلة يدعونني

.....

لم يكن لي من عمل غير أن تدعوني الأستاذة.. ومع الأيام وجدت نفسي مساعدا لها في إدارة منظمتها التي تنشط في أوساط النساء مدافعة عن السجينات والمغتصبات. مدعومة من منظمات خارج الوطن.. وكذلك من وقت إلى آخر أقود لها سيارتها. وقد ترك ذلك القيادي بعض غيرته.. تردد حين أسألها عنه: هو لا يجيد الرقص ولم يعد في مقدوره أن يتعلم!

لترك الطيبية مرغبين لي بالدعم والحماية.. وبطبيعة الأمر رفضت تلك المحاولات رفضا مطلقا.. مكررة إعلان حمايتي وكفالتي للأمام الطيب. مؤكدة فصل دعوتنا في جزيرة اليمن عنها في مصر.. محاولة إغلاق أبواب التواصل مع رسل السلطان عبد المجيد.. ليتجه بدعوته لاستمالة بعض الأمراء.. ولم تأتِ سنة ٥٢٩ حتى كان عدد منهم قد أعلنوا دعوتهم للمجيدية ومنهم والي عدن الزريعي.

لم تكن بداية نهاية سلطان ذي جبلة بعد ظهور الدعوة المجيدية.. إنما كانت قبل ذلك بسنوات وبالتحديد بدأت بيوم موت فارعة.. تلك الجارية التي لم يؤثر موتها على غيري.. الحدث الذي جعلني أعيد النظر في أمور كثيرة. ولم يكن انتشار ميل أمراء جزيرة اليمن المجيدية كما يفهمه الكثيرون. وكان خمولي وعدم حماسي السبب لانتشار المجيدية التي ضمت أمراء عدن وأبين وحضرموت.. تلاها المخلاف إلى تعز والجند.. بل واتسعت حتى حصن التعكر وحصن خدد بعد سيطرة المتغلبين عليهما. ولم تتوقف الأوضاع عند ذلك.. بل أخذ بعض الأمراء يدعون إلى إنشاء إماراتهم على أسس مذهبي .. فالداعي القاسم العياني أعلن نفسه إماماً زيدياً في شهارة ونواحيها .. كما أعلن في نفس الفترة بنو الهادي صعدةَ إمامةً زيدية أخرى.. وأقام الأشراف من بني سليمان في تهامة الشام إمامة خاصة بهم.. وكما هي تهامة الجنوب التي استمرت لبني النجاحي إمارة سنية وعاصمتها زبيد. وفي (ثلا) أُعلِنَت إمامة زيدية ثالثة.. أما صنعاء فضلت إمارة بيد المتغلب الهمداني. لتنكفئ ذي جبلة على نفسها.. وتتكرس مع بداية سنة ٥٣٠ مركزاً لدعوة الإمام المستتر الطيب.

تلك هموم ثقيلة. والهم الأكبر الذي كان يجثم على تفكيري ويؤرقني ليل نهار الإحساس بدنو أجلي.. لأكتشف بأني لست بشجاعة ونقاء فارعة. إحساس مخيف ومدمر يحتويني.. ولم تكن سلوتي إلا ما صنعته في أمر طيبة وإعلانها إماما مستتراً.. ذلك كان تعويضا عن خسائري. وسترتها بحيث لا يصلها أحد. وأصبح لذي جبلة سلطة دينية. ولم أعد مهتمة بمن تخلفني.. فلم يعد لنا غير ذي جبلة.. والدعوة الطيبية التي يقوم بواجبها خير قيام داعي القلم.. وإن أظهر فتورا في السنوات الأخيرة. دوما أسأل

نفسي: كيف سيتقبل الناس من تأتي بعدي؟ وكان عزائي أني صنعت إمامة امرأة في ثوب رجل.

ما كنت أخشاه حل.. فلم تأتِ سنة ٥٣١ حتى عجزت قدماي عن حملي. وفقدت القدرة على النهوض من فراشي.. يحملني مَن حولي لقضاء حوائجي. أو للاغتسال.. وإن ظل عقلي آخر حصوني يقضاً. كثيرا ما يذكرني بكل ما عشته ولذلك كنت أخاف أن تخذلني يوماً.. أو أصاب بالخرف.. ولذلك سارعت إلى تحرير وصيتي.. لم أنس تحديد المكان الذي أدفن فيه.. وبذلك خالفت تعاليم سيدتي.. حيث كان جميع أموات القصر يوضعون في سراديب غويطة.. حددت ما هو للإمام طيبة.. وجميع حليي.. وكذلك وقف الأطيان والصوافي. حددت رقوقاً ترافقني إلى رحلتي الأخيرة.

أعترف بأني قد خصيت نفسي بما كانت سيدتي تريد ضربه على بدنها.. وفصلت كل شيء مما وهبت من أموالي للطيب.. ومن مشاركة داعي القلم في الصلاة علي ودفني.. تعبيرا لما له من مقام في نفسي.. ولا أدري ما ينتظرني.. وإن كنتُ موقنة بأني سألقى ربي وكل ما عشته وكأن شيئاً لم يكن. هذا ما دونته لمن كنت أظن بأنها ستخلفني.. وقد اجتهدت أن أدون ما عشته في سلطان سيدتي ومن سبقها.. وفيما كان لي من سلطان ابتغاء مرضات الله.. وخدمة لدينه.. والحمد له عدد خلائقه وما سبح الطير في مشارقه ومغاربه.. ونختم بالصلاة على البهي ثم الوصي والآل أجمعين.. وعلى سادتنا أهل الفضل أئمة الدارين.. وأدعو الله يوفق من يخلفنا وهذا عهدي أرجو قبوله بقبول حسن.. إقبال أمين وعلى شرائطه مؤتمن.. وعلى المولى التوفيق والسعد وإلى صالح الدارين يرشدك برحمته إنشاء تعالى.. والسلام على من اتبع الهدى ودين التقوى".

وأنا أقرأ آخر كلماتها شعرت بمن يفقد نفسه.. ونضوب صفحات مشاعري وأحاسيسي. لم يعد لوجودي من معنى.. لكني شعرت بأن ما قرأته لم يكتمل. ليزداد حدسي بأن هناك ما كانت تود قوله.. أعدت فحص محتويات الصندوق عدا صفحة خالية إلا من خطوط طولية وعرضية.. اجتاحتني

خيبة كبيرة .. والصندوق أراه مليئاً بالفراغ. لم أكن أبحث عن دراهم أو ما يغري من حلي وجواهر. فقط كنت أبحث عما يطفئ ظمأ قلبي.

جلست على الصندوق أسأل نفسي: أين أنا من هذا الصندوق؟ لا شيء يخصني. عدت أفحص تلك الخطوط المتعامدة من جديد. لم أفهم ما تعنيه.. خشب الصندوق.. أن يكون له تجويف يخفي. لكنني لم أجد شيئاً.. جزَّأتُ ألواحه.. بسطتها أمامي.. كانت ألواحاً عادية لولا بعض الزخارف والرائحة القديمة. تركت تلك الألواح مغبونا بقية ذلك اليوم.

اليـوم الرابـع عـشر:

مع فجر يوم جديد عاودت تأمل خطوط تلك الصفحة.. لاحظت ما يشبه الممرات المتداخلة والقاعات الكبيرة.. بعضها متعامد وأخرى متصالبة.. لا توجد حروف.. خطوط واضحة وأخرى باهتة.. متمنيا أن تكون لتلك الخطوط معنى.. بعد تأمل رجحت أن تكون ذات معنى وليست طلاسم.. بل مخططاً مبهماً، مستطيلات وأخرى مربعة.. ليتبين بأنه مخطط لمبنى متجاورة جدرانها ومتداخلة. حملت تلك الصفحة باحثا عن زوايا وممرات يمكنني الاستدلال بها. الطابق العلوي للقصر.. أبحث في جدران قاعاته عما يمكن أن يطابق تلك الخطوط.. قادتني إلى سبعة أبواب مغلقة.. فتحت إحداها بعد جهد.. وجدت ممراً يفضي إلى قاعة كبيرة فارغة إلاَّ من غبار، أبواب قاعات أخرى يحتلها أيضاً الغبار.. من نوافذها تُرى وديان الجهة الشرقية هانئة بخضرتها.. عارية من الأثاث.. جدران وسلم يقود للأسفل.. قاعة كبرى تتخللها صفوف أعمدة حجرية.. تحمل أقواسا سوداء. لا توجد منافذ عدا سُلمٍ مُعتم.. أشعلت ناراً سرت على ضوئها.. بضع خطوات.. لأجده يتفرع إلى عدة سراديب.. أدركت أنني في بداية متاهة تحت الأرض. خشيت الضياع.. عدت مرعوباً. فتحت ثاني باب.. ممراً آخر.. قادني إلى دار كانت دار اليامي على ما يبدو.. وقد أضحت خاوية على طوابقها.. تلك الحديقة التي جلست إليه فيها مزهرة بربيع أشجارها.. عدت لأفتح باباً ثالثاً سار بي إلى دار مُلئت قاعاتها بأسرة فُرشِت بأغطية نظيفة ومرتبة.. أسرة متجاورة .. ثلاثة أدوار كل قاعاتها أسرة. لم أجد له تفسيراً.

وهكذا أعود لأفتح تلك الأبواب باحثاً عما خلفها.. فلا أجد مبتغاي.. غير دور فاضت قاعاتها بكتبٍ ملأت أرففاً حتى السقوف.. خمنت أنها تلك الكتب والمخطوطات التي جمعت في تلك الأيام من صنعاء. وقاعات أخرى لفائف لم تستخدم وأواني أحبار. وباب سادس قادني إلى مخزن لسيوف وسهام.. إضافة لما تحتاجه الجواري من عقاقير ومحاليل وأدوات غريبة وسوائل في دوارق كبيرة لا أجد لها تفسيراً. عدت لأفتح الباب السابع والأخير. قاعات على ما يبدو تخص الملكة وأوقاتها الخاصة.. فُرشت بما لم أكن أتصوره.. هبطت الدور الأسفل حتى قاعة واسعة غطت جدرانها مرايا كبيرة.. حوض كبير من المرمر يخرخر ماؤه إليها وخارجا من جهة ثانية إلى بستان خلفي. نطل من نوافذها على حدائق سفوح متدرجة. عدت صاعدا.. أفتش صناديق ورفوف قاعات الدور الثاني: صناديق من قناني العطر بمختلف أحجامها.. أواني بخور.. ومساحيق وزيوت.. قاعة صناديق لملابس متنوعة.. وأخرى مُلئت صناديقها بالحلي ودراهم فضية وذهبية.. صندوقان لفائف مزخرفة.. الكأس الذي حدثني عنه ذو الساق وقد وضع بالمقلوب على رف إلى جواره وعاء به عدة لفائف غريبة اللون.. فتحتُ إحداها كانت شبيهة بتلك اللفافة التي كانت تراسلني بها فارعة.. وقرأت البعض الآخر.. إحداها مختلفة وذات حرف مختلف:

"وعيت على الدنيا في قصر سيدي الملك علي محمد الصليحي وحولي حبوس تتبع القصور.. حتى لكأن قلعة صنعاء بقصورها حبس كبير.. وظل سؤال يجول بخاطري: هل جميع دور صنعاء حبوس غير معلنة؟ وهل السلطان يخلط في معاقبة العصاة بين الروح والجسد؟ ولم يدركوا أن الروح هي من روح خالق الوجود. والجسد من طينٍ فانٍ. ونتيجة لذلك لم أتخذ في حياتي حبساً.

حين يدنو أجل العبد فان الأسباب تتزاحم.. لتحمل روحه بعيدا نحو سموات علا.. نبجل الموت تبجيلا للحياة وتعظيما لها.. والموت ليس إلا فناء البدن وتحرير الروح من دنسه وحبسه لتحلق في سموات الطهر.. لا على الروح سلطان لأنها روح قدس من روح الله.

ولذلك جميع أرواح الخلائق تصعد لأنها من روح الله.. غير مدنسة بأفعالهم.. لتهبط أجسادهم مثلما جاءت من الطين.. ولذلك لم يكن لنا في ذي جبلة مقبرة.. فأرواحنا جميعاً تصعد ليستعيد الله أمانته وتذهب أجسادنا الخاطئة إلى مكمنها في باطن الأرض.

وكان لي أن انتهجت نهجا جديدا لتطهير روح الله من أجساد العصاة.. فقط فوهة تهبط من دار متصل بالدور الثاني إلى سراديب القصر المنسابة باتجاه سفوح المرتفع الخلفي للقصر. فلا حبوس ولا تعذيب.. فقط يجز شعر المتوفى.. ويزال شوائب جسمه.. ثم يحرق ذلك الشعر ويلقى في الفوهة.. ويأخذ بدنه حقه من النظافة.. بالغسل جيدا.. ثم يصلى عليه أن يغفر الله جميع خطاياه.. يدلى بحبال طويلة ويترك في القاع ". كما بدت لي بخط مولاتي سيدة.

لفافة ثانية.. امتلأت بنقوش لرموز كثيرة بينها أسماء الله وتعاويذ من الجن والشياطين.. ولفائف بحروف غير عربية. وعلبة صغيرة بها خاتم كان يرى على سبابة كف مولاتي حين ترفع كفها في مقعد حضرتها. نمت تلك الليلة في حضرة تلك اللفائف منهكاً.

اليوم الخامس عشر:

لأصحو اليوم التالي مواصلاً القراءة قرأت عدة صفحات.. لكنها لفافة بخط أميزه جيداً: " أبرأ إليك ربي .. من يعفو ويصفح كريم عظيم الشأن لا يوجد لك قرين.. وأستغفرك من كل ذنب وأستجير بك من حر الموقدة. وأستصرخ شفيعي أبا الزهراء خير من سار على وجه الحياة.. وأعتصم بالآل والأئمة الأطهار. واستغفر الله في البداية والنهاية.. هذه براءة من كل فعل آثم اقترفته ومن تقصير حاصل سرت فيه.

لم يكن لي أن أتركه بعد أن فارقت هذه الحياة كسيرة القلب.. مثلما لم أتركه طيلة سنوات عمره.. وكنت الراعية له والمحافظة على طريق انتهجته. أنا على يقين من أن عقله قد تشمم رائحتي بين أسطري تلك التي أوصيت بتسليمها له.. وأنه قد أستدل عليَّ.

أعلم بأني اخترت طريقاً غير طريقه.. وظللت طوال أيامي أظهر السعادة لتلك الخيرة.. ولو عاد إلى بداية اختطافي إلى جبال حراز حين كنا صغارا لعرف بأن طريقي قد حُددت هناك. وحين عاد بي والدي إلى صنعاء كان هو الآخر يعرف بأن مساري قد رُسِمَ ولم أعد تلك الصبية التي رافقها جوذر في أزقة صنعاء.. أو تلك الصبية التي كانت تجالسه جوار لحظات نسخ ما علينا نسخه. وبعودتي من الجبال كنت أجيد كتمان ما يجول بداخلي حسب ما أوصتني به سيدتي أسماء: "دوماً الصمت المغموس بابتسامة عذبة أنجع الطرق للحفاظ على باطنك.. فلكل ظاهر باطن. ولكل باطن عوالمه التي لا يفقهها إلا أولو الألباب".. كنت أفكر أن أخبره من هي أمي لكن ما الفائدة المرجوة من ذلك.. وهذا أنا قد رحلت وأبقيته ينتظر. قد أقول كيف اخترت طريقي وأقول أن سيدتي أسماء سيدة حصن مسار بجبال حراز من اختارتني.. طالبة والدي أن أكون من ربيباتها. ليتحدد طريق حياتي بين يديها.. بالمقابل كانت عاطفته قد حددها قلبه.. وهكذا افترقت طرقنا. بعد عودتي من حراز عرفت كبت عاطفتي تجاهه بل ووأدها.. أسير بها ضاغطة على ما تريد.. ولا أطيعها أبدا.. وأتحدث معها دوما..أتوسل إليها أن تقبع بداخلي دون حركة.

في أيام الجبال العالية كنت في طور البحث عمن أكون.. وكان هو يعيش كما غيره من الناس دون توجيه. وكم كنت أود أن يرى ويتأمل في ماضي أيامه.. حينها سيجدني معه.

بل لو بحث حوله بعد رحيلي عنه سيجدني إلى جواره.. قد تكون سنواتنا شيئاً لم نعشها معاً.. لكنها الحياة جمعتنا لنعيش في نفس نهر أيامها.. تلك النهارات والأماسي.. وتلك الروح أيضا كانت تسكننا.

لم يكن ضرب ذلك الوشم إلا رابط يذكره بي حين يفتقدني. وكما تمنيت كان مخلصه ومنقذه من موت محقق. كما تمنيته أن يكون منقذي يوم لقاء من لا لقاء بعده.

لم يكن اليامي إلا رسولاً ليجلبه قربي.. فبعد أن اقتنعت سيدتي باستخدامه.. أوحيت له بأني رهن رغبته إن أتى به.. وبالفعل أوصله مقيدا.. وفي ذي

جبلة كنت ألح على سيدتي أن لا يُترك فقد يهرب ولديه من أسرارنا.. وما ذلك إلا ليكون قرب رعايتي.

لم تكن فارعة إلا كائناً موصلاً بيننا دون أن تعلم هي. إلا أن يقينه بأنها أنا. كان يعذبني.. وكما هي محاولاته السابقة إقناعي بأني لست فندة ولا شوشانة أو عطش كانت توقر في قلبي ألماً شديدا ليقينه.. ولم يعرف أن لي من الأسماء الكثير.. وأني بيلسانة والعروس وغير ذلك مما كانت سيدتي تخلع علينا.. لكنني على يقين من أنه عرف بأني أروى.

كنت قد كتبت صفحات من الرقوق ما عشت في سنيني الأخيرة.. وكان رجائي أن تستفيد من تأتي من بعدي على سلطان ذي جبلها.. لكنه الطريق وصل إلى نهاية مسدودة.. فأوصيت أن تسلم تلك الصفحات إليه.. ويعلم الله أني حين كنت أكتبها لم أتصور يوماً أن تحل بين يديه.. بل كتبتها كما ذكرت ابتغاء مواصلة سلطان من ستخلفني.. لكنني أنعي سلطان ذي جبلة.. لتعود إلى عبث الرجل وإدارة الفتن وتحويلها إلى إمارات وسلطنات متناحرة كما هي عادته.. إرضاءً لشهوة التسلط والدمار التي جُبلَ عليها قابيل منذ الأزل.

وأعترف بأن سنين عمري حين شارفت على الغروب لم أجد مخرجاً.. أو أن سيدتي أسماء حين عملت على سلطان المرأة لم تفكر بخطوات تضمن إستمرار ذلك السلطان.. أو قد أكون أنا من فشلت في تربية إحداهن لتأتي بعدي.. كما نجحت سيدتي أسماء في تربية سيدتي سيدة. وكما هي صنعت بي. ولذلك واجهني عجزي وقِلَ حيلتي.. أو أني لم أكن على قدر ذلك التجول.. ليكون وأد سلطان ذي جبلة على يدي.. وتعود البلاد تحت رغبة الرجل المحرف لأديان وضع لها حيلاً لاستمرار سلطانه.. وبذلك أفسد جمال الحياة.. لتكتمل حلقات سطوته وتحويل الحياة لمشيئته.

حين أحسست بدنو الأجل احترت في مصير تلك الصفحات. ولم يكن هناك من أمل باستمرار مملكة النساء.. فكرت أن أحرقهن.. أو أتركهن كما يتركُ الميتُ أشياءه.. ثم قلت أخفيهن في مكان ما. واتتني فكرة أن أدعهن له.. تلك الفكرة جاءت في لحظة حنين. خاصة وإن ما كتبته بأسلوب

مخالفاً لسيدتي أسماء وسيدتي سيدة اللواتي كتبن وصايا.. ولذلك أتبعت نصيحة فارعة التي عرفت بأنها أخذت الفكرة منه حين حدثها بأنه يكتب ما يعيش.

وسؤال يلاحقني في أيامي الأخيرة: هل ما زال الشوق يتقد بقلبه؟ أم أن التقادم في السن يغير الرغبات.. سؤالي كان يلح عليَّ وأنا أراهُ طِيلة سنوات عمره يلاحق إيمانا أفتقده.. ما حيرني أن ذلك السؤال أخذ يردده قلبي كعتاب متأخر. وإن كان فات أوان سؤالي. لكني أرى بأني سألتقيه حتما وأسمعه يوما بعد لحاقه بي.

اخترت منذ أمد بعيد طريقاً سلكته كما ذكرت.. ولم يكن محض صدفة.. وعشت أكثر مما حلمت به. ودوما أسأل نفسي:هل عاش سعيداً كما أراد له قلبه؟ أم أنه تعذب! فمن كان منا راضياً على حياته؟ وسؤال آخر تردد في أيام عجزي: لو عادت بنا الأيام إلى صبانا هل كان سيختار كل منا نفس الطريق؟ لأجد نفسي تجيب بعناد: نعم كنت سأخطو نفس طريقي وبرغبة شديدة. وهو ماذا كان سيختار؟ لا أظن أنه سيختار طريق الشقاء الذي عاشها.

أسأل وأنا أعرف عنه كل شيء. بينما هو لم يكن يعرف عني إلا القليل.. وما كان يظنه أنه يعرف كان وهماً. قد يقول أنه عرفني في دارنا الصغيرة وحولي أبواي.. وقد يقول بأنه التقى بي أكثر من مرة ناكرة لنفسي.
وسيقول بأنه تعرف على كل حياتي في قصر ذي جبلة.. لكني أقول ليست تلك هي كل الحقيقة.. فهو كان دوما معزولاً ومنطوياً معظم سنواته.. حبيس دار النسخ.. ولا يعرف عن حياة القصر إلا ما ذكرت له فارعة.. أما أنا فبعيد عنه. فبينما كانت حقيقته لي واضحة.. أعرفها بكل تفاصيلها.. حتى سنوات حبسه في ظلمة قلعة صنعاء.. وبعد خروجه منها. ولذلك ظللت أتتبع ما كان يعيشه وإن كانت بشكل متباعد في البداية.. تلك المعرفة التي لا تقود قلبي إلى تلبس العاطفة. بل متابعة في محاولة لرعايته. دون أن أترك نفسي لقيادة قلبي.

قرأت معظم ما كتبت إليه فارعة. فحين ظنت أن لا أحد يشاركها ما كانت تكتبه إليه كانت واهمة. وما اعتقدت بأن تلك اللفافة فريدة من نوعها.. كما ظنت واهمة بأن تلك اللفافة قد وقعت بين يديها صدفة. ولم تعرف بأني كنت أغير لها تلك اللفافة بين فينة وأخرى. فقط كنت في شوق لمعرفة سر لهفتها إليه.

حتى أنه حين اعتقد بأنه احتجز تلك اللفافة.. لا يعرف بأنها عادت إلينا.. ولو بحث عنها في الأيام فلن يجدها بحوزته.. لم يكن من سحر بتلك اللفائف.. هي فقط من رقوق صنعها اليهود بغرض المراسلات السرية.

استطاعت سيدتي أسماء في بداية حياتي أن تملكني إرادة مختلفة.. لأمضي في طريق بعيدا عن غرائزي القلبية.. وبذلك لم يعد لقلبي الأمر عليَّ. كما بدد جوذر سنين حياته خلف قلبه. كان لدي قدوة أتبعها بينما هو دون مرشد بعد أن قُتِلَ معلمه.. كانت طريقي تسير في حياة تقود إلى السلطان.. وكانت كلمة السر التي وضعتها في قلبي أن الرجال بلاء يجب تجنبهم.. وإن لم، فيجب أن نعايشهم كما يعايش المريض مرضا أبتُلي به.

لا أنكر أن عواصف عشق هبت حول قلبي لمرات.. لكنها تساقطت كالأجنة الخدج.. أصل في بعضها إلى البتر.. بل أن تصل مع نفسك إلى الحدود التي يمكن أن تقترب من الهاوية دون أن تهوي إلى قعرها.. أو أن تجالس النار على مسافة لا تحترق بلهبها ولا تبتعد حتى يحتويك الصقيع.. وهكذا كانت حياتي ملكاً لما أريد تحقيقه.. أو هكذا ظننت أني عشتها. ولم أندم للحظة حين مضيت في تلك الطريق حتى النهاية. فليغفر لي الله في حق ذلك الكائن.. وأحمد الله البعيد.. الباقي وكل من عليها فان.. لا إله إلا هو كل لحظة وهو في شأن.. وأصلي على رفيع النبوة فوق كل مكان.. وعلى وصية أشرف ترجمان.. وعلى الأئمة القائم منهم إمام في كل زمان هُداةً يُبشر بهم ربُهم برحمةٍ منه ورضوان.. أن يرحمنا برحمته الحنان المنان".

أكملت قراءتي لتلك الأسطر.. وقد غامت عيناي بدمع غزير.. نمت من غبن احتواني.. ولم أعد قادراً على رؤية ما حولي.

اليوم الأخير:

نهضت صبيحة اليوم التالي باحثاً عما تبقى من رقوق.. تصفحت بعضها.. لا أعلم لماذا وعمَّ أبحث بين سطورها؟ ثمة فراغ قاتل. وسؤال يتردد: لماذا كَتَبَت شوذب تلك الصفحة الأخيرة ولمن كانت موجهة؟ من كانت تريد إقناعه بما قضته في سنين حياتها؟ هل أرادت إقناع من يقرأها بأنها سيدة أقدارها؟ أم هي مشاعر عزاء تقدمها لنفسها؟ ثم من أين لها بتلك الأنفة التي توحي بها؟ هل ما عاشته غاية في التعاسة وتود إظهار العكس تعويضا لكبرياء منقصوة؟ أيعقل أنها لم تفقد شيئاً مقابل أن أمست أروى؟

تركت متاهات الأبواب السبعة.. لم تكن تهمني تلك الحلي والعطور والملابس.. ولا صناديق الدراهم.. والسيوف المذهبة. فقط كنت أبحث عنها وعني في تلك الزوايا.. لكني لم أجد شيئاً! عدت السطح وقد تملكني إعياء لا أعرفه من قبل.. لم يعد لي من عمل أقوم به بعد كل ما قرأته خلال الأيام الماضية.. فقط أفكر بالخروج من هذا المبنى اللعين إلى تلك الأودية والتلال. أن أهيم على وجهي ولا أخشى هرمي. أن أموت هنا وحيدا كما تتخشب أشجار الغابة.

مكثت أدور وأدور لا ألوي على شيء حتى غالبني نوم متقطع.. أنتظر بهجة فجر اليوم التالي. وحين جاء في موعده نهضت يقودني يأسي. كان بهاء الشمس غريباً.. بل أنني كنت أنظر في عينها دون أن تقهرني. طيوري تسير على الأرض حولي.. لم يعد من فتات.. هبطت لجلب ما يسد رمقي وأرماقها من كسر الخبز ومُستحلب السمن والعسل.. أدندن بحزن أثناء هبوطي السلالم الطويلة حتى باب دار المؤنة.. رأيت جحافل جرذان تتقافز بأعداد كبيرة لتختبئ خلف الأواني والجرار وقد أضحت تلك الأواني فارغة.. إلا من بقايا متناثرة على الأرض من خبز وعسل وبقع الدهن.. غبار الطحين. كل شيء مبعثر.. وقفت مرعوبا. عاودت ظهورها من بين الجرار والأواني.. تراجعت وأنا أرى عيونها تحدق في عيني بشكل غريب وكأنها تفكر.. نسيت جوعي هارباً لا ألوي على شيء.. صاعداً بهلع ممرات وسلالم السطح.. مكثت تحت الشمس أفكر فيما أنا فيه.. تمددت أرضاً. تقافزت تلك الطيور نحوي. أظن ريشها تناسى الطيران وجنح

للدعة.. كما لو أنها تشعر بي وهي تحوم حولي.. تذكرني بالقطط لحظات تجمعها حول أمها الملقية ضروعها الصغيرة.. مكثت أداعبها بأصابعي.. هي المرة الأولى التي يسمع كل منا أنفاس الآخر. شجيرتي وقد تجاوزت أغصانها أعلى أحجار البرج.. بعد أن غطت كل أحجاره وقد حولتها إلى وطن يتمدد من الخضرة المزهرة.

يـــــوم ما بعد الأخير:

الطيور تغادر أعشاشها.

جذبتني خيوط يوم جديد.. استجبت لحركة أسراب طيور برج الصمت. نهضت أتأمل الكتب التي أمقت اصطفافها على الرفوف.. سئمت تعاليها. خرجت والطيور تحوم حولي تنتظر الفتات.. شجيرة تزهو بإزهارها الداكنة.. وأغصانها المشرئبة لمداعبة الريح. طفت بناظري الوجود من حولي.. تلك الجبال والوديان التي أراها كل نهار.. أصوات مزارعين في حقولهم.. تتابع عيناي آخرين يسابقون بهاءهم هابطين.. أعمدة دخان تتراقص من دور قرى الجبال والمنحدرات نحو السماء.. قطعان أغنام على الروابي القريبة.. كل ذلك أنساني جوعي لبعض القوت.. حياة الوديان والجبال كما هي كل صباح.

على الروابي الشمالية لاحظت مجموعة من البشر.. بعد وقت تزايدت أعدادهم.. ما لبثوا أن هبطوا باتجاه الوادي بدوابهم.. حجبتهم أشجار أخدود الوادي.. مر وقت حتى ظهروا صاعدين منحدر قصر ذي جبلة.. استطعت

.....

تواردت الأخبار حول انتشار جماعة الحوثي المسلحة في محافظة صعدة.. ولم تمضِ أشهر حتى حاصروا بلدة دماج ونسفوا مساجدها.. وطردوا سكانها السلفيين. ثم تزايدت الأخبار عن زحف الجماعة على معاقل مشايخ حاشد ونسف دورهم.. وملاحقتهم.. وفي غضون أشهر دخلت الجماعة مدينة عمران وحاصرت معسكراتها حتى سيطرت عليها وعلى إدارات الدولة فيها.. ليجتاحوا بعد أسابيع صنعاء ويسيطروا على مقار السلطة.. ليكتشف الجميع أن الرئيس صالح أمسى حليفهم.. ولم تمض أيام على اجتياحهم صنعاء حتى ضُرب حصار على سكن الرئيس هادي .. واحتجزوا رئيس الوزراء بحاح في داره.. كما احتجزوا معظم وزرائه. لتدور أكبر عمليه ملاحقة في تاريخ اليمن لمن يعارض انتشار فكرهم السلالي المذهبي.. ليتجه مسلحوها جنوبا مخلفين النار في كل مكان يطئونه. وكان الجميع يتوقع إعلان انقلاب في كل لحظة على هادي وسلطته.

تمييزهم.. نساء قلة يمتطن خيولاً والبقية يسرن في صفوف متلاحقة. يصعدن مرتفعات القصر. غشاني شعور بالسعادة.. متساءلا: هل هن جواري ذي جبلة؟ أم مقاتلون في لبوس تنكرية.. ظللت أتابع صعودهن وقد ميزت إحداهن تتقدمهن على خيل فتية.. يحيطها مجموعة من الفارسات حملة السيوف وخباء سهام وأقواس عُلقت على أكتافهن. لم أحتمل البقاء.. قررت أن أهبط لأكون في استقبالهن خارج القصر.. تركت السطح هابطا أرتب ما سألقيه في استقبالهن.

وطأت الدور العلوي حتى فوجئت بأسراب جرذان وقد غطت كل شيء. لحظتها طرأت تساؤلات: هل تلك الجرذان وراء اختفاء سكان القصر؟ لكن من يكُون الصاعدات من الوادي. لففت خرقا برأس عصاي الطويلة.. أشعلت النار.. كل ما حولي جرذان وبقايا أثاث وملابس وخيوط الستائر المعلقة تحركها الريح.. هبطت محركا شعلة النار حتى الدور الثاني.. زادت أسرابها.. وذلك العبث في كل مكان.. لم يكن لي إلا أن أبحث عن طريق لأهرب خارج القصر.. عبرت ممراً إلى دار ملحقة وأنا أحرك عصا اللهب يمينا ويسارا.. قادتني قدماي إلى فوهة واسعة وسط قاعة خالية من كل شيء.. روائح تبعث على الغثيان.. لم يكن من باب غير ذلك الباب الذي أتيت منه.. اقتربت من شفة الفوهة.. رفعت شعلتي عاليا. سمعت أنين رياح عفنة تتصاعد.. رأيت أسراباً منها تتجمع من سراديب جانبية.. أكواماً مبعثرة على أرض لزجة.. تأملتها.. شبيهة ببقايا متحللة. هي نفس السراديب التي أطللت عليها ذات نهار من نقب جدار دار النسخ. كما لو كانت بقايا جثث متعفنة.. لكن لماذا؟ وكيف؟

ألتفت لمنظر تكاثر أسراب الجُرذان.. لوحت بشعلتي محاولا العودة من حيث أتيت.. تتكاثر فوق بعضها البعض مصدرة صوصة غامضة.. لوحت بشعلتي باتجاهها مذعوراً.. تقدمت مغامرا باتجاهها.. أتلفت خلفي لأرى أسراباً أخرى تتدفق.. تلك اللحظات رأيت أيام عمري.. أيامي مع أمي ..معلمي.. شوذب.. ظلمة الله.. صالات قصر قلعة صنعاء.. جبال مكة.. كل حياتي رأيتها في اشتعال برق.. زادت أعدادها حولي وتعاظمت صوصواتها المفزعة. لا أعرف أي شجاعة واتتني حين تقدمت لأضربها

بعصاي.. تدافع المزيد منها لأواصل ضربي.. كادت قواي أن تنهار.. أرى الموت يقترب مني. شبت النار في بعض وبرها.. تشجعت في ضربها يمينا وشمالاً. لتتقافز كتل مشتعلة في كل اتجاه. تقدمت متابعا ضربها.. أنتشر دخان برائحة الشواء.. هرولت عبر الباب الذي دخلت منه عدت الدور الثاني.. تتقافز كتل النار مسرعة في كل اتجاه.. مضيت في اتجاه أعرفه جيدا.. هابطًاً سلم دار النسخ.. في حجرته وقفت مندهشاً وقد مُلِئت الجدران والسقوف بألوان ونقوش مذهلة.. رأس حليق له فم مخيف كأنه ضربة فأس.. عينان كهفيتان .. وأنف طويل.. يتكرر لا يشبه أحدا.. وجه امرأة لها نظرات مبهمة.. يتكرر حليق الرأس ليغطي الجدران. لم أكمل تأمل بقية الجدران.. سريعا ما لحقت جرذان النار لتعم الفوضى دار النسخ.. هربت خارجا حتى الساحة الأمامية للقصر.. لمحت مجموعة من النساء تتقدمهن فارسة على ظهر فرس فتية.. خلفها صفوف متراصة من الخيالات لنساء منتظمات بشكل مدهش. خلفهن أشجار الغابة لا تتحرك. تذكرت بأني هبطت لاستقبالهن والتعرف عليهن.. لفت نظري.. منظر أعمدةُ دخان أسود تتصاعد من نوافذ أدوار القصر العليا.. طيور تحلق عالياً. جزمت أنها طيوري وبعضها لم يغادر أعشاشها.. تذكرت شجيرتي. عدت ملهوفا عليها.. استقبلني دخاناً أسود كثيف يملأ دار النسخ.. دنوت أرضاً حتى السلم الصاعد.. اعترضني لهب يلتهم الباب. عدت زاحفا بعد أن كدت أختنق.. لمحت باب غرفة شوذب.. اتجهت نحوه ممدداً.. دلفته.. رأيت عينيها باسمة تنظر إليَّ من علياء جدارها.. لاحظت أن ماكنت قد نقشته حولها قد تغير.. وقد أحتله نقش رأس ذلك الرجل الحليق بفمه الفاسي.. يحاصرها متكررا من كل اتجاه. دخان الشواء يتسلل بكثافة إلى أجواء شوذب حتى حجب نقوش السقف .. ثم أخذ بالهبوط ثقيلاً.. ركعت أمامها.. التصقت بألوانها.. استجابت فاردة ذراعيها.. شعرت بنبض أحضانها.. أغمضت عيني أعاني الاختناق.. تهدهدني بصوت عذب.. بينما كنت أسمع وقع أقدام وأصوات قادمة من الخارج.. دخان السقف يهبط ثقيلا على أنفاسي.. فتحت عيني محاولا المقاومة.. أن أتنفس.. تسرب الدخان بحرقة إلى صدري.. أحسست بأصابع تمسك بمعصمي.. تسحبني..

وأصوات ترتفع. كنت أعاني ألتنفس.. لا أعي مايدور حولي.. فقدت القدرة على فتح جفوني. غاب وعيي عن من يسحبني.

.....

في تلك الأيام أكملت قراءة أوراق جوذر.. في الوقت الذي أخذت الجماعات المسلحة تتقاتل في عدن وتعز.. ودخل طيران السعودية في قصف المواقع والتجمعات المسلحة في عرض البلاد وطولها.. ليفر الكثيرون ممن يعارض الاحتراب خارج البلاد.. حينها طَرَحتْ عليَّ الأستاذة فكرة الهروب معاً خارج الوطن.

محمد الغربي عمران:

صدر له في القصة:

- الشراشف.دمشق.

- الظل العاري.صنعاء

- حريم أعزكم الله.القاهرة

- مئذنة سوداء. صنعاء

- ختان بلقيس.صنعاء

الرواية:

- مصحف أحمر.. رياض الريس ٢٠١٠ بيروت.

- ظلمة يائيل الفائزة بجائزة الطيب صالح ٢٠١٢.. صدرت عن الهيئة العامة المصرية للكتاب. القاهرة.

- الثائر.. الساقي.. بيروت ٢٠١٤

- ملكة الجواري .. هاشيت أنطوان.. بيروت. ٢٠١٧

وهي الرواية التي فازت بجائزة كتارا.. ثم حجبت لصدور الرواية قبل إعلان النتائج بشهرين.. وقد صدرت عن دار الهلال المصرية أيضاً

- حصن الزيدي.. رواية تصدر قريبا عن دار هاشيت إنطوان.. بيروت

- يعكف على إنجاز رواية جديدة..

- يكتب في أدب الرحلات.

- يكتب قراءات ومقاربات نقدية.

- شارك في عدد من الملتقيات السردية العربية.

- متفرغ منذ سنوات للكتابة.

.....

للتواصل بالكاتب:

محمول: ٠٠٩٦٧٧٧٧٤١١١٢٠

أيميل:algarby@gmail.com

فيسبوك:
https://www.facebook.com/profile.php?id=100000195878105